قدري قلعجي

ثمانية من أبطال العرب

حكايات الأيام الماضية لأبناء الأيام الآتية

عبد القادر الجزائري

عمر المختار

يوسف العظمة

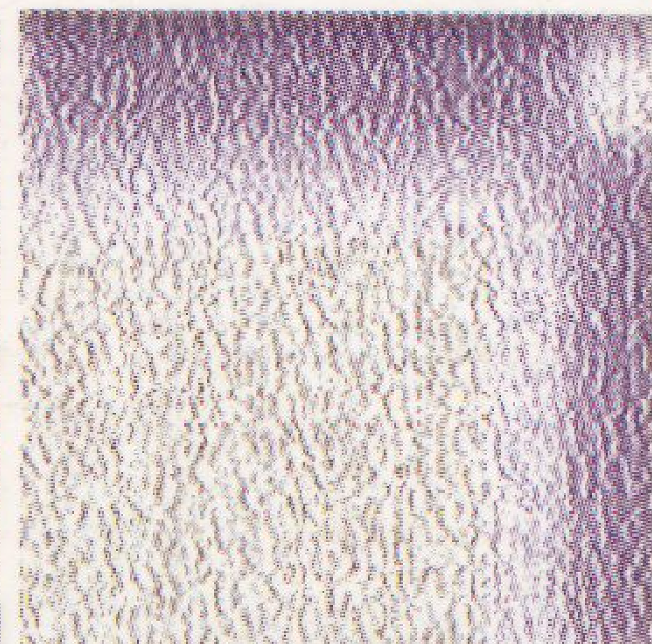


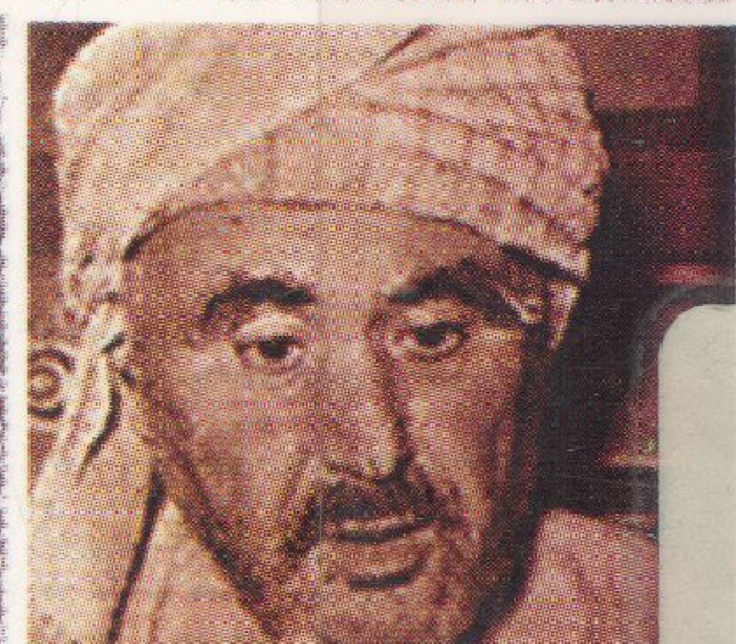




عبد القادر الحسيني







عبد ... ال...









سعيد العاص

حسن الخراط

عبد الكريم الخليل

ثمانية من أبطال العرب

قدري قلعجي

ثمانية من أبطال العرب

حكايات الأيام الماضية لأبناء الأيام الآتية

قدري قلعجي



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شارع جان دارك - بناية الوهاد

ص. ب ٨٣٧٥ - بيروت - لبنان

برقياً: انكلسامس

تلفون٢ / ٣٥٠٧٢١

تلفون + فاكس: ٦٠٢٠٢٩ - ٣٥٣٠٠٠ (٩٦١١)

الطبعة الثالثة ١٩٩٧م

تصميم الغلاف: جومانا أبو شقرا

حكايات الأيام الماضية لأبناء الأيام الآتية

عبدالقادر الجزائري

فارس البحر الأبيض المتوسط

شعلة منيرة اللهب

تلفتت الجزائر في ذلك اليوم الأغر ، يوم الخامس من تموز ـ يوليه ١٩٦٢، وقد حققت استقلالها وظفرت بحريتها واستعادت شخصيتها ، إلى ذكرى مجيدة من ذكريات تاريخها ، ذكرى الثائر الأول على الاستعمار الفرنسي: عبدالقادر الجزائري .

ذلك أن المناضلين الذين عقد التاريخ على جباههم أكاليل الغار في ذلك اليوم البهي، كانوا على يقين بأن الاستقلال الذي نعمت به البلاد، ما كان ليتحقق لولا الكفاح الذي أضرم عبدالقادر شعلته يوم استل سيفه ليقرع به جبين الدولة المعتدية قبل الاستقلال بمائة وثلاثين سنة ، وتتابعت من بعده الانتفاضات والثورات ، من كفاح باي قسنطينة (١٨٣٢) إلى ثورة الزعاطشة (١٨٤٩) إلى ثورة الأغواط (١٨٥١ ـ ١٨٥٢) إلى ثورة القبائل الكبرى (١٨٥٧) إلى ثورة أولاد سيدي الشيخ (١٨٦٤) إلى ثورة الحاج أحمد الموقراني (١٨٧٠ ـ ١٨٧١) إلى ثورة عمال وهران (١٨٧٢ ـ ١٨٧٧) إلى ثورة

أبي عمامة (١٨٨٢) إلى ثورة جبال أوراس (١٩١٦) إلى ثورة قسنطينة (١٩٤٥) إلى الثورة الكبرى التي انفجرت في أول تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٥٤ وانتهت بإعلان الاستقلال بعد ثماني سنوات من نضال مجيد كان من ضحاياه مليون شهيد !.

فهذا الكفاح المديد الموصول على تتابع الأجيال ، وما تخلّله من بطولات وتضحيات ، هو الذي أبقى الشعلة دائمة اللظى منيرة اللهب ، وهو الذي حافظ بالتالي على شخصية الجزائر في ظل استعمار استيطاني غاشم كان يهدف إلى القضاء على هذه الشخصية العربية الإسلامية ، وتحويل تلك البقعة الغالية من الوطن العربي إلى ولاية فرنسية .

الجزائر سيدة البحر المتوسط

ظلت الجزائر حتى القرن السادس عشر دولة مستقلة يعيش سكانها في رخاء وطمأنينة ، بينما كانت أوروبا يأكل بعضها بعضاً بالحروب الدينية والدنيوية التي تزرع الخراب والدمار في كل بقعة منها . وكان على رأس الحكم في الجزائر آنذاك الداي والباي يرئس الأول السلطة السياسية وينوب الثاني عنه في إدارة إحدى المحافظات ، والأمن فيها مستتب والزراعة مزدهرة والتجارة ناشطة والمواطنون ناعمون متآلفون .

ولكن ظهور الخطر الإسباني وقيام امبراطورية شارل الخامس الذي وحّد الامبراطوريتين الإسبانية والجرمانية وأنشأ الأسطول

الضخم الـذي عرف بـاسم الأرمادا ، جعـل الجزائـر تتجه نحـو دولة المشرق الأولى يومذاك ، وهي الدولة العثمانية ، فارتبـطت الجزائـر بها اسمياً لتحتمي بحماها وتستظل بسلطانها ولكنها لم تتنازل عن سلطاتها الوطنية فـظل داي الجزائـر يقيم العلاقـات الدوليـة ويعقد المعـاهدات السيـاسية والاقتصـادية بـاسم الجزائـر المستقلة وليس باسم الحكـومـة العثمانية .

وكان الأسطول الجزائري سيد البحر الأبيض المتوسط ، وكاد يعد في طليعة أساطيـل العالم ، وكـان هذا الأسـطول يفرض الـرسوم عـلى الأسـاطيل الأجنبيـة كي يسمح لهـا بأن تمخـر مياه هـذا البحر . وقـد ضاقت الدول الأوروبية بذلك ، واعتبرته نوعاً من القرصنـة ، ونشبت الحروب بينها وبين الجزائر ، ولكنها انهزمت أمامها جميعاً .

ولما نشبت الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ عقدت الجزائر مع حكومـة الثورة اتفاقاً اقتصادياً لتزويدها بالقمح والخيـل ومدهـا بالقـروض بينما كـانت أوروبا كلهـا تعادي هـذه الحكـومـة ، كـما أبـرمت معـاهـدات اقتصادية مماثلة مع بريطانيا وهولنـدا والدانمـرك . وكانت الجـزائر أول دولة اعترفت باستقلال الولايات المتحدة الأميركية يوم أعلنت انفصالها عن بـريطانيـا في سنة ١٧٦٦ ، وعقـدت معهـا سنـة ١٧٩٥ معـاهـدة صداقة تعهدت الجزائر في أحد بنودها بألاَّ تبيع سفناً حربيـة لأية دولـة هي في حالة حرب مع الولايات المتحدة .

وقد حصلت فرنسا سنة ١٧٩٣ على قرض من الجـزائر بمبلغ ربـع مليـون من الفرنكـات الذهبيـة ، وألحّت عـلى الـداي عـام ١٧٩٥ أن

يقرضها ثلاثة ملايين ولكنه اكتفى بإعطائها مليون فرنك فقط ، ثم تعاظمت هذه الديون حتى بلغت ٢٤ مليوناً من الفرنكات الذهبية .

الفرصة الذهبية

وكانت فرنسا تغضب كلما طالبتها الجزائر بتسديد هذه الديون ، وقد ادعت أثناء المفاوضات بأن القمح الذي تسلمته كان رديئاً ويختلف عن المواصفات المتفق عليها ، وجمّدت المبلغ ، ثم شكّلت لجنة خفضت الديون من ٢٤ مليون فرنك إلى سبعة ملايين . ووافق البرلمان الفرنسي على هذه التسوية . وحدثت من جراء ذلك جفوة بين البلدين عقبتها اشتباكات متبادلة بين سفن الدولتين في البحر الأبيض المتوسط . وفي عهد نابليون نشأت فكرة التوسع الاستعماري ، وأخذ الامبراطور يتطلع إلى الجزائر لإنشاء قاعدة بحرية على ساحلها يوازن بها قواعد الإنكليز في جبل طارق ومالطة . وظلّت هذه الفكرة تنمو حتى فرضت نفسها في عهد الملك شارل العاشر.

وكان هذا الملك الذي تولى الحكم إثر سلسلة من الأحداث انتقلت فيها فرنسا من الحكم الملكي إلى الحكم الجمهوري فالحكم الإمبراطوري ، يعاني وضعاً داخلياً مضطرباً بدأت رياح الثورة تهب فيه خفيفة ولكنها تنذر بأن تتحول إلى رياح عاصفة . فأراد شارل العاشر أن يقوم بحرب أجنبية ضد دولة مسلمة ليستدر عطف رجال الكنيسة من جهة ، وليتخلص من عدد كبير من العاطلين المشاغبين من جهة ثانية ، وليعيد لفرنسا من جهة أخرى مكانتها التي تدهورت

بعد هزيمة الجيوش النابليونية وفقد مستعمراتها في الهند وأميركا وجزائر المحيط.

وحانت فرصة ذهبية بالنسبة لشارل العاشر، حين غادر الأسطول الجزائري المياه الجزائرية للاشتراك مع الأسطولين العثماني والمصري في معركة نافارين، ضد أساطيل بريطانيا وفرنسا وروسيا أثناء ثورة اليونان في سنة ١٨٢٧، وقد دمّر الأسطول الجزائري في هذه المعركة الشهيرة - بالإضافة إلى الأسطولين العثماني والمصري - ولم يبق للجزائر سفن حربية تدافع عن سواحلهم. فأرسل ملك فرنسا إلى دوفال قنصل فرنسا بالجزائر، أمراً بأن ينتهز فرصة غياب الأسطول الجزائري لافتعال حادث يبرر غزو الجزائر والاستيلاء عليها.

حادث المروحة

وفي اليوم الأول من عيد الفطر سنة ١٢٤٣هـ (٢٧ نيسان - إبريل ١٨٢٧م) ذهب القنصل الفرنسي لتهنئة الداي حسين باشا في قصر القصبة، وبعد تبادل التحية والتهنئة قال الباشا:

- لماذا لم أتلق إلى الآن جواباً من الملك عن رسالتي بشأن تصفية الديون التي تدينون لنا بها؟.

فقال دوفال بوقاحة:

- وهل تظن أن جلالة ملك فرنسا يتنازل للإجابة على داي الجزائر؟!.

فوجم الحاضرون ، وأدركوا أن هذا الاستفزاز متعمّد ، بينما وقف الباشا وسط الديوان غاضباً ، ورد على ذلك الجواب الأحمق بقوله وهو يشير إلى الباب بمروحة من ريش النعام كان يحملها :

ـ أخرج يا حقير . . أخرج من هنا حالاً ! .

فادعى القنصل أن ريش المروحة قد لمس وجهه ، وخرج صاخباً محتجاً وهو يقول :

ـ إن هذه الصفعة ليست موجهة إليَّ وإنما هي موجهة إلى ملك فرنسا ، وهو يعرف كيف يثأر لنفسه !

وأيقن قناصل الدول بأن فرنسا قد ظفرت بالحجة التي ستتذرع بها لاحتلال الجزائر .

والواقع أن وزارة الخارجية الفرنسية ما لبثت حتى استدعت سفراء الدول الأجنبية وأبلغتهم نبأ الإهانة التي لحقت بشرف الملك في شخص ممثله ، وطلبت منهم أن يبلغوا حكوماتهم أنها إذا لم تتلق من الداي الترضية الكافية خلال ٢٤ ساعة فإن قواتها ستفرض الحصار على الجزائر . ثم بادرت الحكومة الفرنسية إلى إرسال سفنها الحربية إلى ساحل الجزائر بقيادة الضابط كوليت وحملته رسالة تتضمن الشروط والمطالب التي تطلب من الداي تنفيذها ، وكانت شروطاً ومطالب تعجيزية لم يجد الداي بدأ من رفضها وقال لقنصل سردينيا الذي حمّلها إليه : « لم يبق إلّا أن يطلبوا امرأتي ! » .

وعلى إثر ذلك أعلن كوليت الحصار على الجزائر ، واستمر هذا

الحصار حتى أيار ـ مايو ١٨٣٠ ، قبل أن يستقر الـرأي بين السيـاسيين والعسكريين عـلى أهداف الحملة . وفي ٢٥ أيـار ـ مايـو غادرت هـذه الحملة ميناء طولون الحربي متجهة إلى الجزائر وهي تتألف من ٣٧ ألف جنـدي و٢٧ ألف بحار ، و١٠٣ سفن حـربيـة و٥٧٢ سفينـة تجـاريـة تحمل الجند والمؤن والذخائر .

أول ثغرة في بلاد العروبة

وكانت خطة الهجوم التي أعدت منذ عهد نابليون تقضي باحتلال شبه جزيرة سيدي فرج غير المحصنة التي تبعد نحـواً من ٢٠كيـلومتراً عن مدينة الجزائر ، واتخاذها قاعدة لاحتلال الدولة الجزائرية . وقد تم احتلال شبه الجزيرة في ١٣ حزيران ـ يونيه . وجمع حسين باشا قـوات الجـزائر ومن تـطوع من المناطق المجـاورة ، وأرسل إليـه بـاي تيـطري وباي وهران ما لديهـا من الجند ، وجـاء باي قسنطينة عـلى رأس قوة كبيـرة وكان ممكنـاً للجزائـر أن تنجـح في المقـاومـة ، لـولا أنها أمهلت القوات الفرنسيـة حتى تمركـزت في مواقعهـا قبل أن تبـدأها بـالقتال ، ولـولا أن الداي أسنـد القيادة إلى صهـره الآغا إبـراهيم الذي تنقصـه الخبرة العسكرية والذي احتفظ لنفسه بالأمـوال التي طلب منه حسـين باشا توزيعها على المقاتلين وقد ظلَّ قـابعاً في خيمتـه بعيداً عن المعـركة يرسل منها أوامره المتضاربة على غير هدى ، في حين كـان الحاج أحمـد باي قسنطينة أوفر خبرة منه وأقدر على القيادة .

وهكذا هزم الجزائريون بعد أن حصـدت النيران جمـوعهم وفرقت

الحمم الملتهبة صفوفهم ، وزحفت القوات الفرنسية إلى مدينة الجزائر فاحتلتها في ٥ تموز ـ يوليه ورفعت أعلام الدولة الغاصبة على أسوارها البيضاء . وغادرها حسين باشا إلى نابولي فالإسكندرية حيث قضى بقية حياته ، بدلاً من أن ينتقل إلى مدينة أخرى ، ويعمل على جمع كلمة الشعب والاستمرار في الجهاد والمقاومة .

ولكن ملك فرنسا الطاغية لم يفرح بانتصاره . . ففي ذلك الشهر نفسه ، ثار الشعب الفرنسي عليه فأسقطه وساقه إلى المنفى مهاناً ذليلاً .

وكان احتلال الجزائر أول ثغرة فتحها الاستعمار الغربي في بلاد العروبة بأقطار البحر الأبيض المتوسط وكان أول ما تمخض عنها ضياع استقلال تونس والمغرب . . وتتابعت بعد ذلك الجراح في قلب الوطن العربي وكان من جراء التنافس الاستعماري والتوازن الدولي أن وقعت مصر فريسة الاستعمار الإنكليزي وليبيا فريسة الاستعمار الإيطالي .

وقد وضع المحتلون أيديهم على خزائن الدولة الجزائرية ، وكان فيها مائة مليون فرنك عدا الذهب والفضة والحجارة الكريمة ، إلاَّ أن الماريشال ديبورمون قائد الحملة زعم أنه لم يجد فيها سوى ٤٨ مليون فرنك أرسل منها إلى حكومة باريس ٤٣ مليوناً واحتفظ بخمسة ملايين لتسيير الإدارة . وشرعت الدولة بعدئذٍ في التوغل في بقية تلك البلاد التي تبلغ مساحتها مليون ميل مربع لاحتلالها وتوطيد السيطرة عليها . وبدأت فرنسا تنظر إلى هذه الدولة العربية نظرتها إلى مزارع فرنسية يجب أن تستثمر بأعنف الطرق وأقل النفقات ، وأن تقدم لفرنسا الأم

جميع خيراتها وتمد مصانعها الناشئة بالمواد الخام التي تحتاج إليها . وشجعت هجرة المغامرين الفرنسيين إليها ، للإستيلاء على الأراضي والضياع والمزارع والكروم ، بعد انتزاعها من أيدي الفلاحين الجزائريين بموجب قوانين تعسفية .

الحرية بنت الجهاد

ولكن سرعان ما أدركت الدولة المستعمرة أن نسج الأحلام في عالم الخيال شيء وتنفيذها على أرض الواقع شيء آخر ، وأن الآمال التي عقدوها كانت سراباً خداعاً ، وما أصدق جول كامبون أحد سفراء فرنسا حين قال : « إنه لمن الخطأ أن نقول إننا استولينا على الجزائر سنة ١٨٣٠ ، فإننا نزلنا شاطىء سيدي فرج في هذا التاريخ ، ولكننا لم نتمركز في البلاد إلاّ بعد ذلك بكثير » .

فقد انتهت مقاومة الجزائر الرسمية لتبدأ فيها المقاومة الشعبية . . وهب الشعب الجزائري إلى الكفاح ذوداً عن أرضه وقوميته وعقيدته ، مؤمناً بأن الحرية بنت الجهاد ، وأن الحق لا يضيع ما دام صاحبه يطالب به ويناضل من أجله ، مهما تطاول الزمان وخيّل للناس أن ذلك الظلام الكثيف لن يعقبه فجر جديد ! .

وبينما كان الحاج أحمد باي قسنطينة يجاهد في الناحية الشرقية من البلاد ، ويصمد أمام العدوان الأجنبي حتى سقوط قسنطينة في سنة ١٨٣٨ التي احتلها الفرنسيون شارعاً فشارعاً ومنزلاً فمنزلاً لعنف مقاومتها وروعة بطولتها ، كان أبناء الشعب ورؤساء القبائل في

الناحيتين الوسطى والغربية يعقدون مؤتمراً في مدينة معسكـر في خريف سنـة ١٨٣٢ لتوحيـد صفوفهم تحت رايـة أمير واحـد يتولى قيـادتهم في الجهاد ، فيقع اختيارهم على الشيـخ محيي الدين الحسني لمـا اشتهر بـه من علم وفضل ووطنية وفروسية ، ولكنه يعتذر لسوء صحته وكبر سنه ويشير وهو يشاغـل بحبات مسبحته إلى كفايـة ابنه عبـدالقادر ، وبينـما الناس حائرون لأن الشاب الذي أشار إليه لم يتجاوز الرابعة والعشرين ربيعاً ، وبين الحاضرين من هو أكبر سناً وأكثر تجربةً وأعـز نفراً ، إذا بعبد القادر يقف بقامته الفارغة المهيبة ويقول : « أنا لها يا أبتاه . . أنا لهـا أيهـا السـادة . . وسـوف أذهب إلى الجهـاد حـامـلاً السيف بيـدي والقرآن الكريم باليد الأخرى ! . . » فتفعل هـذه المبادرة الجـريئة فيهم فعـل السحر ويقبلون عليـه فيبايعـونـه أميـراً عليهم . وخـلال ظـلام الاحتلال ، وعلى أضواء واعدة أشبه بالتماعات الفجـر ، دوى صوت الجزائر معلناً تأليف حكومة وطنية برئاسة الأمير عبدالقادر الجزائري .

الشاعر الصغير

تعلّم عبدالقادر القراءة والكتابة وهو في الخامسة من عمـره ، وفي سن الثانية عشرة كان متمكناً من القرآن والحديث وأصول الشـريعة ، ولم يبلغ سن العشـرين حتى كان قـد طالـع أمهات الكتب العـربية في التـاريخ والفلسفـة واللغة والفلك والجغـرافية ، وحتى الكتب الـطبيـة منها، وكانت خزانة كتبـه أحب مكان إلى نفسـه ، وكان إذا خـرج إلى وادي الحمام أو غادر قريته إلى مـدينة معسكـر ، حمل معـه واحداً من

هذه الكتب ليكون رفيقه في رحلته أو نجيّه في نزهته . . وبينما كان أترابه يمرحون ويعبثون في الكروم والبساتين المحيطة بقرية القيطنة بتنسيق بديع يأخذ بالألباب ، كان هو يلازم مجالس أبيه التي تضم نخبة من أهل الأدب والعلم ، فيصغي إليهم مأخوذاً مبهوراً وهم يتبادلون الآراء ويتناشدون الشعر ، ويتجادلون في معضلات الفقه أو يتذاكرون وقائع التاريخ .

وكان يبدو وهو في الثالثة عشرة من عمره جميل الصورة حلو التقاطيع، ذا شخصية عميقة جذابة ، يأسر الناس بلطفه ، ويكسب ثقتهم بثقافته . وفي تلك السن المبكرة بدأ ينظم الشعر ويعرضه على أبيه ، فيشجعه ويسدده وهو موقن بأن مستقبل ابنه قد تحدد ، ومعالم شخصيته قد اتضحت ، فكل شيء من حوله كان يعده ليكون رجل أدب وعلم ودين .

ولكن القدر كان يعده لمصير آخر! .

ولم ترتح السلطة التركية لتلك المجالس، وما يدور فيها من آراء ، ففرضت على محيى الدين الحسني سنة ١٨٢١ الإقامة الجبرية في وهران ، فانتقل عبدالقادر مع أبيه إلى تلك المدينة ، وأتيح له أن يتعرف بنخبة جديدة من أهل الأدب والعلم ، وأن يطلع على ألوان جديدة من الحياة ، وأن يزداد إيماناً بفساد الحكم التركي والحاجة الماسة إلى التطور والإصلاح .

ولكن الحادث الأهم في حياته كان رحلته مع والده سنة ١٨٢٥ إلى الحجاز لأداء فريضة الحج . وعلم أن له ثلاثة أخوة يكبرونه

سناً فقد خصّه أبوه وهو ابن الثامنة عشرة برفقته في هذه الرحلة لما يمتاز به من نباهة ونجابة . ولم تقتصر هذه الرحلة التي استغرقت عامين كاملين على زيارة الحجاز بل شملت تونس ومصر وسوريا والعراق ، وكان لها أبلغ الأثر في تعزيز ثقافته وتكوين شخصيته واطلاعه على أنماط مختلفة من الحياة الاجتماعية والسياسية وشؤون الإدارة والحكم . وخلال هذه الرحلة الطويلة لم يشعر عبدالقادر بالغربة قط ، وإنما شعر بالرغم من اختلاف الأوضاع واللهجات بين قطر وآخر ، بخصائص الشخصية العربية التي تجمع بينها جميعاً وتؤلف من أبنائها أمة واحدة ذات أصالة متميزة .

مؤتمر تحت شجرة الدردار

عاد الشيخ محيي الدين إلى بلاده وهي في بدء أزمتها السياسية مع فرنسا ، فغدا منزله منتدى العلماء ووجوه البلاد . ولما احتدمت الأزمة وتحولت إلى صراع عسكري انهار على أثره الحكم التركي في البلاد ، واجتاح المستعمرون مدينة الجزائر وبدأوا يزحفون إلى الأقاليم المجاورة لها لاحتلالها ، وجد الشيخ محيي الدين وولده عبدالقادر نفسيهما يهجران مجالس الأدب والعلم ، وينتقلان إلى ساحة القتال دفاعاً عن العروبة والإسلام .

وألّف الشيخ محيي الدين جيشاً كبيراً من فرسان القبائل وأخذ بنصب الكمائن للقوات الفرنسية فيفتك بها ، ولما تجلّت له شجاعة ابنه عبدالقادر وحنكته وشدة مراسه ، أنشأ يسند إليه قيادة المعارك ،

وإذا به يخط بسيفه قصائد أروع وأسمى من تلك التي خطها بيراعه ، وبرزت بطولته بصورة خاصة في موقعة «خنق النطاح» حيث قسم جيشه إلى خمس فرق : فرقتين للقتال ، وفرقتين للدفاع ، وخامسة كمنت وراء العدو ثم فاجأته أثناء تقهقره فأبادته قواته جميعاً ، وكان عبدالقادر في طليعة الفرسان المقاتلين وقد أصيب فرسه بثماني رصاصات ، ولم يصب هو بأذى ، إلَّا أنه أصيب بطعنة قاتلة في موقعة «برج رأس العيون» ولكنه ما لبث حتى شفي منها .

ويصف المؤرخ البريطاني شارل هنري تشرشل فيقول : « كان لا يدانيه أحد فروسية . ولم يكن عبدالقادر فارساً مهيباً فحسب ، بل إن تفوقه المدهش في كل متطلبات الفروسية ، التي توجب العين القوية واليد الثابتة والرجولة الحقة ، كان حديث كل أولئك الذين عرفوه . فقد كان يلمس كتف فرسه بصدره ويضع إحدى يديه على الفرس ثم يقفز إلى الجانب الآخر . أو أنه كان يدفع الفرس إلى أكبر سرعة ممكنة ، ثم ينزع قدميه عن المهماز ، ويقف على السرج ويطلق النار على هدفه بدقة عجيبة . وبلمسته الخفيفة الماهرة يثني الفرس العربي المدرب ركبتيه ، أو يمشي مسافات على رجليه الخلفيتين ، بينما تضرب قائمتاه الأماميتان في الهواء أو يلّوح ويقفز بهما كالغزال» . . «وخلال مناسبات كثيرة مليئة بالخطورة والمبادرة ، استعمل فيها عبدالقادر سيفه البكر ، أدت شجاعته وفروسيته لا إلى الثناء عليه فقط بل الإعجاب المنقطع النظير به ، فقد بدأ العرب ينظرون بتقديس خرافي إلى رجل يتمتع بشخصية وسيمة ، ويتقدم بلا خوف دون أن يلحقه أذى حيثما هدد الخطر ، فهو مرة يمرق من صفوف الرماة الأعداء ، ومرة يطلق

النار في شكل تربيعي ويكتسح حربات البنادق بسيفه ، وأخرى يقف دون حراك مشيراً بامتعاض إلى قنابل المدافع وهي تئز حول رأسه ، وإلى القذائف وهي تنفجر تحت قدميه ».

وقد ساد الشعور في البلاد بأن بطلاً قد ظهر ، وهو قادر بمهارته وشجاعته على انقاذها من المستعمرين ، وتجاوبت الآفاق باسمه السحري ، فتداعى المواطنون من كل مكان للنضال معه ، وأصبح المثل الحي لفكرة تهز أعماق الجماهير . لقد كان أباهم وسلطانهم والرجل الذي اختاره الله ليقودهم إلى الجهاد .

ولما عقد المؤتمر الشعبي في خريف ١٨٣٢ تحت شجرة الدردار بوادي فرحة ، وهي شجرة عظيمة كان أهالي المنطقة يجتمعون تحتها للشورى ، وأشار الشيخ محيى الدين على المجتمعين بمبايعة ولده عبدالقادر بدلاً منه ، رحب الجميع بهذا الرأي لما عرفوا من شجاعة البطل الشاب ، فضلاً عن نبل خلقه واتساع ثقافته ، وبادروا إلى مبايعته أميراً على البلاد ولقبه أبوه «ناصر الدين».

ثم انحدر الأمير الشاب مع تلك الجموع التي بلغت عشرات الآلاف ، إلى مدينة معسكر ، ودخل الجامع فخطب فيه ودعا إلى الجهاد والعمل بأحكام الشريعة الإسلامية اقتداء بالخلفاء الراشدين . ثم كتب إلى جميع الانحاء يبلغ زعماءها بأمر البيعة ويدعوهم إلى الطاعة ، فتوافدوا إلى معسكر لإعلان ولائهم له والانضمام إلى جيشه والمشاركة في جهاده .

وكان أول عمل قام به أنه دخل على زوجته خديجة فقال لها :

« إن أردت أن تبقي معي من غير التفات إلى طلب حقك مني فلك ذلك ، وإن أبيت إلاَّ أن تطلبيني حقك فأمرك بيدك لأني قد تحمّلت ما يشغلني عنك » .

فدنت منه وقبلته وأكدت له أن مسؤولية الحكم والجهاد التي أخذها على نفسه والتي لا بد أن تشغله عنها ، إنما تزيد من محبتها وتقديرها له ، وليعتبرها رفيقة في النضال كما هي شريكة له في الحياة .

وفي هذه المرأة الوفية يقول عبدالقادر :

ألا من منصفي من ظبي قفر　　لقد أضحت مراتعه فؤادي
ومن عجب، تخاف الأسد بطشي　　ويمنعني غزال عن مرادي
وماذا غير أن له جمالاً　　تملك مهجتي ملك السواد
وسلطان الجمال له اعتزاز　　على ذي الخيل والرجلِ الجواد

وبعد أن اتخذ مدينة معسكر عاصمة للدولة ، بادر إلى تشكيل «مجلس الشورى العالي الأميري» ويتألف من أحد عشر عضواً من كبار العلماء والأعيان ، ثم ألّف حكومة من سبع وزارات، وشرع بعد ذلك في تنظيم بقية مؤسسات الدولة كالديوان الأميري والحجابة والقضاة وقيادة الجيش . وجعل للإمارة علماً جديداً مؤلفاً من قطعة من الكتان الحريري أعلاها وأسفلها خضراوان ووسطها أبيض مرسوم عليه بالذهب المزركش في صورة دائرة تامة : نصر من الله وفتح قريب ، ناصر الدين عبدالقادر بن محيى الدين .

وقد عمل على بناء دولة عصرية تقوم على جيش منظم وإدارة

محكمة وعادلة ، ونظام ضريبي دقيق ، وإقامة صارمة للعدل ، وتأسيس مراكز للتعليم على نحو جديد ، وإقامة علاقات متفهمة مع العالم الخارجي ، والإستعانة بالأجانب في الأمور التي عجز عنها مواطنوه . وكان يواصل خططه الإصلاحية بمراقبته الشخصية التي لا تعرف الكلل ، فهو دائم الحركة يفتش جنوده ، ويزور مخازنه الحربية ، ويتفقد مدارسه ، ويدير القضاء ، ويرتدي من الثياب أقربها إلى ثياب خادم متواضع .

وقد وصف وضعه يومذاك بقوله : « ولم تكن الاحتياطات التي ذكرتها تكفي لتموين جيشي في كل المجالات التي دعاه واجب الحرب للعمل فيها . لذلك أمرت تفادياً لوضع حمل جديد على الأهالي، بإقامة مخازن للحبوب تحت الأرض في كل ولاية (خلافة) وكانت هذه المخازن التي كانت تحت مسؤولية قائد كل قبيلة والتي كان العدو لا يستطيع العثور عليها ، تحتوي على الحبوب التي تدفع كعشور ، أو من الأراضي التي يحرثها عمّال تارة بالقوة وتارة بالأجر .

«وبهذه الطريقة برهنت للعرب ، الذين من طبيعتهم الشك ، أنني لم آخذ شيئاً من الضرائب لمصلحتي الشخصية . لقد جعلتهم يدفعون للصالح العام فأجابوني . والواقع أن هذه المخازن هي التي أجلت سقوطي ، ذلك أن اكتشافها وتخريبها من الفرنسيين قد أدى إلى سقوطي . فعندما جردت من مخازن تمويني أصبحت مضطراً إلى فرض مطالب جديدة على القبائل . ولما شعرت هذه القبائل بالضغط الشديد من الجهتين ارتخى حماسها للجهاد .

« أما بالنسبة لي ، فأية مناسبة لي أن ألجأ إلى الخزينة العامة لدفع مصاريفي الخاصة ، فإلى اللحظة التي وضع فيها الفرنسيون أيديهم على أملاكي القليلة ، لم أمس قط أي شيء مما أعطاني العرب للمصاريف العامة . وعندئذٍ لم آخذ إلاّ ما كان ضرورة مطلقة ، فملابسي كانت تصنعها نساء بيتي ، ودخلي القليل كان يكفي لحاجات أسرتي . بل حتى الفائض القليل الذي ترك لي كنت أصرفه في مساعدة الفقراء والمساكين ، وبالأخص المحتاجين من أصحابي في السلاح الذين كانوا قد جرحوا أثناء الجهاد .

« وبذلك كان في استطاعتي باستمرار أن أنادي العرب للتضحيات الكبيرة ، لأنني أريتهم أن الزكاة والعشور والغرامات والمساعدات ، وكل مواردي في الحقيقة ، كانت مكرسة فقط لخدمة الصالح العام . وعندما استؤنفت الحرب سنة ١٨٣٩ دعوت العرب لمنحي قرضاً كبيراً غير أنهم استجابوا ببطء ، وفي الحال بعت في المزاد كل مجوهرات عائلتي في أسواق «معسكر» معلناً على الملأ أن دخلها سيرسل إلى الخزينة العامة ، فجاء القرض حينئذٍ بسرعة » .

فرنسا تعترف بدولة الأمير

وانقضت سنتان عانت قوات الاحتلال خلالها هولاً ورعباً وحذراً مستمراً ، ومعارك جانبية لا تنتهي ، فالجزائريون يفاجئونهم في كل مكان ، يتقدمون بخطى ثابتة وجرأة نادرة ، ويضربون بسرعة خاطفة ، ويتراجعون بمهارة ، وكثيراً ما يعودون أثناء تراجعهم إلى

الهجوم كلما وجدوا من العدو غفلة أو تراخياً ، تساعدهم على ذلك معرفتهم لطبيعة البلاد ، وقدرتهم على استخدام الصحراء كملجأ أمين لا يستطيع العدو أن ينافسهم فيه أو يزاحمهم عليه . . حتى اضطرت السلطة الفرنسية في ٢٨ شباط ـ فبراير ١٨٣٤ لضمان سلامة مواصلاتها وحياة قواتها ، إلى عقد معاهدة مع عبد القادر الجزائري عرفت باتفاقية دي ميشيل نسبة للجنرال الذي وقعها اعترفت فيها بامارته على الجزائر مقابل اعترافه بسلطتها على المدن الأربع : الجزائر مستغانم ، وهران ، وارزيو .

وقد وافق عبد القادر على هذه المعاهدة التي تعترف به أميراً على ثلثي البلاد كي ينصرف إلى تركيز الحكم ، وتقوية الجيش وصنع السلاح والذخيرة، استعداداً لمعارك أكبر وقتال اجدى . وعلى الرغم من ان هذه الهدنة لم تستمر سوى سنة واحدة ، فإن الأمير الشاب قد استطاع خلالها اقامة اسس وطيدة لدولة اسلامية تحقق الحرية والمساواة وتؤمن الرخاء والعدالة ، كما عزز الجيش ، وشيد الحصون والقلاع وأنشأ المصانع التي تنتج البنادق والبارود . وقد ذهل الصحفيون الفرنسيون الذين زاروا امارته لما يسودها من أمن وتسامح ، وكتب احدهم : « ان الطفل يستطيع ان يطوف بلاده منفرداً وعلى رأسه تاج من ذهب دون ان يصيبه أذى » .

وقد استعان عبد القادر بالأوروبيين من مختلف الجنسيات لتدريب الجيش ولإقامة مصانع الذخيرة ومن بينها مصنع لصب البنادق ، واشتهر من هؤلاء الأجانب المستشرق الفرنسي ليون روشي الذي اتخذه

الأمير مستشاراً بعد ان اعتنق الإسلام وأقام عنده أربع سنوات ثم تبين فيما بعد انه تظاهر باعتناق الإسلام وكان جاسوساً للدولة الفرنسية . كما كان بين سفرائه إثنان من الأجانب وهما الام كزماني كارل الإيطالي الأصل وسفير أميركا في الجزائر الذي عينه سفيراً له لدى فرنسا فقبل المهمة وعارضت السلطة الفرنسية ذلك لأن المعاهدة تقضي بحسب زعمها بتعيين سفراء عرب لديها ولكنه رفض اعتراضها واعتبره تدخلاً في شؤونه الداخلية .

وكان أهم خصائص النظام الذي أقامه الأمير عبد القادر ، طابعه الشعبي الديمقراطي القائم على البساطة والتواضع والعدالة والمساواة . وكانت هذه الروح الشعبية الديمقراطية تصطدم ببعض الإقطاعيين وبعض رؤساء القبائل الذين تحالفوا مع العدو ، وقد قال أحدهم للحاكم الفرنسي : « ان كبراء العرب ساخطون على عبد القادر لأنه حط من قيمة الكبراء ، ورفع الفقراء والضعفاء ، وان هذا الرجل يتجاهل أصول العلاقات التي تجمع بين العظماء والأقوياء ! » .

وكانت المادة الخامسة من اتفاقية دي ميشيل تنص على ان « يلتزم العرب بارجاع كل من يفر اليهم من المعسكر الفرنسي ويلتزم الفرنسيون بتسليم كل من يفر إليهم من أهل الجرائم الهاربين من القصاص إلى وكلاء الأمير في المدن المذكورة » وقد فسّر الجنرال تريزيل حاكم وهران هذه المادة على هواه ، لاستعادة بعض القبائل التي نزحت إلى الإمارة ، فرفض الأمير هذا التفسير وكتب لتريزيل كتاباً بذلك قال فيه : « . . وان كنت ولا بد معتمداً على إنفاذ ما صورته أفكارك من إدخالهم تحت حوزتك فاطلب وكيلكم من عندي ، واختر لنفسك ما

يحلو ، وميادين المعامع تقضي بيننا ، ومسؤولية اهراق الدماء وإتلاف الأموال راجعة إليك وعليك » .

ثم وجه نداء إلى قومه دعاهم فيه إلى الجهاد العام ، ومما جاء في هذا النداء : « هيا أيها المسلمون إلى الجهاد ، وهلموا إليه باجتهاد . وارفعوا عن عواتقكم برود الكسل ، وأزيلوا من قلوبكم دواعي الخوف والوجل . أما علمتم ان من مات منكم مات شهيداً ، ومن بقي نال الفخار وعاش سعيداً ؟!» .

وهكذا تجددت المعارك الضارية بين الفريقين ، وكانت أولاها معركة سيك بغابة حرش مولاي إسماعيل التي خسر فيها الفرنسيون ١٥٠ جندياً بين قتيل وجريح ، ثم تلتها معركة المقطع الشهيرة التي طوق بها الأمير عبد القادر جيش الجنرال تريزيل وهو يجتاز نهر هبرة ، بحركة عسكرية مدهشة ، فاضطرب الجيش الفرنسي ، واختل نظامه ، وخاض بعضه في بعض وقتل منه فريق ومات بالغرق فريق ، فهرب الجنرال من ساحة المعركة مع افراد قلائل من اعوانه ، تاركاً جيشه ومعداته ومدافعه غنيمة في أيدي الجزائريين .

وقد أدت هزائم الجنرال تريزيل إلى عزله وتعيين الماريشال كلوزيل خلفاً له ، كما أرسلت فرنسا إلى الجزائر الجنرال بيجو رجل الحرب والإستعمار الذي اشتهر بتعصبه الشديد لاحتلال الشمال الافريقي فلم يكن حظها بأفضل من حظ الجنرال المعزول ، وكانت أبرز المعارك التي خاضها بيجو مع الأمير عبد القادر معركة وادي ثافنا التي قتل فيها ٣٥٠٠ وجرح ٥٠٠ من الجنود الفرنسيين .

وعلى إثر هذه المعركة عقدت في ١ حزيران ـ يونيه ١٨٣٨ معاهدة ثانية مع الأمير عبد القادر وعرفت باسم معاهدة تافنة وقعها الجنرال بيجو وكانت شبيهة بالأولى إلا أنها اختلفت عنها برسم الحدود بين الفريقين ، وتعهد الجانب الفرنسي باعتراف الدولة الفرنسية بالإمارة الجزائرية التي تؤلف ثلثي مساحة الجزائر .

وقال له الجنرال بيجو بعد عقد هذه المعاهدة : « هل تعلم ان جنرالات قلائل فقط هم الذين يستطيعون ان يجسروا على عقد المعاهدة التي عقدتها معك ؟ ولكنني لم أخش من جعلك تتوسع ، وتضيف إلى سلطتك ، لأني على يقين من انك ستستعمل هذا الكيان الكبير الذي أعطيناك في تحسين أحوال الأمة العربية ، وفي الإبقاء على السلام وعلى حسن التفاهم مع فرنسا » .

فأجابه : « انني أشكرك على عواطفك اللطيفة نحوي ، وإني بفضل الله سأجعل العرب سعداء ، وإذا ما انحل الصلح الذي بيننا فلن تكون غلطتي » .

فقال الجنرال : « بخصوص هذه النقطة ، فإني ضمان لك لدى ملك الفرنسيين !» .

رأس الجزائري بخمسة فرنكات !

ومرة أخرى نقضت المعاهدة بعد سنة وبعض السنة ، وفي هذه المرة وعلى إثر حملة صاخبة في البرلمان الفرنسي بقيادة النائب تيير الذي غدا فيما بعد أول رئيس للجمهورية الثالثة ، ومطالبة الحكومة إما

بإصدار أمرها بعودة الحملة الفرنسية من الجزائر إنقاذاً لشرف فرنسا أو إرسال الإمدادات الكافية للقضاء على لمقاومة العربية وسحقها سحقاً تام. بادرت وزارة الحربية الفرنسية إلى عزل الماريشال كلوزيل الحاكم الجديد في الجزائر وإطلاق يد الجنرال بيجو بعد ترفيعه إلى رتبة ماريشال ، فاستقدم من فرنسا ثمانين ألف جندي مزودين بأقوى الأسلحة وأشدها فتكاً ، وشن على الإمارة الجزائرية حرب إبادة ، هدم فيها القرى وأتلف المزارع ودمر القلاع والحصون وأنزل بالأهلين كل ألوان التفظيع والتمثيل ، فقد كان قرار السلطة الإستعمارية ان يطرد الجزائريون إلى الصحراء كما تفر الوحوش المفترسة من جوار الأماكن المأهولة . ويصف الكولونيل دومونتيناك الذي اشتهر كقاطع للرؤوس في كتابه : « رسائل جندي » بعض الأعمال الوحشية التي قام بها هو وزملاؤه المستعمرون ، وهذه بعض المقاطع المعبرة التي وردت فيه :

ليحي لامورسيير . . هذا ما يسمى تسيير عملية الصيد بذكاء وسرور! إن هذا الجنرال الذي لا تقف عقبة في وجهه اجتاز المسافات بسرعة البرق ، قد ذهب لاصطياد العرب في أوكارهم في دائرة قطرها ٢٥ فرسخاً ليسلبهم كل ما يملكون .

« . . . لقد تمركزنا في قلب البلاد فأحرقنا وقتلنا وخربنا كل شيء . . إن بعض القبائل لا تزال تقاوم ولكننا نحاصرها من جميع الجهات لنسبي نساءها ونختطف أولادها وننهب مواشيها . .

« . . . قطعت رأس هذا العربي ومعصمه الأيسر ، وجئت إلى

المعسكر وأنا أحمل رأسه على رأس الحربة ومعصمه معلّق بسوار البندقية ، ثم أرسلناها إلى الجنرال باراغواي ديليه الذي كان يعسكر قريباً منا . لقد سَرّ الجنرال جداً من ذلك ! .

« لا نعلم الفكرة عن الأثر الذي يتركه لدى العرب قطع الرقبة بيد أجنبي . . لقد أدركت ذلك منذ زمن ليس بقريب وأؤكد لك أنه لم يخرج عربي من تحت يدي دون أن أقطع له رقبته . . إنها عملية ممتعة ، ومن أراد الغاية اتبع وسائلها . ومهما قال ذوو النزعة الإنسانية من جماعتنا ، فقد حذرت جميع العسكريين الذين أتولى قيادتهم من أنهم إذا جاؤوا إليّ بعربي حي فسيتلقون مجموعة من الضربات بصفحة السيف .

« تلك هي يا صديقي الشجاع الطريقة التي يجب أن نشن بها الحرب على العرب . يجب قتل جميع الرجال ابتداء من سن الخامسة عشرة، وسبي جميع النساء ، وخطف جميع الأطفال ، وتفريغ المساكن منهم وترحيلهم إلى جزر الماركيز أو أي مكان آخر خارج الجزائر . وبكلمة يجب سحق جميع الذين لا يركعون تحت أقدامنا كالكلاب! » .

وتشجيعاً للجنود الفرنسيين على القتل والتمثيل ، أعلنت القيادة الفرنسية في الجزائر أنها تبيح للجندي الفرنسي أن يقتل العربي الجزائري كيفما كان وضعه ، ذكراً كان أم أنثى ، صغيراً كان أم كبيراً، في حالة أمن أو في حالة حرب ، وله مقابل كل رأس عربي مكافأة قدرها خمسة فرنكات . . . ثم تحسنت الأسعار فأصبحت خمسة فرنكات لكل إذن مقطوعة!

وقد وصف سانت أرنو أحد معاوني بيجو في كتابه «ذكرى جيش افريقية» بعض الأعمال الوحشية فقال في خطاب بتاريخ ٤ أيار ـ مايو ١٨٤٢ : « لقد كانت حملتنا تدميراً منظماً أكثر منها عملاً عسكرياً . ونحن اليوم في وسط جبال مليانة ، لا نطلق إلاّ قليلاً من الرصاص ، وإنما نمضي وقتنا في حرق جميع القرى والأكواخ ، إن العدو يفرّ أمامنا سائقاً قطعانه» . وقال في خطاب آخر : «إن بلاد بني منصر بديعة جداً وقد أحرقناها كلها . آه أيتها الحرب ، كم من نساء وأطفال اعتصموا بجبال الأطلس المغطاة بالثلوج فماتوا هناك من الجوع والبرد!» والغريب أن هذا الضابط الذي يزهو بوحشية الجيش الفرنسي قد كتب إلى زوجته في خطاب آخر : «لقد أعاد لنا عبدالقادر جميع الأسرى الفرنسيين دون قيد أو شرط ، وقال لهؤلاء الأسرى : «لم يبق عندي طعام لكم ولا أريد قتلكم فعودوا من حيث جئتم» . . وإنها لبادرة كريمة من هذا الرجل الذي دوخ فرنسا وكبدها ٤٠ ألف قتيل!» .

وقد وقع مرة في أسره ضابط فرنسي فحاول الانتحار ، ولما سئل عن السبب الذي حمله على ذلك ، أجاب بأن العرب يذبحون الأسرى وهو يفضل أن يذبح نفسه بيده ، فهدأ عبدالقادر من روعه وقال له : «لقد كذب من قال لك هذا ، فأنت منذ الآن حر طليق . . عد إلى قومك وقل لهم إنني لست من شاربي الدماء ، وليس رجالي ممن يجهزون على العدو بعد سقوطه في الميدان!» .

ولما اعترض أحد النواب في البرلمان الفرنسي قائلاً : إن فرنسا «تمدن» الجزائر بأساليب همجية . . أجابته الحكومة أن هذه الحرب قد

تكون همجية لو كنا نقوم بها في أوروبا وأما في البلاد المتخلفة فإنها ليست كذلك ! » .

وقد وصف شارل هنري تشريل هذه المجزرة «غير الوحشية» بقوله: «كان هناك أربعة عشر فرقة كبيرة، كل فرقة مزودة بمشاتها وفرسانها ومدافعها ، تجرف الأرض جرفاً في جميع الاتجاهات ، بعضها كان يعمل بتناسق ، وبعضها كان يعمل باستغلال ، ولكنها جميعاً كانت تسحق كل مقاومة في طريقها ، حيثما ظهرت ، بالنار والسيف ، فكان السكان يذبحون بلا رحمة ، والمنازل تحرق بلا هوادة ، والحصاد تشعل فيه النيران ، والفارّون يختفون أحياء في الكهوف . وقاد سانتارنو «الطابور الجهنمي» ، وأحست الجزائر من جديد بثقل وقوة الحضارة الأوروبية»؟ .

ووصف المؤرخ البريطاني اقتحام الزمالة وما رافقه من أهوال فقال: «وصل فرسان دومال الزمالة، وانتشروا وجالوا خلال ذلك البحر من الخيام ، وبسرعة شردوا أهلها الحيارى الخائفين ، شيوخاً وأطفالاً ونساء » ، وأطلق الحرس الذي كان تعداده ٥٠٠ جندي نظامي ، النار دفعة واحدة . وحاول فريق من بني هاشم بشجاعة وقف التيار لكن الفرنسيين اكتسحوهم ، وكان النصر الكامل حليفهم في أقل من ساعة .

« إن مناظر الفوضى واليأس التي جرت خلال تلك الفترة القصيرة ، كالمحاولات الجنونية للهروب ، ويأس المقاوم ، وبؤس المتروك ، وهرج ومرج عدد ضخم من الإبل والخيول والبغال والثيران

والأغنام ، وهي تقفز هنا وهناك كأنها أمواج بحر هائج قد خلدها الفنان العبقري هوراس فيرني . إن فن الرسام وحده هو الذي يستطيع أن ينصف ذلك المنظر الهائج الذي ليس له مثال والذي لا يمكن تقريباً تصوره .

«وكانت مكاسب النصر تتمثل غالباً في عائلات أكبر قواد عبدالقادر نفوذاً . وكانت الغنيمة عظيمة ، فقد كانت تتألف من آلاف الحيوانات من مختلف الأنواع ، ومن مكتبة عبدالقادر الخاصة المكونة من أندر المخطوطات العربية والتي كانت فخمة التجليد . ومن صندوقه العسكري الذي كان يحتوي على ملايين الفرنكات ، ومن صناديق خلفائه وقواده التي وضعوها في الزمالة حفظاً لها ، والتي كانت محشوة بالنقود الذهبية والفضية والحلي الثمينة .

« وملأ الجنود الفرنسيون أكياسهم بالدولارات والقطع الذهبية الكبيرة ، وحشوا جرابهم بالجواهر والماس . ولم يكن صوت القيادة مسموعاً وسط تلك الفوضى العامة ، لذلك كان كل أحد يأخذ ويتشبث بالغنيمة التي رماها الحظ السعيد بين يديه» .

وقد أدهشت مقاومة عبدالقادر اليائسة الفرنسيين ، وما أبداه من ضروب الشجاعة والإقدام ، وشاهدوه مرة وقد أحاط به القناصون الفرنسيون من كل جانب ، فاشتبك معهم وحده ، وسقط من تحته جوادان ، فحارب على القدمين ، واستمر كذلك حتى غطى الليل أرض المعركة فاستعان بالظلام للاختفاء عن الأنظار .

والواقع أنه في قلب هذه المجزرة الوحشية التي صبغت بالدماء كل بقعة من أرض الجزائر ، وزرعت فيها الرعب والخوف ، وامتدت سنوات مليئة بالتضحيات سميت بالسنوات الحمراء ، وقد بدأ عبدالقادر يقاتل قتال التراجع ، يظفر في معركة واحدة ليخسر في معارك عدة ، كان هذا الزعيم العربي يقاتل في الساحة قتال الأبطال .
ويتصرف خارجها تصرف الرجل النبيل والفارس الكريم ، فهو هادىء النفس رقيق الطبع لين الجانب رحيم الفؤاد ، ذو همة عالية وصبر على الشدائد ، وقد وصف ذلك بقوله :

رفعنا ثوبنا عن كل لؤم — وأقوالي تصدقها الفعال
ولو ندري بماء المزن يزري — لكان لنا على الظمأ احتمال
فلا جزع ولا هلع مشين — ومنا الغدر، أو كذب، محال
ونحلم أن نجني السفهاء يوماً — ومن قبل السؤال لنا نوال
ورثنا سؤدداً للعرب يبقى — وما تبقي السماء ولا الجبال

وفي ليالي الهول والشقاء كان يتذكر خديجة زوجته وأم أولاده فيناجيها بقوله :

جفاني من أم البنين خيال — فلقبي جريح والدموع سجال
ولوقلت: دمعي قدملكت، فكاذب — بدعواي، بل ذا غرة وضلال
ربي ما يزيل العقل عن مستقره — فلا تعجبوا إن قيل: فيه خيال

أحب الليالي كي أفوز بطيفها وأرجو المنى، بل قد أقول: أنال
أكلف جفني النوم، عليّ أن أرى مثالاً لها يسري وليس مثال
فقولوا لها: إن كنت ترضين عيشي فجودي بطيق أن يعز وصال
فينعم قلبي والجوارح كلها وإلاّ، فعيشي محنة ووبال

ولكن صاحب هذا القلب المحب الجريح والعاطفة المرهفة الشفافة، كان إذا كتبت له زوجته تسأله عن أحواله، انتفض انتفاضة الكرامة والرجولة وقال معتزاً مفاخراً:

تسألني أم البنين وأنها لأعلم من تحت السماء بأحوالي
ألم تعلمي يا ربة الخدّر أنني أجلّي هموم القوم في يوم تجوالي
وأغشى مضيق الموت لا متهيباً وأحمي نساء الحي في يوم تهوال
أمير، إذا ما كان جيشي مقبلاً وموقد نار الحرب إذ لم يكن صالي
إذا ما لقيت الخيل إني لأول وإن جال أصحابي فإني لها تال
أدافع عنهم، ما يخافون من ردى فيشكر كلّ الخلق من حسن أفعالي
وأورد رايات الطعان صحيحة وأصدرها بالرمي تمثال غربال
ومن عادة السادات بالجيش تحتمي وبي يحتمي جيشي وتحرس أبطالي
وبي تتّقي يوم الطعان فوارس تخالينهم في الحرب أمثال أشبال
إذا ما اشتكت خيلي الجراح تحمحماً أقول لها: صبراً كصبري وإجمالي
وأبذل يوم الروع نفساً كريمة على أنها في السلم أغلى من الغالي
وعني سلي جيش الفرنسيس تعلمي بأن منايـاهم بسيفي وعسّالي
سلي الليل عني كم شققت أديمه على ضامر الجنبين معتدل عال
سلي البيد عني والمفاوز والرّبى وسهلاً وحزناً كم طويت بترحالي

فــما همتي إلاَّ مقــارعــة العــدا   وهـزمي أبـطالاً شـداداً بـأبـطال

مثل العبقرية الثورة

ولما اشتد العدوان وتعاظم الطغيان ، وقذفت فرنسا إلى الساحة بكل قوتها وجبروتها ، وانتدبت لقمع الثورة أقسى رجالها ، فاقتحموا معاقل الثوار وبينها الزمالة آخر عواصمه ، ودمروا منازلهم ، وأحرقوا مزارعهم ، وشتتوا أسرهم ، وطاردوهم إلى قلب الصحراء ، تلقى عبدالقادر المأساة بقلب طافح بالإيمان ونفس كبيرة وسعت كل ذرة من تراب الجزائر وكل نسمة من أنسامها ووقف يخطب بفرسانه قائلاً : « يا سبحان الله . . لقد فقدنا كل شيء كنا نحبه وتعلّقت به أفكارنا وكان يعوقنا عن الحركة ، ويقف في صدورنا عن الوصول إلى مطلوبنا ، وصرنا الآن أحراراً لا شغل لنا إلاَّ مقارعة الأعداء ومصارعتهم ! » .

وسرت هذه الكلمات المشتعلة بهدوئها ، المتفجرة برزنتها ، الزاهية بتواضعها ، في صدور الأبطال همة وحماسة ، نشاطاً وأملاً ، وصاح المنادي : « الجهاد . . الجهاد . . حتى تعلو كلمة الحق ويزهق الباطل ، ويحرر الوطن أو نموت دون الاستقلال » .

وكلمة من هذا النوع وحدها تكفي لتدخل عبدالقادر التاريخ من أوسع أبوابه ، وتحمله إلى أعلى عليين في مقصورة الخالدين ، لأنه حول أحداثاً لا تدعو إلاَّ إلى اليأس والتشاؤم ، فأخرجها عن محورها الذي كم عمل له العدو ، ليضعها على صعيد الكرامة والعزّة ،

والتمسك بأهداف التفاؤل ، والاقتراب من النصر بالتحرر من كل عبء إلاَّ عبء الجهاد وهذا أعلى مثل لعبقرية الثورة التي تحلى بها الأمير .

وهذا ما يفسّر قول المؤلف الفرنسي إسكندر بالمار : « إن من العجب رجوع قوة الأمير عبدالقادر إلى حالها الأولى بعد أن اعتراها الإضمحلال والتلاشي ثلاث مرات: الأولى بعد استيلاء الجنود الفرنسيين على عاصمته معسكر ، والثانية بعد غزوة تلمسان ، والثالثة بعد واقعةسكاك، وكل حادثة من هذه الحوادث كانت كافية لأن تكون سبباً قوياً لسقوط سلطان راسخ القدم . ومع ذلك فإنها لم تؤثر في أمره ، ولم تحصل الدولة الفرنسية منه على طائل . ولهذا أقول : لله در هذا الرجل العظيم الذي كانت سياسته العجيبة وتصرفاته الغريبة لا تفارقه طرفة عين . ومن هنا تعلم كيف كان يسترجع في أقرب وقت ما يفقده من قوته» .

المعارك الإنتحارية

وقد اعتمد الأمير على حرب العصابات لإنهاك الفرنسيين ومفاجأتهم وسلب أسلحتهم ومعداتهم بالسرعة الخاطفة وفي أمكنة مختلفة ، واستدراجهم إلى الجبال أو إلى الصحراء ، وقطع خطوط مواصلاتهم دون أن يمكنهم من الإلتحام مع قواته في معركة فاصلة ثابتة الخطوط .

إلَّا أن الدائرة كانت تضيق من حوله شيئاً فشيئاً ، وكانت القوات

الفرنسية تتقدم باستمرار ، والقبائل الموالية تتعرض إلى الإستباحة والإبادة ، حتى اضطر في سنة ١٨٤٤ للإلتجاء إلى المغرب ليكون ملجأ لجنده ومنطلقاً لجهاده ، لا سيما وأنه كان يدعو إلى وحدة المغرب الكبير، ويؤمن بأن سقوط الجزائر سيؤدي إلى سقوط المغرب وتونس في براثن العدو الدخيل ، فالمعركة معركة العروبة كلها لا معركة الجزائر وحدها .

ولكن فرنسا أنذرت عبدالرحمن بن هشام سلطان المغرب بوجوب إبعاده عن مملكته ، وبدأت البوارج الفرنسية ترمي ثغري طنجة ومغادير بقنابلها ، فعاد عبدالقادر إلى وطنه في سنة ١٨٤٥ ليجد الجنرال كافنياك في انتظاره على رأس قوة كبيرة ، فدارت بينهما معركة ضارية أسفرت عن هزيمة الضابط الفرنسي ، ومتابعة عبدالقادر مسيرته ليفتتح بلاده من جديد ، وكتب رسالة إلى بيجو تنبأ فيها بمستقبل الفرنسيين في الجزائر وإن لم تتحقق النبوءة إلاَّ بعد قرن وبعض قرن ، فقال له : « إن هذه القارة هي بلاد العرب مهما مكثتم فيها ، ولستم فيها معشر الفرنسيين سوى عابري سبيل ، ولو مكثتم فيها ثلاثمائة عام مثل الترك فسينتهي الأمر بخروجكم منها» .

وتجددت رحى المعارك الصحراوية ما بين الجيوش الفرنسية والقوات الوطنية ، ولكن شتان ما بين القوتين وقدرة المعسكرين ، ومع ذلك فقد قام الأمير بهجمات انتحارية أذهلت الفرنسيين . ويمكن اعتبار عامي ١٨٤٥ و١٨٤٦ من أصعب السنوات التي عاناها المحتلون . ولكن قسوة المستعمرين في حربهم أنهكت أيضاً قوى

المجاهدين ، ونشرت الفقر والخراب في أنحاء الجزائر ، وأضعفت مقاومة الأمير أمام جيوش الاستعمار الجرارة التي كانت تتعاظم باستمرار ، وقد تولى قيادتها دوق أورليان ودوق دومال ولدا لويس فيليب ملك فرنسا . بينما كانت قوات عبدالقادر تتضاءل وتتشتت وتنهار ، حتى وجد نفسه ذات يوم محاصراً في دائرة ضيقة من الصحراء قطع عنها الماء والغذاء ، مع قلّة من الرجال أنهكها التعب ونال منها الحرمان كل منال، وأدرك أنه قد استنفد جميع وسائل الدفاع وسدت في وجهه السبل لمتابعة الجهاد ، وهو مضطر إلى الإقرار بالعجز عن مواصلة النضال في وجه دولة كبرى حشدت لقتاله كل ما لديها من حديد ونار ، ولا سيما بعد أن كتب إلى كل من السلطان عبدالمجيد في الاستانة والسلطان عبدالرحمن بن هشام في المغرب يستنجد بهما ويطلب عونهما دون أن يتلقى منهما أيّ جواب ، وبعد حادث الغار الذي ملأه حزناً ويأساً . فقد طارد الجنرال كافنياك إحدى القبائل الموالية للأمير ، فلجأت إلى غار كبير في شعاب جبل أطلس يدعى «غار العقبة البيضاء»، فما كان من كافنياك إلاَّ أن لحق بها وأمر بجمع الحطب والقش ، وسد باب الغار ، وإضرام النار ، وبذلك قضى على جميع من فيه من اللاجئين وكان عددهم ٧٨٠ رجلاً وطفلاً وامرأة بالإضافة إلى دوابهم وماشيتهم .

سيف عبدالقادر

وفي ٢٣ أيلول (سبتمبر) سنة ١٨٧٤ ، بعد سبعة عشر عاماً من الكفاح البطولي ، بعد أن أعطي وعد شرف بالأمان لنفسه ولعائلته

وأولئك الذين يريدون أن يتبعوه وبنقلهم جميعاً إلى بلاد إسلامية أخرى، وفي مقام سيدي إبراهيم بمدينة مرسى الغزوات التي شهدت انتصاره الرائع قبل سنتين ، كان الدوق دومال والجنرال لاموريسير وكافنياك في انتظاره ، وقد أعدوا له استقبالاً رسمياً فخماً ، فصلى ركعتين وسلم سيفه للدوق دومال ابن الملك لويس فيليب ، وسرعان ما نقل مع أفراد عائلته ومائتين من رجاله إلى بارجة حربية أقلعت به إلى طولون فأنزل إلى قلعتها ثم نقل إلى قصر امبواز .

وهكذا انتهت مرحلة مضيئة من مراحل المقاومة البطولية في الجزائر ، وصف قائدها المؤرخ الفرنسي أوغستان برنار بقوله : « لقد أظهر الأمير بعد أن وسّد إليه الأمر ، على الرغم من أنه ابن الزوايا والطرق ، حنكة سياسية وبراعة عسكرية فائقة ، وكان يتمتع بصفات تدل على أنه خلق ليحكم ، فكان بسيطاً في لباسه ، متواضعاً في معشره ، أنيقاً جميلاً مضحياً شجاعاً فارساً ، وبالتالي فقد كان له هدوء الديبلوماسي المسلم وسكينته ولباقته . وكان متديناً عن إخلاص ومن صميم فؤاده . ولم يطلب الإمارة لإشباع أطماع نفسه ، بل طلبها ليقود أمته في طريق الفلاح . كان قاسياً عند اللزوم ، ورحيماً عند الاقتضاء . وكانت شدته ولينه بحساب وتقدير . وقليل مثله في المسلمين من كان يدرك معنى الدولة إدراكاً تاماً ، كما كان يدركه هو ، بكل تفصيلاته وجزئياته ، من حيث النظام والإدارة وجباية الضرائب وتنظيم الجيش . وكان أجلّ وأبرز أعداءنا في الجزائر . وإذا كان قد فشل في بناء امبراطورية إسلامية واسعة ، فليس مرد ذلك كله إلى مناهضتنا إياه ، بل كان السبب تفرق المسلمين عنه وعدم اتحادهم

تحت لوائه وتفرقهم ، هذا كان له أوفى نصيب في إخفاقه».

وكان الأمير عبدالقادر يريد السفر إلى دمشق كما الاتفاق في وثيقة الإستسلام ، ولكن الحكومة الفرنسية طلبت منه أن يقيم في باريس اسوة بالخديوي إبراهيم باشا ، على أن تمنحه قصراً يسكن فيه ومن معه وتعيّن له مخصصات مالية تكفيه لقضاء حياة مترفة ناعمة ، فأجاب: «إني لا أقبل هذا ولو فرشت لي سهول فرنسا ومسالكها بالديباج . . » ثم أضاف: «إن إبراهيم باشا يرى باريس وغيرها من أمصار فرنسا متنزهاً له يمرح فيه كيف شاء . وأما أنا فلا أرى فرنسا إلاّ سجناً لي ولمن معي ، فلا فرق عندي بين طولون وباريس».

وكانت فرنسا تخشى ان تنقل عبدالقادر إلى بلاد إسلامية أن يعود منها إلى الجزائر ، فيلتف حوله الشعب وتتجدد الثورة ، فزاره الجنرال دوماس مكلفاً من الملك لويس فيليب، وقدم له أسخى العروض إذا رضي فقط أن ينسى الوعد الرسمي الذي أعطاه له الجنرال لامورسيير والدوق دومال عندما استسلم بنقله إلى بلاد إسلامية ، وحاول إغراءه بمكانة مرموقة في فرنسا وقصر ملكي وحرس شرف وكل الأبهة والحاشية الجديرة بأمير . فأجابه بقوله : « لو كنت ستأتي إليَّ باسم ملكك بكل ثروات فرنسا ملايين والماساً ، وكان يمكنك أن تضعها جميعاً في طرف برنسي ، فإنني أفضل أن أرمي بها جميعاً في الحال ، في هذا البحر الذي يغسل جدران سجني ، على أن أعيد إليكم الوعد الذي أعطي لي رسمياً ، والذي سأحمله معي إلى قبري».

وبعد خمس سنوات من الأسر الذي لم يزده إلاّ عظمة وقوة ، تولى

الحكم في فرنسا نابليون الثالث وكان معجباً بفروسية عبدالقادر ، فزاره في قصر امبواز وأبلغه قرار الإفراج عنه ، اعترافاً ببطولته ، ومواقفه النبيلة في الحرب والسلم ، واحترامه الأسري وحسن معاملته لهم ، والتزامه بعهوده ووفائه بوعوده . وكان الشعب الفرنسي يقابله بكل مظاهر الحفاوة والتكريم ، ويتبادل الرسائل مع علماء فرنسا وكبار رجالها ، مما أدى إلى انتخابه عضواً في الأكاديمية الفرنسية ، وقد أرسل إلى الأكاديمية رسالة ألّفها بعنوان «ذكرى العاقل وتنبيه الغافل» ضمنها آراءه في الدين والفلسفة والأخلاق .

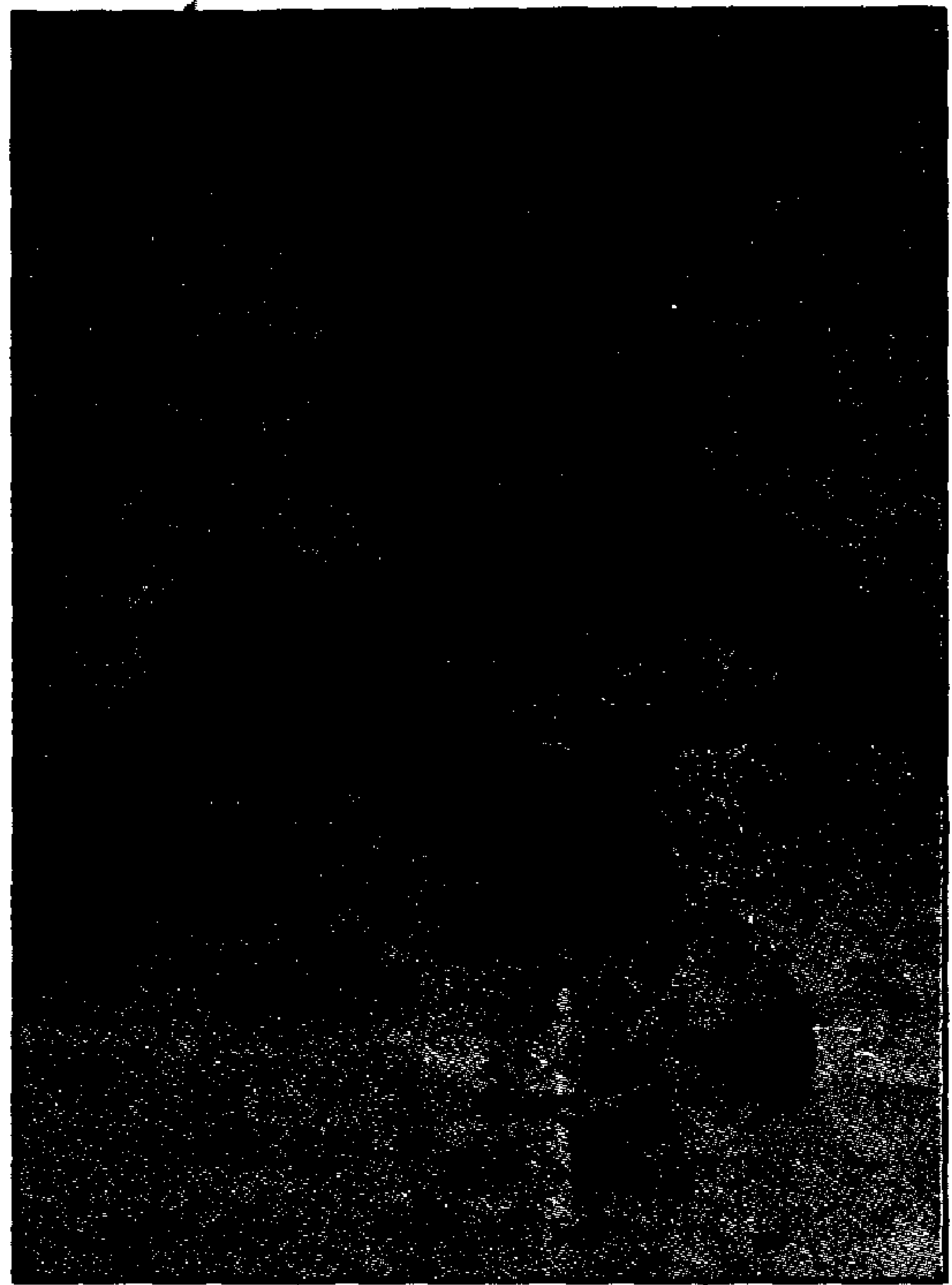
وقد سافر إلى الاستانة في كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٥٣ ، فأقام السفير الفرنسي هناك حفلة كبرى على شرفه ، ولكنه لم يلاق من المسؤولين الأتراك الترحيب الذي يستحق ، لأنه يمثل البطولة التي يريدون الاستئثار بها والعروبة التي يضيقون بطموحاتها ويعتبرونها مصدر تحد لهم ، فانتهز فرصة الزلزال الذي أوشك القضاء على جميع بروسة حيث حددت إقامته ، فاستقل مع أفراد عائلته وأتباعه سفينة متجهة إلى بيروت فاستقبل فيها استقبالاً حافلاً ، ثم انتقل منها إلى دمشق التي خرجت لملاقاته على بعد أميال واصطف أبناؤها على جانبي الطريق لتحية «بطل الإسلام» كما لقبه تشرشل ، وقد أقام في هذه المدينة بقية حياته الحافلة بجلائل الأعمال ، وتخلل إقامته فيها زيارات عديدة إلى العواصم العربية والعالمية ، وكان مجلسه قبلة الزعماء العرب ، كما كان يلقي في الجامع الأموي دروساً على طلبة العلم . ومن مآثره فيها أنه لما أثار عملاء الدول الأجنبية فتنة طائفية في لبنان بين الدروز والمسيحيين سنة ١٨٦٠ ، وانتقلت شرارتها إلى دمشق ،

فوقف الأمير عبدالقادر شاهراً سيفه أمام الحي المسيحي ومعه ألف من أتباعه ، وصدوا عنه هجمة الغوغاء المسعورين ، ونقلوا إلى منازلهم خمسة عشر ألفاً من المسيحيين لحمايتهم والعناية بهم . بحماية خمسة عشر ألفاً من المسيحيين الذين التجأوا إليه وغصت بهم منازله. ثم بادر إلى إخماد الفتنة وتوحيد القلوب وإحباط مكائد المتآمرين والدساسين ، وقد كان لموقفه الإنساني صدى واسع في الأوساط الدولية ، فانهالت عليه رسائل الشكر مصحوبة بالأوسمة الرفيعة من معظم ملوك الدول الإسلامية والأجنبية ، ونوهت به كبريات الصحف العالمية مشيدة بخصاله الكريمة ومواقفه الإنسانية .

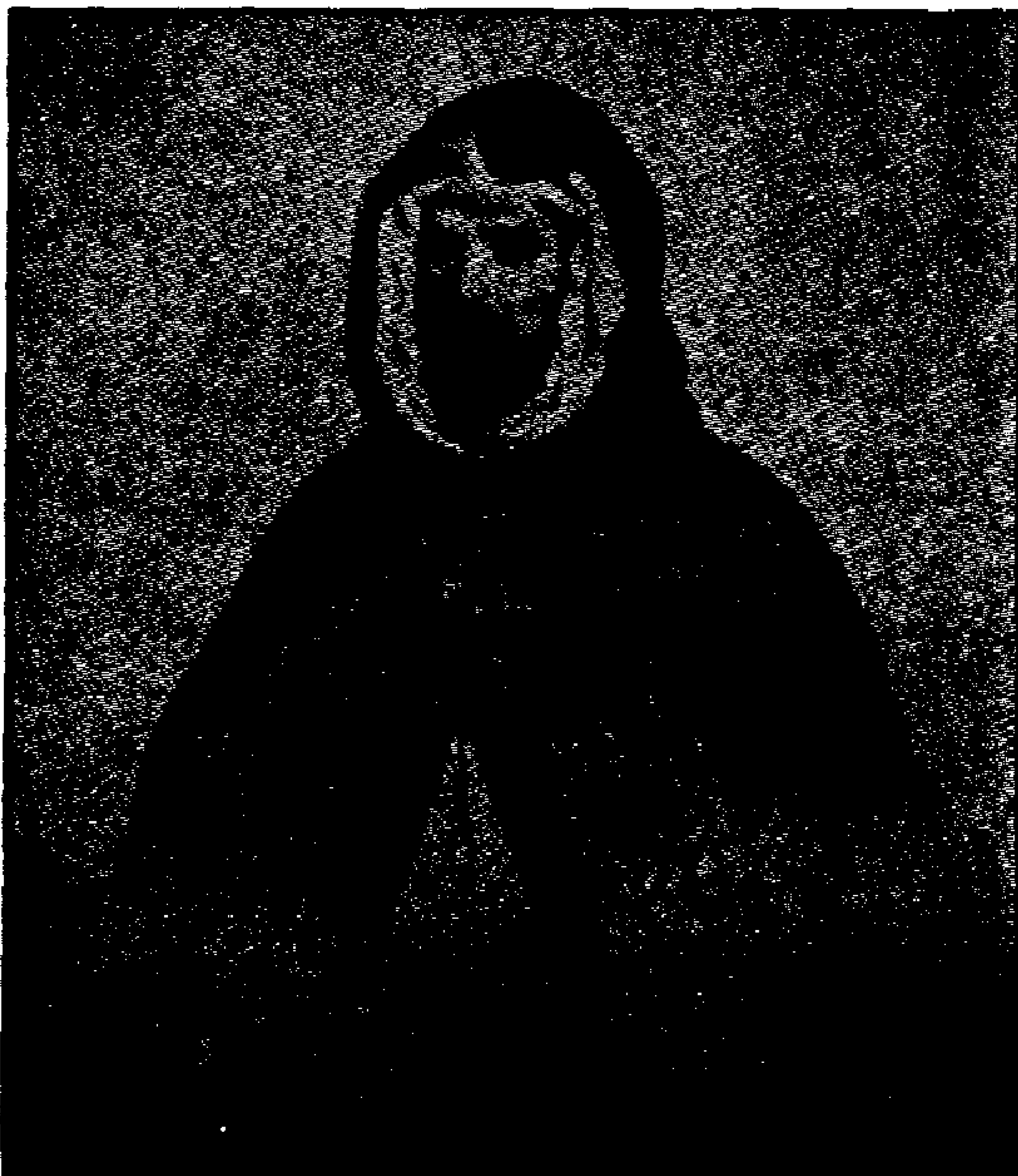
وتكاثر أولاد الأمير وأحفاده ورجاله الذين استوطنوا في دمشق وسكنوا حياً عرف باسم «حي المغاربة» ، وشاركوا فيما بعد في ثورة العرب على الترك كما قاتلوا في الثورة السورية وفي الثورة الفلسطينية قتالاً مجيداً ، وكانت لهم مساهمة فاعلة في كل قضية عربية .

وتوفي الأمير عبدالقادر في ٢٤ أيار (مايو) ١٨٨٣ وهو في السادسة والسبعين من عمره ، ودفن في دمشق بجوار قبر الشيخ محيي الدين ابن عربي بعيداً عن الجزائر ، ولكن على تتابع الأجيال ، كان الوقع السحري لاسمه فاعلاً ومؤثراً ، وكان في قلب كل جزائري جزء اسمه عبدالقادر ، يعتز به ويستلهمه ويوجهه في طريق النضال .

صور من التاريخ



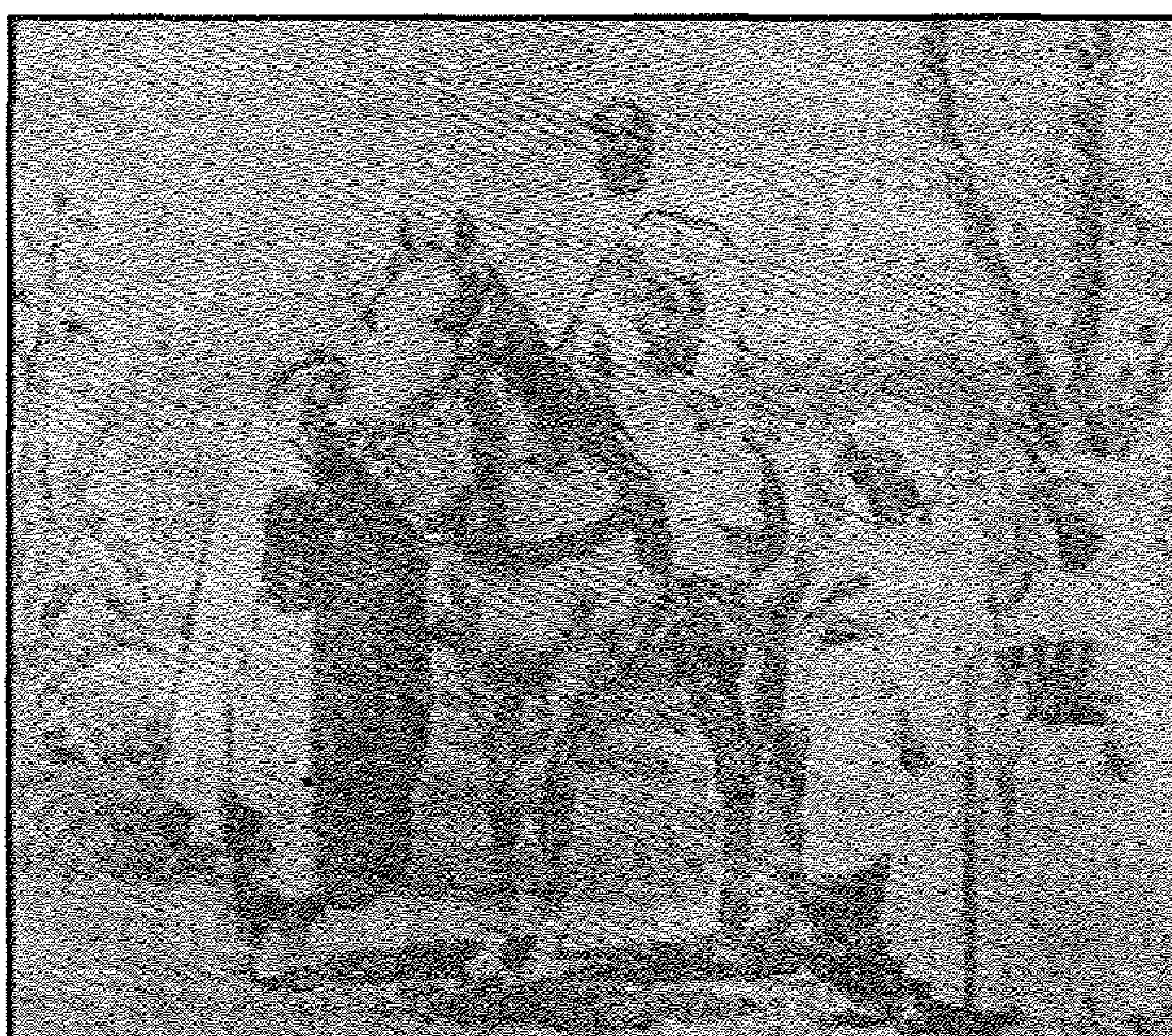
الأمير عبد القادر الجزائري



صورة الأمير في قلعة لامالج بطولون



صورة للأمير عبد
القادر رسمها له
الدكتور مانوتشي
سفير الأمير في جبل
طارق عام ١٨٤١



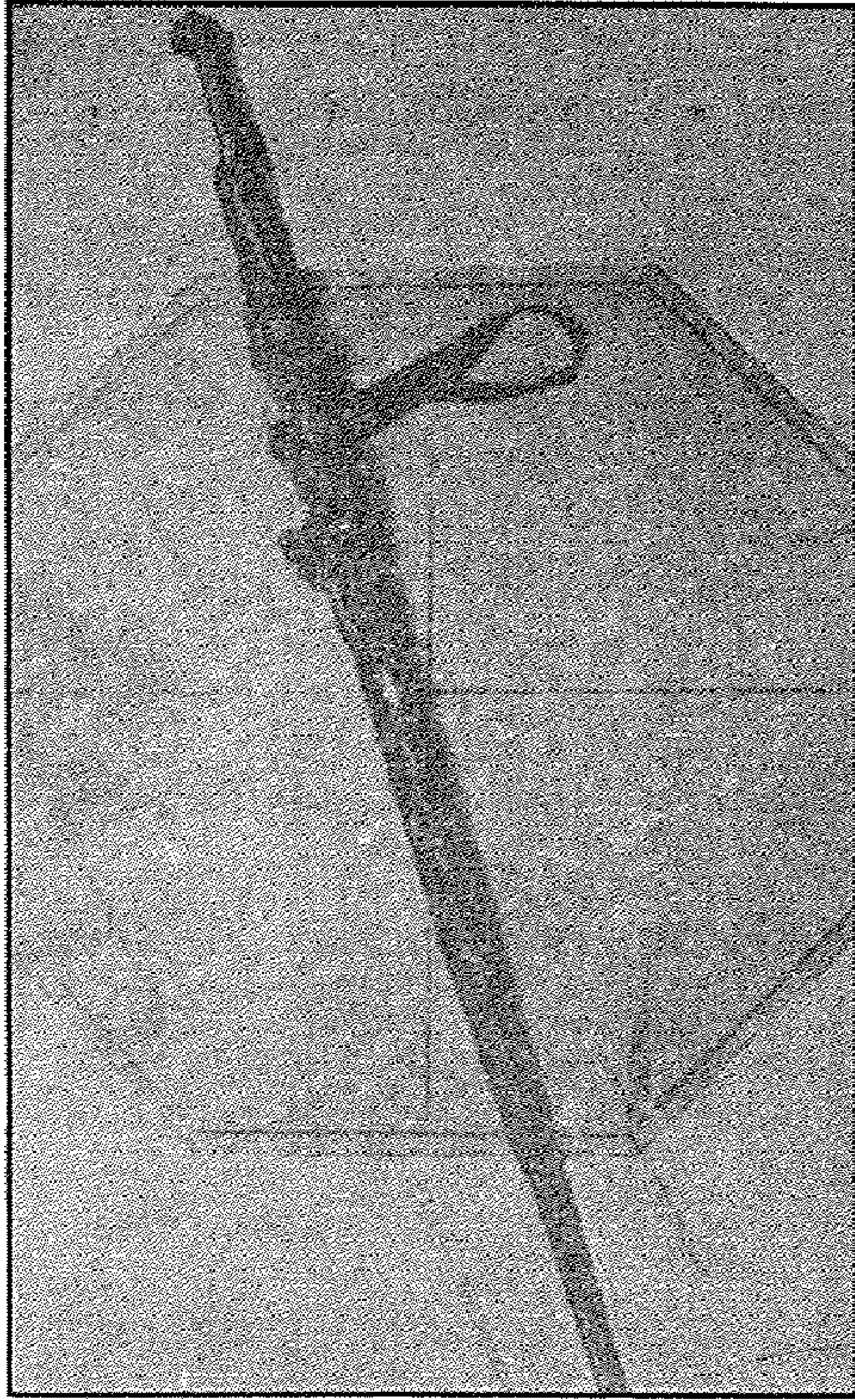
الأمير عبد القادر على فرسه وحوله جماعة من أصحابه



المجاهد العربي عبد القادر الجزائري



الأمير عبد القادر، العالم، جالساً جلسة المتربع، وهو يفكر



سيف الأمير عبد القادر



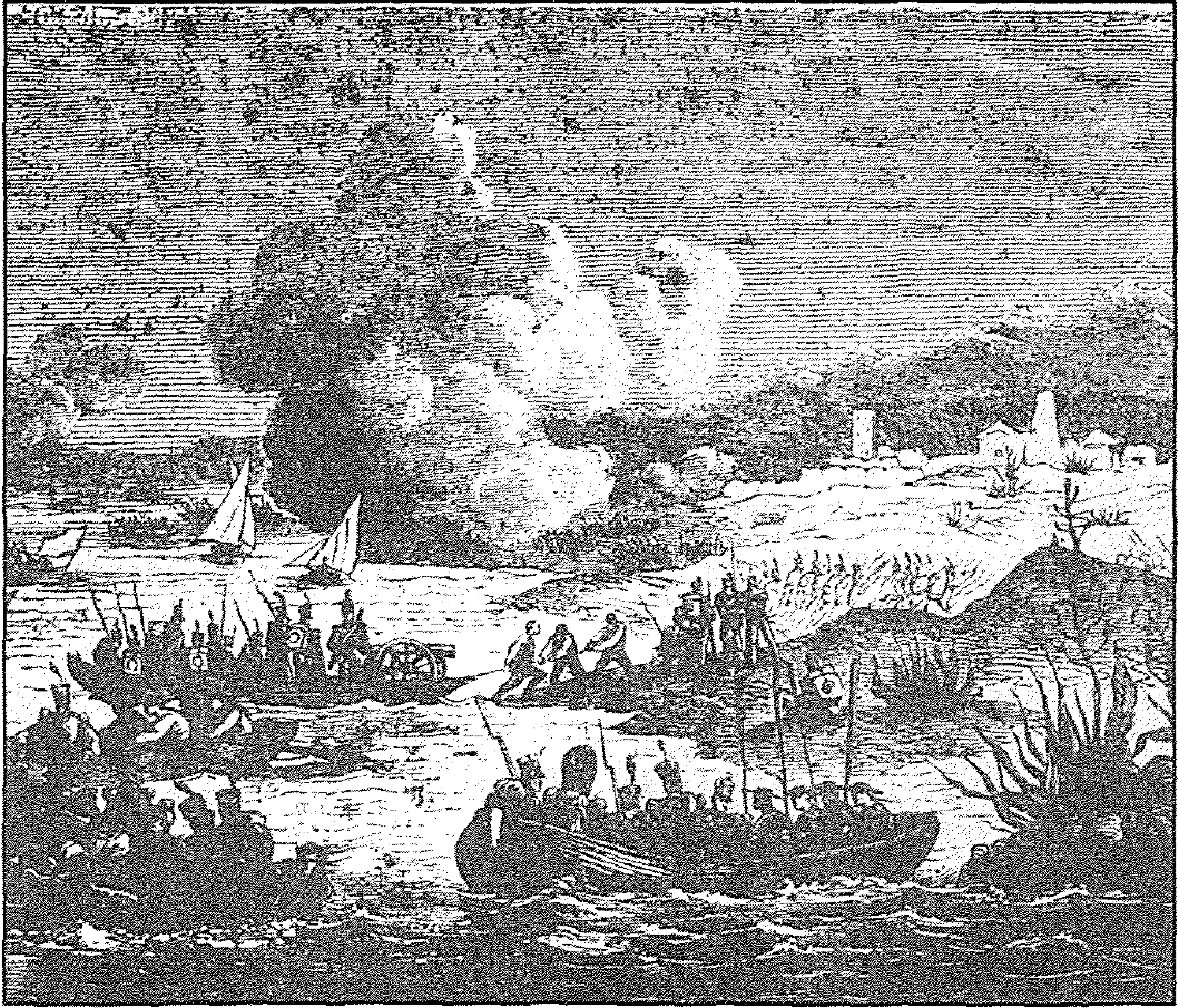
الأمير عبد القادر بمعسكر حوالي سنة ١٨٣٥



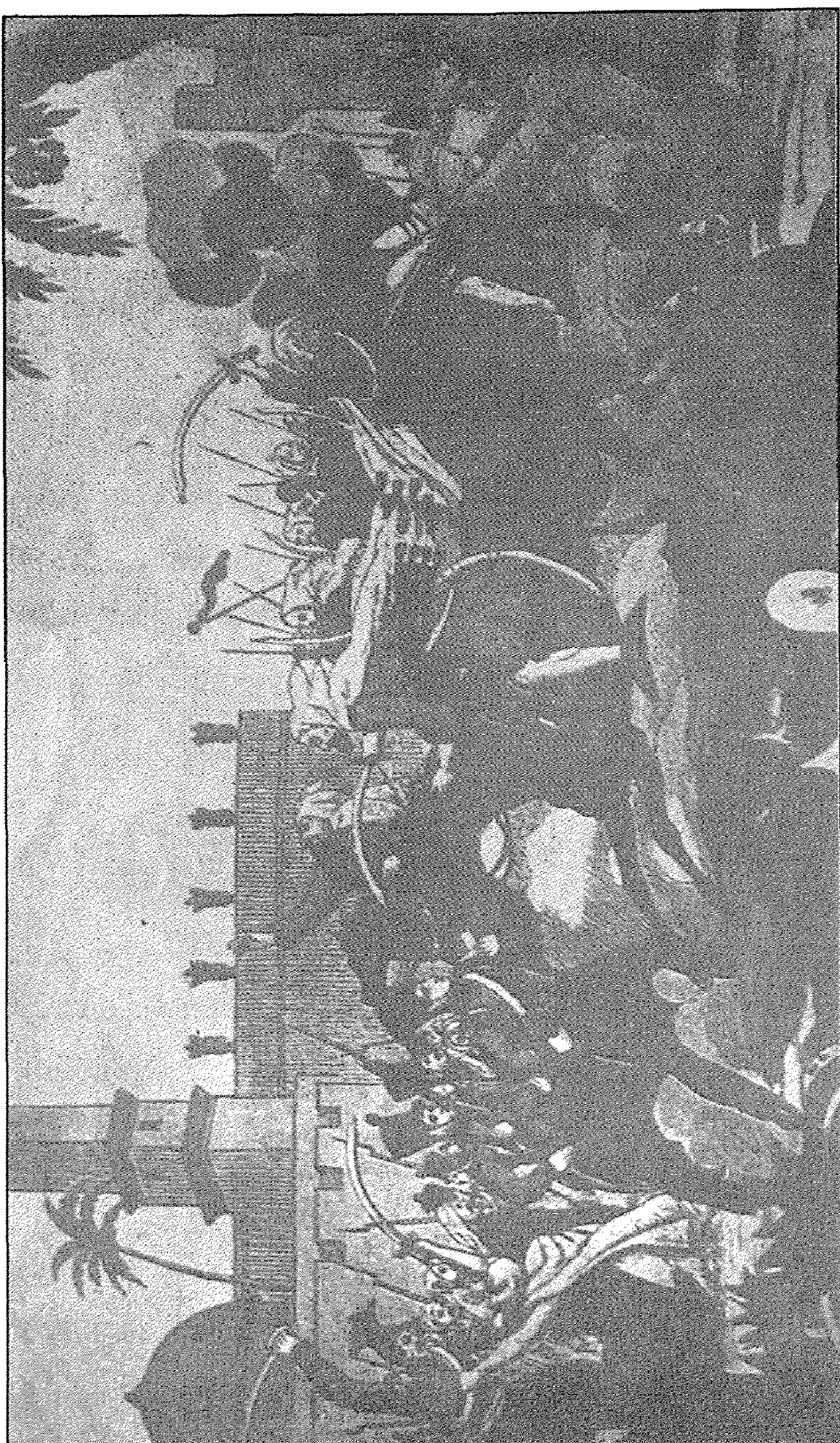
الأمير عبد القادر بالقسطنطينية عام ١٨٦٦م



أحد جنود الأمير المشاة



بدء العدوان: نزول الحملة الفرنسية في سيدي فرج قرب مدينة الجزائر سنة ١٨٣٠



صورة تاريخية تمثل المعركة التي انتصر فيها عبد القادر في مسكرة

الفهرست

عمر المختـــار

ليث الصحراء الذي حرر شعبا وصنع تاريخا

تركة الرجل المريض

عانى المغرب العربي من جور الاستعمار أهوالاً قلَّ أن تعرضت لها بقعة أخرى من بقاع الأرض . وكان الصراع بين الاستعمار وشعوب المغرب ، صراع فناء يهدف الفاتح من ورائه إلى القضاءِ على تلك الشعوب المستضعفة قضاءً تاماً ، ليحل محلها ويستولي على ما تملكه من أسباب العيش .

وما كفاح الشعب الليبي في سبيل الحرية إلاَّ جزء من ذلك الصراع الدامي الذي خاضته شعوب المغرب بأسرها واستبسلت فيه ، وكتبت الدماءُ التي بذلتها في ساحاته أروعَ قصةٍ من قصص البطولة والتضحية في سبيل السيادة والاستقلال .

ولقد أعطت هذه الشعوب الباسلة بنضالها المجيد ، دليلاً جديداً على حيوية الأمة العربية ، وثباتها أمام الكوارث والنكبات ، وخروجها من كل محنة تتعرض لها وهي أقوى عزماً وأعظم بأساً وأشد إيماناً بحقها في الحياة .

كانت الدولة العثمانية تسيطر على البلاد العربية ، وكانت الامبراطورية التي أنشأتها قد تجاوزت عصورَ الازدهار ودخلت طورَ الاحتضار ، وبدأت تُعرف باسم «الرجل المريض» . وذلك لأن هذا الرجل الخَرِف كان يعتمد الظلم منهجاً في إدارة الشعوب التي يحكمها ، وكان الفساد قد تغلغل في بنيته وأجهزته ، فلم ينفعه انتسابه إلى الإسلام وتذرعه بالخلافة الإسلامية ، لأن الشريعة الإسلامية تقضي بالمساواة بين الناس في الحقوق والواجبات : « ﴿ **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل** ﴾ فإذا انحرف الحكام عن هذا السبيل حقَّ عليهم العقاب : ﴿ **وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً** ﴾ .

وكانت الدول الأوروبية الاستعمارية تتنازع للإستيلاء على تركة الرجل المريض ، ويتحفز كل منها للوثوب على ما يستطيع من أجزاء الفريسة . وطُرحت ليبيا في أوائل القرن العشرين على مائدة المساومات في ميدان السياسة الدولية ، فكانت من نصيب إيطالية . وكانت هذه الدولة قد بدأت بتأسيس امبراطوريتها في أريتيريا ثم حاولت الاستيلاء على الحبشة فأخفقت ، فتطلعت أنظارها إلى ليبيا ، مستغلةً تداعي الدولة العثمانية وتراخي قبضتها عن البلدان التي تحكمها بفعل ما تعانيه من تدهور اقتصادي وتفكك سياسي ، ومهَّدت لذلك بتشجيع الهجرة الإيطالية إلى ليبيا وإنشاء المدارس فيها ، وتأسيس فروع لبنك دي روما في مدنها الرئيسية ، تقدم القروض للفلاحين وتستولي على الأراضي الزراعية ، ولم تنس القناع الإنساني الذي تستر وراءه مطامعها فأرسلت الأطباء وبَنَت عدداً من المستوصفات لمعالجة

المرضى .

وهكذا وجدت الذرائع لاتهام الدولة العثمانية في أيلول (سبتمبر) ١٩١١ بأنها تعرقل تقدم ليبيا وتحول دون تمتع شعبها بما تمتعت به في زعمها شعوبٌ أخرى من الشمال الإفريقي في ظل الاستعمار الفرنسي ، وإن الرعايا الإيطاليين والمشاريع الإيطالية هناك باتت في حاجة إلى الحماية ، ولذلك « فإنها وقد رأت نفسها مضطرة إلى التفكير في شرفها ومصالحها ، قررت الإقدام على احتلال طرابلس وبرقة عسكرياً ، وهذا الحل هو الوحيد الذي يمكن لإيطاليا أن تقبله . وتنتظر الحكومة الإيطالية من حكومة الامبراطورية العثمانية إعطاء الأوامر اللازمة حتى لا تلقى أية مقاومة من الممثلين العثمانيين ، ومن الممكن اتخاذ الاحتياطات التي لا بد وأن تنتج عن تنفيذ ذلك دون أية عراقيل . وستُتخذ فيما بعد القرارات اللازمة لتسوية الحالة التي ستنتج عن هذا » .

وكان رد الحكومة التركية على إنذار الحكومة الإيطالية ضعيفاً فيه خضوع واسترحام ، مؤكداً أن تركية العظيمة قد انهارت وبدأت تركع أمام عدوها لتستدر عطفه ورحمته ، فانتهز جوفاني جوليتي رئيس الوزارة الإيطالية والداعية الأكبر للاستعمار الإيطالي ، هذه الفرصة الذهبية وأعلن الحرب عليها فوراً ، وأمر الأسطول الإيطالي بالتوجه فوراً إلى ليبيا .

تحية الحديد والنار

وفي فجر اليوم الرابع من تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩١١ استيقظ سكان مدينة طرابلس على أصوات القنابل التي أخذت تصبها على المدينة الآمنة البوارجُ والمدمرات الإيطالية التي أحدقت بها . واستمرَّ القصفُ ساعاتٍ عدة ، وهرع السكان إلى خارج المدينة طلباً للنجاة . ولم ترد حصونٌ طرابلس على تحية الحديد والنار التي وجهها إليها الأسطول الإيطالي ، بل تهدمت وتناثرت وكأنها آنية من الفخار .

وفي الوقت نفسه بدأ هجوم مماثل على طبرق ، إذ فوجيء سكان هذه المدينة الصغيرة بالأسطول الإيطالي يقذفُ منازلهم بالقنابل الثقيلة فتحمل معها الموت والدمار .

وبعدما استمر قصفُ الأسطول الإيطالي لمدينة طرابلس ثماني ساعات متواصلة ، بدأ نزول القوات إليها وتم احتلالها دون أية مقاومة ، لأن السكان والجنود الأتراك كانوا قد غادروها ، ولم يبق فيها إلاّ الجاليات الأجنبية واليهودية المتجمعة في أمكنة معينة كان متفقاً على عدم ضربها بالقنابل .

وقد قاد حملة النزول أمير البحر كاني ، ولما سيطر على المدينة واطمأن إلى عدم وجود أية قوات عربية أو تركية فيها أمر بقية القوات بالنزول إليها ، ولما تم الاحتلال نهائياً أصدر جوفاني جوليتي أمراً بتعيين الجنرال كارلو كانيفا والياً عاماً في ليبيا .

أما طبرق فإن القوات الإيطالية الغازية تمكنت من احتلالها بعد

معركة صغيرة تبودل فيها إطلاق النار مع المقاتلين العرب الذين تصدوا للغزاة دفاعاً عن بلادهم ، ولكنهم اضطروا إلى الانسحاب تاركين في الساحة بعض شهدائهم ، بعد أن أيقنوا بعدم جدوى المقاومة ضد قوات تفوقهم مئات المرات في العدة والعدد . فكانت طبرق بذلك أول بقعة من أرض ليبيا تطؤها أقدام الغزاة ، وكانت معركتها على الرغم من قلة عددها ، أول صفحة من تاريخ المقاومة فيها .

وتتابع احتلال المدن الساحلية فسقطت جميعها في أيدي الإيطاليين ، ولكن مرّت سنواتٌ عدة والغزاة قابعون داخل أسوار المدن وراء الحصون التي شيدوها والمدافع التي نصبوها ، لا يجرأون على الخروج منها لأن رجال المقاومة التي اشتدت في الأرياف لا يفتأون يحاصرونها ويتربصون بها ويوقعون بكل من يغادرها .

وبعد سنة من المقاومة الصورية ، تخلّت تركية لإيطالية عن ليبيا ، كي تستطيع الانصراف إلى الحرب البلقانية التي أرهقتها بأعبائها . . . وظل المجاهدون الليبيون وحدهم يتابعون النضال . . . وقد استخلفت تركيا في ليبيا السيد أحمد الشريف نائباً عن السلطان ، لإضفاء شيء من السلطة والمهابة على حركته الروحية الشعبية ، فاكتسب عطف العالم الإسلامي ، وأعانه المسلمون من الأقطار المجاورة ببعض المال والسلاح ، فأنشأ يقاتل الطليان في برقة والفرنسيين في الصحراء الجنوبية .

وقاد السيد أحمد السنوسي القافلة الأولى من المجاهدين الأبرار . . . وقاد القافلة الأخيرة الشهيد عمر المختار . . . وبين

القافلتين تعاقبت قوافل ، وبين الزعيمين برز زعماء وأبطال ، منهم من قضوا في السجون ومعسكرات الاعتقال ، ومنهم من استشهدوا على أعواد المشانق وفي ساحات القتال ، ومنهم من شردوا تحت كل سماء . . .

ومما يصور صدى هذه الأحداث في العالم العربي الرازح يومذاك تحت نير الاستعمار الغربي أو التركي ، فهو يتوثب ويتململ ولكنه كالليث الذي لا يملك إلاَّ أن يتمطى في قيوده ، قول الرصافي من قصيدة طويلة :

يعزّ علينا أهل برقة أنكم — تدور عليكم بالدماء رحى الحرب
وإنا إذا ما تستغيثون لم نجد — إليكم على بعد المسافة من درب
وقد علم الأعداء أن سيوفنا — تململ في الأغمار شوقاً إلى الحرب
وما نحن إلاَّ كالليث شدّت قيوده — وأُلقي حباً شبله في فم الذئب
يرى الشبل مأكولاً فيزأر موثقاً — ويضرب كفيه على الأرض للوثب
فلا يستطيع الوثب إلاَّ تمطياً — وزأراً وإنشاب المخالب في الترب

كارثا بلانشا

ولد عمر المختار سنة ١٢٧٩هـ/ ١٨٦٢م بالبطنان شرقي الجبل الأخضر في برقة ، وهو يتيم من أسرة فرحات ومن قبيلة بريدان المنفة ، تعلم في مدرسة زنزور السنوسية ، ثم أتمَّ تعليمه في الجغبوب ، وانتقل مع السيد أحمد الشريف إلى الكفرة ، واختاره السيد لتولي مشيخة زاوية القصور على مقربة من المرج ، ليكون مرشداً لها ولقبيلة العبيد المعروفة بقوة مراسها وشدة شكيمتها ،

فانقادت القبيلة وأطاعت ومضت بهديه على نظام مكين .

ولما بدأ الفرنسيون يغيرون على أطراف البلاد من مستعمراتهم الافريقية ، للقضاء على السنوسية خوفاً من انتشارها وتسرّب تعاليمها الإسلامية ، كلفه أحمد الشريف أمر الجهاد ضد الفرنسيين في واداي ، فكان يُقاتل المستعمرين ويعمل في الوقت نفسه على نشر الإسلام في تلك الربوع .

وكان المختار وقت نزول الطليان في بنغازي بواحة جالو ، فخفَّ مسرعاً إلى القصور ليكون له نصيب في مقارعة العدو ، وخرج على رأسِ قوةٍ من قبيلة العبيد ، واتخذ مقامه في بنينة ، وأخذ يجمع الحشود ويحث على النضال ، ثم اشتبك مع الإيطاليين في معارك عدة ، وهاجمهم في بنغازي نفسها .

وحين قررت تركية سحب قواتها من ليبيا ، طلب المجاهدون من قادة الجيش التركي التخلي لهم عن الأسلحة التي في حوزتهم ، ولكن الضباط الأتراك رفضوا ذلك بناء على تعليمات قيادتهم ، فحاول المجاهدون الحصول على تلك الأسلحة بالقوة ، واعترضوا سبيل الأتراك الهاربين إلى مصر ، فقتل عدد من الفريقين ، وكادت تنشب مذبحة دامية بين العرب والأتراك لولا أن عمر المختار أقنع المجاهدين بإفساح الطريق لأولئك الجنود المغلوبين على أمرهم كي يصلوا إلى الحدود .

وفي أيلول (سبتمبر) سنة ١٩١٣ ، استطاعت قوات الاستعمار الاستيلاء على بعض مناطق الثوار في كل من برقة وطرابلس ، فاتخذ

المختار من منطقة دفنة مجالاً لنشاطه الواسع . وكان المجاهدون معه يغنمون في المعارك التي يخوضونها عتادهم الذي يقاتلون به ومؤنهم التي يعيشون عليها ، عدا من يقضون عليهم من جنود العدو . وكانت شهوة الدم تستولي على الغزاة الإيطاليين كلما تعرضوا لإحدى غارات المجاهدين ، فينتقمون من الأبرياء والآمنين ، وكم أعطاهم الجنرال كانيفا «كارتا بلانشا» أي «بطاقة بيضاء» تخولهم الحق بارتكاب ما يشاؤون من الفظائع في القرى والمدن التي يحتلونها ، من قتل ونهب واغتصاب . وقد قال الصحفي الألماني فرر جوتبرغ : « لم يفعل جيش مع عدوه من أنواع الغدر والإجرام ، ما فعله الطليان بليبيا ، فقد كان الجنرال كانيفا يستهين بكل قانون حربي ويأمر بقتل جميع الأسرى ، سواء قبض عليهم في الحرب أو في بيوتهم».

وعلى الرغم من هذه الجرائم المروعة ، كان هذا الطاغية لا يفتأ يوجه إلى المواطنين العرب النداء إثر النداء للإستسلام له والإنصياع لإرادته ، بمنطقٍ استعماري عجيب يقول لهم : « إن إيطالية العظيمة أصبحت بالنسبة لكم بمثابة الأب ، بعد أن أخذت أمكم وهي طرابلس الغرب . فهلموا إلينا ، تعالوا وعليكم الأمان . إن حكومة إيطالية العظيمة ستكافىء كل من يسلم نفسه وأسلحته ـ بندقيته وذخيرته ـ بمبلغ عشرين فرنكاً ، وتحسن إليه بكيس من القمح أو الشعير بحسب اختياره » . . أو يلجأ إلى التوسل بالدين في محاولة لإظهار الإحتلال الأجنبي بأنه قضاء وقدر ليس أمام المسلمين إلاَّ التسليم به والخضوع لسلطانه ، لأن الخروج عليه كفر وعصيان للإرادة الإلهية : « . . فإرادة الله ومشيئته سبحانه قضتا بأن تحتلَّ

إيطالية هذه البلاد ، لأنه لا يجري في ملكه إلَّا ما يـريد ، فهـو مالـك الملك ، وهو على كل شيء قدير . فمن أراد أن يظهر في الكون غير ما أظهره مالك الملك ربُّ العالمين ، المنفرد بتصـرفاتـه في ملكه الـذي لا شريك فيه ، فقد جمع الجهل بأنواعه وكان من المتمرديـن . وبناء عليـه يلزم عـلى كل مؤمن أن يـرضى ويسلّم بما تعلقت بـه الإرادة الربـانيـة وأبرزته القدرة الإلٰهية ، فالملك له سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء » !! .

شيخ مع الشبان والفتيان

وكان المختار قد تجاوز سن الخمسين ، ولكن ذلك لم يُخمِـد روحه الثورية ، تلك الشعلة التي تتـألق في بعض النفوس الكبيـرة ، ولم يَحُلْ دون اشتراكه في قتال العدو مـع الشبان والفتيـان ، وكأنَّ الشـاعر قـد عناه عندما قال :

وفي الجسم نفسٌ لا تشيبُ بشيبِهِ   ولـو أن ما في الـوجه منـه حرابُ
يُغـيِّر مني الدهـرُ ما شـاء غيرَهـا   وأَبلغُ أقصى العمـر وهي كعـاب

لقد بدا وكأنه استمدَّ من النضال شباباً جديداً وحيـوية جـديدة ، فهو في غمرتـه أشد قـوةً وبأسـاً من قبل ، يهجم عـلى الموت بجـرأةٍ لا مثيل لها ، ويقـوم بضروبٍ رائعـة من الشجاعـة والاقدام ، حتى غـدا اسمـه الذي يحمـل معاني البـطولة في كـل حرف من حـروفه ، مبعث رعب لدى المستعمرين القساة ، بل مبعث إعجاب وإكبار . . فـإن ما لاقـاه المستعمرون عـلى يديـه من ألوان المـوت ، وما شـرب سيفه من دمائهم ، لم يمنع إحـدى صحفياتهم من أن تقـول عنه : « إنـه أشجع الرجال وأجرؤهم وأعرقهم في التجرد والإخلاص » .

ذلك أن البطولة والمروءة والوطنية ، تفرض إحترامها حتى على الاستعمار ! .

وفي هذه الفترة من مسيرة الكفاح الوطني تنازل السيد أحمد الشريف عن قيادة الحركة الوطنية لعمر المختار ، وعن زعامة الحركة السنوسية للسيد محمد إدريس الذي بويع بعد ذلك بالإمارة واعتبره المواطنون ملكاً للبلاد ، ورحل من ليبيا في سنة ١٩١٨ عن طريق البحر بغواصة ألمانية إلى برلين فاستانبول ، وبعد أن أقام فترة في تركيا انتقل إلى الحجاز فجاور ضريح الرسول وتوفي هناك عام ١٩٣٣ .

وبرز عمر المختار كزعيم للنضال الوطني في ليبيا سنة ١٩٢٢ حين عمد أكثر الزعماء إلى التخلي عن النضال نتيجة للإرهاب الإيطالي الذي تعاظم في البلاد إثر وصول موسوليني إلى الحكم وسعيه لتحقيق حلمه بإعادة مجد الامبراطورية الرومانية القديمة . وكان أكثر هؤلاء الزعماء وعلى رأسهم الملك محمد إدريس السنوسي ، قد هاجروا إلى مصر ، وأخذوا يدعون لقضية بلادهم في العالم العربي والأجنبي ، مكتسبين لها المؤيدين والأنصار .

حتى توارى لحيتي في التراب

وجاء عمر في سنة ١٩٢٣ إلى مصر وأقام في ضيافة عبدالرحمن عزام ولكنه لم يأت إليها مهاجراً ، وإنما أتى ليدعو الزعماء إلى العودة ، ويحضهم على معاودة النضال . . . فإذا برفاقه يحاولون استبقاءه في أرض الكنانة ، ومنعه من العودة إلى الوطن الغالي الذي تحول إلى مقبرة للمناضلين الأحرار .

ولكن عبثاً كان رفاقه يحاولون إقناعه بالبقاء والركون إلى الدعة والراحة وقد بلغ سن الشيخوخة وتجاوز مرحلة الكفاح من العمر ، وعبثاً كانوا يحذرونه من قوة المستعمر الغاشم المسلح بما أبدعته حضارته من وسائل القتل والدمار . . .

وكان جوابه قاطعاً فاصلاً ، فقد قال لهم : إنني أؤمن بحقي في الحرية وحق بلادي في الحياة . . . وهذا الإيمان أقوى من كل سلاح . . . عندما يقاتل المرء لكي يغصب وينهب ، يتوقف عن القتال إذا امتلأت جعبته أو انتهكت قواه . . . ولكنه حين يحارب من أجل وطنه ، يمضي في حربه إلى النهاية . . . إن الظلم يجعل من المظلوم بطلاً ، وأما الجريمة فلا بد من أن تُرجِفَ قلبَ صاحبها مهما حاول التظاهر بالكبرياء . . .

وقال عمر المختار : إني أفضل أن أموت شريفاً ، وسيفي في يدي ، على أن أموت في فراش الدعة الممزوجة بالذل والعار! . . .

ثم ضحك وهو يداعب لحيته البيضاء : لن أبرح الجبل الأخضر مدة حياتي ، ولن يستريح الطليان فيه ، حتى توارى لحيتي في التراب . . . إن قلبي هناك ، مع الشعب ، وفي تلك الأرض قد امتدت عروقه ، ولن يدفن إلاَّ في ترابها الأغبر! .

وعاد المختار من مصر إلى ليبيا مع نفر من إخوانه عبر حدودها الشرقية بعد أن حصل من الملك إدريس على رسالة إلى أخيه محمد الرضا لمد حركة المجاهدين بكل ما يستطيع من أسباب القوة . وعلم الإيطاليون برحيله فأعدوا ثلاث سيارات مصفحة كمنت له في الطريق

قرب بير الغبي ، فما ان ظهر ورفاقه حتى أمطروهم وابلاً من رصاص مدافعهم الرشاشة ، فقابلهم المجاهدون بالمثل وأصابوا عجلات سياراتهم ، ثم انقضّوا عليهم فأبادوهم جميعاً ، وتابعوا سيرهم حتى زاوية القطوفية وإذا برفاقهم هناك يستقبلونهم ببشائر النصر الذي أحرزوه أثناء غياب المختار في معركتين متواليتين ، فقد جاءت لمقاتلة المجاهدين حملة عسكرية من خمسة آلاف مقاتل مزودين بالأسلحة الحديثة وتشد أزرهم حوالى مائة من السيارات المصفحة ، وتلاقى الفريقان عند بير بلال ونشبت بينهما معركة ضارية كان النصر فيها حليف المجاهدين ، على الرغم من استشهاد عدد كبير منهم . ثم علموا أن قوة إيطالية أخرى كانت ما تزال في طريق الساحل ، فخفوا لمقابلتها سراعاً ، واشتبكوا معها في قتال عنيف ، وتعذّرت على السيارات الإيطالية الحركة السريعة بسبب طبيعة الأرض ، فعطل المجاهدون عجلاتها وظلوا يدفعون بالطليان المنهزمين إلى الماء فيسقط من نجا منهم في البحر وتبتلعه أمواجه ، حتى جاءت سفينة إيطالية وأنقذت من بقي منهم على قيد الحياة .

الجبل الأخضر

واتسعت حركة المقاومة إثر ذلك اتساعاً كبيراً ، وعمل عمر المختار على تنظيمها وتوحيد صفوفها ، وجعل في كل فرقة من فرق الثوار قائداً للقتال ومديراً للأمور المدنية وقاضياً للشرع وعدداً من المساعدين لهؤلاء الضباط ممن تدربوا على القتال . وكانت الفرق كلها تحت إشراف عمر المختار الذي اختار الجبل الأخضر مقراً لقيادته . .

وتجمع حوله المقاتلون من كل صوب . جاء الفلاحون حفاة وفي أيديهم معاولهم . وجاء العمال من المدن وعيونهم تتقد غضباً وعزماً . . وجاء المثقفون يشاركون في القتال المسلح . . حتى النساء أتين إلى صفوف المجاهدين مؤثرات الموت برصاص العدو على الذل والعار . . واشتد ضغط هذه الفئة المجاهدة على المستعمرين ، فالغارات متواصلة على الثكنات ، والطرقات مزروعة بالموت وما هو أشد من الموت ، وأعمال التخريب تهدم كل عمل يحاولون به تثبيت أقدامهم في الأرض المغتصبة . .

وآخى الكفاح ضد المستعمر بين القبائل ، فنسيت خلافاتها وعصبياتها القديمة ، وكانت الجماعة من أية قبيلة إذا دهمها خطر الأسر ، تنتقل إلى إحدى القبائل المفروض أنها مسالمة ، وتختفي بين أبنائها . وقد تضطر فئة إلى التخلي عن القتال مؤقتاً لأن فرقة إيطالية تطاردها ، فتحل مكانها فئة من القبيلة المسالمة .

ولأول مرة في تاريخ بنغازي منذ العهد البيزنطي أقيمت لها أسوار دفاعية بنيت بالأحجار إلى ارتفاع يبلغ ١٥ قدماً لوقايتها من هجمات المجاهدين . وقد أحاطت هذه الأسوار بالمدينة وضواحيها ممتدة إلى مسافة أربعة كيلومترات وتخللتها خمس بوابات لمراقبة الداخلين إليها والخارجين منها . وفيها وراء هذه التحصينات الداخلية شيدت عند أقصى السبخة حصون ضخمة واستحكامات مجهزة بالأنوار الكاشفة التي تسلط على السهول المجاورة أثناء الليل .

ولما أدركت السلطة الإيطالية عجزها عن القضاء على مراكز

المقاومة المنيعة في الجبال ركّزت جهدها لاحتلال مركزها في واحة الجغبوب الذي ظلّ طوال السنين الماضية يمد المجاهدين في سائر الأنحاء بالمؤن والذخائر والمتطوعين .

وكانت للجغبوب أهمية اقتصادية لأنها تؤلف مركزاً وسطاً بين مصر وبرقة ، وبين السودان والصحراء الوسطى ، فكانت تأتيها القوافل من كل مكان ، كما أن لها أهمية استراتيجية مماثلة لأنها تعد مدخلاً من مداخل برقة ، وصلة الوصل بين مراكز المقاومة المختلفة تمدها بالمؤن والنجدات .

ولما كانت الجغبوب تعتبر يومذاك من الأراضي المصرية ، فقد عقدت محادثات بين روما ولندن والقاهرة خلال سنة ١٩٢٥ ، أسفرت عن إبرام «اتفاق الجغبوب» في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٥ الذي أدخلت الجغبوب بموجبه ضمن الحدود البرقاوية ، وبدأ الطليان يتخذون العدة بعد ذلك مباشرة لاحتلال هذه الواحة .

وبدأ الزحف عليها في أوائل شباط (فبراير) ١٩٢٦ بقوة كبيرة يؤازرها سرب من الطائرات ، ولكن المجاهدين كانوا قد علموا بالأمر فغادروها قبل ذلك ، فلما دخلتها القوات الإيطالية لم تجد فيها أحداً منهم .

انذار الى المختار

وعلى أثر ذلك اشتدت الحملات على فزان لاحتلال عاصمتها مرزق ، ووصل الجيش الإيطالي إلى جبلٍ يُعرف باسم القنينة فالتحم

المجاهدون معه هناك في معركة دامية استمرت خمسة أيام متواصلة ، هُزم الإيطاليون فيها شرَّ هزيمة فتقهقروا تاركين ما لديهم من مؤن وذخائر . ثم خرجت قوة إيطالية أخرى، فكمن لها المجاهدون على رأسي جبلين يعرفان بالجبال السود ، وباغتوها وهي في الوادي بين الجبلين ، فذعر قادة الحملة وعمدوا إلى الفرار بسياراتهم تاركين وراءهم الجيش الذي أباده المجاهدون بأسره .

واستمرت الاشتباكات حتى أوائل سنة ١٩٢٨ ، حين تم للإيطاليين إحتلال واحتي جالو وأوجله ، وبذلك استطاعوا أن يقطعوا على المجاهدين في الجبل الأخضر وبرقة جميع السبل المؤدية إلى مصر وإلى مراكز الإمدادات في الجنوب ، وبات عمر المختار ورفاقه في عزلة تامة في الشمال . إلاَّ أن ذلك لم ينل من عزيمة المختار فواصل غاراته في كل اتجاه ، والتحم مع الجيش الإيطالي غير مرة ، وتحرك المجاهدون في الجبهات الأخرى ، وامتد لهيب الثورة من سرت شمالاً إلى الفزان جنوباً وإلى جالو شرقاً ، فضلاً عن مقاومة المجاهدين في الجبل الأخضر .

وضجت إيطالية للخسائر التي تمنى بها في الأموال والأرواح ، وأرسلت إلى عمر المختار إنذاراً رسمياً بأنه إذا لم يكف عن اعتدائه على قوى الجيش الإيطالي فستعلن عليه الحرب . .

وهزأ البطل بإنذار الدولة الظالمة التي تصف بالعدوان أعمال الدفاع عن الوطن والنفس . .

وأعلنت إيطالية الحرب حقاً ، كأن الخصم الذي يناصبها العداء

دولة موفورة القوى منظمة الصفوف !.

دولة كبيرة مدججة بالسلاح ، تحارب فئة صغيرة عزلاء إلاَّ من الإيمان بحريتها وكرامتها وحقها في الحياة ، ذلك الإيمان الذي قال عمر المختار إنه أقوى من كل سلاح .

سلاحهم عزيمة الجهاد
وقوتهم ما سلبوا من الأعادي
يصابرون الأكبد الصوادي
ويأكلون الجوعِ في البوادي
قد يئسوا يأساً من الإمداد
الا ثبات القلب في الجلاد

بهذا الإيمان قاومت ليبيا العدوان وصابرت الشدائد ودافعت الخطوب ، فكان لها حصناً تحطم عليه الحملات الإيطالية المتتابعة ، وتتساقط عند أقدامه ألوف الضحايا من الشبان الإيطاليين الذين نذرتهم أمهاتهم للحب والحياة ، فساقهم تجار الحروب إلى الحقد والموت . .

الهدنة المراوغة

وأدى ذلك إلى استقالة فيدزوني وزير المستعمرات في الحكومة الإيطالية وديبونو والي طرابلس وتيروتزي والي برقة في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٨ ، وأعلن موسوليني توحيد الإدارة في الإقليمين

الليبيـين ، وعيّن المـاريشال بـادوليو حـاكماً عسكـريـاً عليهـما ، فجـاء الماريشال إلى ليبيا في أوائل سنة ١٩٢٩ ، وهو مطلق الصلاحية باتخـاذ التدابير السياسية والعسكرية التي يريدها للقضاء على الثورة .

وبعد معارك لا عـداد لها ، أدرك بـادوليو أن القتـال لا يجدي ولا بـد من الالتجاء إلى الـدهاء والمـراوغة ، واستـطاع أن يستميـل بعض الأعيـان في المدن ، ثم أخـذ يستعين بهم للتفـاوض مع الثـوار لمعرفـة شروطهم لوقف القتال ، فطلب المختار قبل بـدء المفاوضـات أن تعمد السلطة الإيطالية إلى إقامة الـدليل عـلى حسن نوايـاها بـإطلاق سـراح السيـد محمد الـرضا وإعـادته إلى بـرقة وكـانت إيـطاليـة قـد نفتـه إلى صقلية . وحمل رسالته إلى حاكم طرابلس محمد حسن بن السيد محمـد الرضا . فوافق بادوليـو على ذلـك ووصل محمـد الرضـا إلى بنغازي في ٢١ آذار (مارس) ١٩٢٩ .

وطلب مندوبو السلطة الإيطالية إثر ذلك أن يجتمعوا بالسيـد عمر المختار في الجبل الأخضر لبـدء المفاوضـات بينهما فـوافق المختار ولكنـه طلب أن يحضر المفـاوضـات السيـد الـرضـا أيضـاً . وفي ٢٠ نيســان (إبريل) جاء مندوبـو السلطة إلى الاجتماع ومعهم السيـد الرضـا إلى بئر المغارة في وادي القصور ، وجاء المختـار فخيّروه بـين أمور ثـلاثة : الذهاب إلى مصر أو الحجاز أو البقاء في بـرقة ، وفي الحـالات الثلاث سوف تخصص له الحكومة مرتباً ضخماً وتعامله بكل احترام .

وضحـك المختار ثم غضب . ضحـك للعقليةِ الاستعمـارية التي

تعتقد بأنها تستطيع أن تشتري كل شيء ، حتى ضمائر الثوار ، وغضب لأنه رأى في العرض الذي قدم له احتقاراً لعروبته . وانفضّ الاجتماع دون الوصول إلى أية نتيجة .

ثم عقد اجتماع آخر في ٣٠ أيار (مايو) في نجع علي العبيدي شيخ العبيدات وحضره السيد حسن الرضا وآخرون ، فأعلن بأنه لا يدخل في أية مفاوضة مع السلطة الإيطالية إلّا إذا حضر المفاوضات مندوبان عن الدولتين العربيتين المجاورتين لليبيا : مصر وتونس . فقال المندوب الإيطالي دودياشي إنه لا حاجة لحضور المندوبين العربيين وإن السلطة الإيطالية تلتزم بوفاء عهودها ، وإن مسلكها مع الليبيين كان مثال الشرف والمروءة . فاستشاط المختار غضباً ، وعدّد للمندوب الإيطالي مواقف السلطة الإيطالية حتى مع أولئك الذين هادنوها وتعاملوا معها ، وهي أبعد ما تكون عن الشرف والمروءة . وتدخل بعض الحاضرين لتهدئة الزعيم ، والانتقال إلى بحث شروط الصلح ، فطالب المختار بأن تتمتع ليبيا بنصيب من السيادة الوطنية لا يقل عما تتمتع به مصر وتونس ، وبأن تعترف إيطالية بحقوق الزوايا الدينية والزعامة السنوسية . وكان المختار وحده هو الذي يتكلم ، وقد لزم الآخرون الصمت ومنهم السيد الرضا . فحاول بعض الحاضرين إقناعه بأن يترك جانباً مسألة الحقوق والزعامة السنوسية ، فثارت ثائرته من جديد وانسحب قائلاً إنه يريد الذهاب إلى معسكره لأن ذلك اليوم هو أول أيام العيد ، وإذا أراد المتصرف دودياشي متابعة الحديث فليكن موعده في جلسة أخرى .

واتصل أعوان الحكومة بالمختار مرة أخرى لإقناعه بأن وضع البلاد لم يعد يحتمل استمرار الثورة ، وأن المصلحة الوطنية تقضي عليه بالعمل لحقن الدماء ، ومتابعة التفاوض مع السلطة الإيطالية ، وتأكيداً على حسن نية هذه السلطة فإن الماريشال بادوليو سيحضر الاجتماع المقبل بنفسه إذا وافق على ذلك ، فأجاب بأن المجاهدين لا يحاربون من أجل الحرب ، ولكن من أجل غاية هي استقلال الوطن ، فإذا توصلوا إلى غايتهم بطريق السلم كان ذلك أجدى وأصوب .

وفي يوم ١٩ حزيران (يونيه) تم الاجتماع في سيدي رحونة بحضور بادوليو وشيشلياني وغيرهما من الإيطاليين والليبيين الذين يتعاونون معهم كالشارف الغرياني وعلي باشا العبيدي . وعلى الرغم من أن المختار ظل متمسكاً بضرورة حضور مندوبين عن الحكومتين المصرية والتونسية ، فقد قبل عرض شروطه فوافق عليها بادوليو ووعد بأن يحضر الاجتماع المقبل مندوبان عن الحكومتين المصرية والتونسية . واتفق الفريقان على عقد هدنة لمدة شهرين ، وقال بادوليو إنه على استعداد تام لقبول عودة السيد محمد إدريس إلى برقة ما دام المختار والمجاهدون يصرّون على ذلك .

وكان من الواضح أن شروط المختار لم تكن تتفق مع السياسة الإيطاليةالرامية إلى تحويل ليبيا إلى إقليم إيطالي بما دأبت عليه طوال ستة عشر عاماً من تشجيع الهجرة الإيطالية إليها واستملاك أراضيها والعمل على محو ثقافتها العربية الإسلامية وإحلال الثقافة الإيطالية

محلها . والواقع أن بادوليو كان يـراوغ المختار ، ويـواصل التفـاوض معـه وتمديـد الهدنـة بينهما في سبيـل كسب الوقت استعـداداً لتوجيـه الضربة القـاضية للثـورة التي استنزفت الميـزانية الإيـطالية وسحقت كثيراً من فرقها العسكرية .

ولم تـوشك سنـة ١٩٢٩ على نهايتهـا إلاَّ وكـانت ليبيـا مسـرحـاً لأعنف حملة عسكرية شهدتها حتى ذلك الوقت .

جزار ليـبـيـا

واختـار موسـوليني لهذه الحملة الجنـرال غرازيـاني الـذي عـرف ببطشه وجبروته فعينه حاكماً لبرقـة . وبدأ غـرازياني معـاركه أولاً في منطقة الفزان بإقليم طرابلس فاحتلها بأسـرها ورفـع العلم الإيطالي على عاصمتها مرزق في ٢٤ كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٣٠ ، وكان عبدالجليل سيف النصر بطل المقاومة في فزان . وبعـد احتلال فـزان صار في وسعه التفرغ لإخضاع مراكز المجـاهدين في الكفـرة وتطويق عمر المختار في الجبل الأخضر .

وقد شدد جزار ليبيا الـرقابـة على الحـدود لمنع تهـريب الأسلحة والإمـدادات إلى المجـاهـدين ، وحـال دون أي اتصـــال بـين هؤلاء وأنصـــارهم ، ونـزع الأسلحـــة من الأهلين ، وأنشـــأ معسكــرات الاعتقال ليزجَّ فيهـا كل مشتبـهٍ به ، وأغلق الـزوايا الـدينية وصـادر أمـلاكها واختـطف من المدن أسـراً بكاملهـا لأنها تمت للمجـاهـدين بصلة الصداقة أو القرابة ، وخفض القوات المحلية تمهيـداً لإلغائهـا كليـاً ، وخوَّل المحـاكم حق إصدار الأحكـام بإعـدام كـل من تثبت

عليه تهمة الاتصال بالثوار وتنفيذ هذه الأحكام فوراً . وأنشأ ما عُرف باسم «المحكمة الطائرة» وهي محكمة جوَّالة تنتقل على متن الطائرات من مكان إلى آخر لإصدار الأحكام السريعة وتنفيذها «حتى يشعر الأهلون بأن العدالة تأخذ مجراها بكل سرعة» ، وقد اشتهر غرازياني بقتل الأسرى بالجملة لأن ذلك في اعتقاده يوفر كثيراً من المشكلات ويشجع «المتمردين» على الاستسلام! .

وبعد أن احتل الطليان منطقة الفايدية في حزيران (يونيه) ١٩٣٠ ، اضطر المختار إلى نقل دائرة عملياته إلى الدفنا بالناحية الشرقية ، نظراً لقربها من الحدود المصرية ، لتفادي الحصار الذي فرض عليه فأقام غرازياني الأسلاك الشائكة على طول الحدود ، واشتبك مع المجاهدين في معارك غير فاصلة ، وكان أهمها معركة وادي السانية في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٣٠ التي عثر الطليان عقب انتهائها على «نظارات» عمر المختار كما عثروا على جواده قتيلاً في أرض المعركة ، فاعتبر غرازياني ذلك انتصاراً له ، وأصدر منشوراً قال فيه : «لقد أخذنا اليوم نظارات المختار وغداً نأتي برأسه» .

ومع أن الطليان لم يصلوا في عام ١٩٣٠ إلى نتائج حاسمة في الجبل ، فإنهم تمكنوا من التمهيد لاحتلال الكفرة بالحصار الذي ضيق الخناق على سكانها حتى غادرها الكثيرون منهم ، ثم هاجمها غرازياني من ناحيتين بقوات كبيرة تدعمها الطائرات الحربية قدّر أحد الباحثين عددها بالنسبة إلى عدد المقاتلين هناك بنسبة سبعة

وأربعين إلى واحد ، فدخلها في ٢٤ كانون الثاني (يناير) ١٩٣١ ورفع العلم الإيطالي على زاوية التاج في اليوم الأول من شهر رمضان بحضور الماريشال بادوليو ، ثم تابع مطاردته لفلول المجاهدين والهائمين في الصحراء فقصفتهم الطائرات وقتلت الكثيرين منهم .

وقد ضج الوطن العربي والعالم الإسلامي للفظائع والمجازر التي يرتكبها الغزاة الإيطاليون بحق الشعب العربي الليبي ، ونشر الأمير شكيب أرسلان رسالة تلقاها من عمر المختار بعد حملته العنيفة على الاستعمار الإيطالي الاستيطاني ، وقد جاء في هذه الرسالة :

« من خادم المسلمين عمر المختار إلى المجاهد الأمير الخطير أخينا في الله وزميلنا في سبيل الله ، الأمير شكيب أرسلان حفظه الله .

بعد السلام الأتم والرضوان الشامل الأعم ، ورحمة الله وبركاته ، قد قرأنا ما دبجه يراعكم السيال عن فظائع الطليان ، وما اقترفته الأيدي الأثيمة من الظلم والعدوان بهذه الديار ، فإني وعموم إخواني المجاهدين نقدم لسامي مقامكم خالص الشكر وعظيم الممنونية .

وكل ما ذكرتموه عمّا اقترفته أيدي الإيطاليين هو قليل من كثير ، وقد اقتصدتم واحتطتم كثيراً . ولو يذكر العالم كل ما يقع من الإيطاليين لا توجد أذن تصغي لما يروي من استحالة وقوعه . والحقيقة ، والله وملائكته شهود ، إنه صحيح .

وإننا في الدفاع عن ديننا ووطننا صامدون ، وعلى الله في نصرنا متوكلون ، وقد قال الله تعالى : ﴿ **وكان حقاً علينا نصر المؤمنين** ﴾ .

وعليكم السلام ورحمته وبركاته». في ٢٠ ذي الحجة ١٣٤٩ (٨ أيار - مايو ١٩٣١).

وبسقوط الكفرة انتهت المقاومة في برقة ، واقتصرت الثورة الليبية على الجبل الأخضر الذي ظل يقاوم بمفرده على الرغم من الحصار الشديد الذي ضاق من حوله . والواقع أن هذه المقاومة قد تحوّلت إلى نوع من الاستشهاد العجيب . وكان المختار لا يفتأ يتنقل بين مراكز الثوار ، فبينما كان يجتاز مع أربعين من المجاهدين وادي الجريب في ١١ أيلول (سبتمبر) ١٩٣١ ، وهو واد كثير الغابات صعب المسالك ، علمت السلطة الإيطالية بذلك فأمرت بتطويق الوادي على عجل من جميع جهاته ، فما شعر الثائر الشيخ إلاّ وهو ومن معه وسط العدو ، فهاجموا أحد أجنحته واستطاعوا بعد يومين من القتال أن يشقوا لأنفسهم طريقاً إلى غربي سلنطة بعيداً عن الوادي ، وإذا بقوة إيطالية أخرى تهاجمهم هناك فقتل جميع من بقي معه من المجاهدين ، وقتل حصانه ووقع عليه ، فتمكن من التخلص من تحته ، ولكنه كان قد جرح في يده ، ثم تكاثر عليه الأعداء فأحاطوا به وأخذوه أسيراً ونقل فوراً إلى بنغازي ، وكان قد بلغ سن الثمانين . ورقصت روما تلك الليلة طرباً لخلاصها من الخصم العنيد .

بطل وجلاد

وجاء الشارف الغرياني عميل إيطاليـة ليزوره في محبسـه ويتأكـد من شخصه ، وتظاهر بأنه يريد تقبيل يده فرفض المختار أن يمد يـده إليه ، وطرده قائلاً : إذهب إلى أسيادك فقد خنت أمتـك وعروبتـك من أجل مجد كاذب!

وكان غرازياني يقضي إجازة في روما ، فتلقى النبأ وهو في رحلة بالقطار إلى باريس لزيارة معرض المستعمرات الفرنسية فيها ، فبارح القطار واستقل طائرة أوصلتـه إلى طرابلس ، ووصـل إلى بنغازي في اليـوم التالي، وجيء بـالمختار إلى مكتبـه ، وهـو مقيـد بـالسـلاسـل ويغـطي وجهه بحـرامه (الجـردة) وقد كتب في كتـابـه عن بـرقـة أن المختار بدا له أشبه بـولي من أولياء الله ولم يَنَـلْ الأسرُ والسجن شيئاً من وقاره وجلاله ، ودار بينهما الحوار الآتي :

● لماذا حاربت الحكومة الإيطالية هذه الحرب الشديدة؟ .

ــ لأن عروبتي وديني يأمرانني بذلك .

● هل كان لك أملٌ في أن تخرجنا من بـرقة بـالعدد القليـل من الرجال الذين يناضلون معك ، والمعدات الضئيلة التي تملكها؟ .

ـ كلا . . فإن هذا على ما يبدو كان أمراً مستحيلاً .

● ماذا كان غرضك وماذا كنت تبغي؟ .

ــ كنت مجاهداً وكفى . . أمـا ما ينجم عن هـذا الجهاد فـالأمر فيه لله وحده .

● إني أعلم بـأن المسلمـين لا يعـادون أهـل الكتـاب فكيف حاربتمونا ونحن منهم؟ .

ـ لـو كنتم مسلمين لحـاربناكم ، لأنكم اعتـديتم علينا ، وقـد أمرنا الله برد العدوان والضرب على أيدي الظالمين .

وطلب المختار الجلوس فسمح له بذلك .

يقول غرازيـاني : «وعندئـذٍ جلس المختار أمـام المكتب وكشف قليلاً عن وجهه ، وكان يبدو عليـه الهدوء بعـد تأثـره الأول ، وكان جالساً بصـورة تمكنني من رؤية نصفـه الجانبي ، وقـد بدا لي وجهـه ضارباً إلى الحمرة قليلاً ، ولم أتمالك عن الشعور في قرارة نفسي بـأني أمام رجلٍ يجسّد الزعامة بأوضح معانيها ، حتى أني وأنـا أكتب الآن بعد عديد من السنوات لا أزال أشعـر بالأثـر العميق الذي تـركه في نفسي ، وقـد أدركت حينئذٍ لمـاذا كـان صـاحب الكلمـة المسمـوعـة والرأي الأعلى بين المجاهدين » .

وفاجأ غرازياني المختار بالسؤال الآتي :

● كم من الوقت يكفيك حتى تستطيع بما لك من نفوذ وصولـة أن تخضع الثوار في الجبل؟

فاستنكر ذلك وقال: أبداً . . أبداً . . إني لا أستطيع فعل شيء من هـذا القبيل . . وفضـلاً عن ذلك فقـد أقسمنـا جميعـاً أن نمـوت واحـداً بعـد واحـد . . ومن المعـروف أني لم أسلّم نفسي إليكم ، ووقـوعي في الأسر لا يضعف من حـدة المقـاومـة شيئـاً ، وكنت قـد

اتخذت من التدابير ما يكفل انتقال القيادة من بعدي إلى واحد من إخواني فما أنا إلاَّ فرد منهم ، وكلهم قادة ، بل إن كل فرد في شعبنا العربي قائد يقود نفسه إلى النضال من أجل هذا الوطن .

نحن لن نستسلم أبداً . . سننتصر أو نموت . . ولا تظن أن الأمر سينتهي هنا ، عليكم أن تحاربوا الجيل القادم ، وبعده الجيل الذي يليه حتى نستعيد حقنا . أما أنا فسأحيا أكثر ممن سيشنقونني! .

● لماذا تظن أنني سأشنقك؟ قد يناسبني أن أحيلك على التقاعد . . إذا شنقتك فأنا أخاطر بقبر مفتوح . .

ـ لن تفعل بي إلاَّ ما قدره الله . . وقد كان حبل عدالتكم يتمايل دائماً أمامي .

● لماذا لا تلتمس مني حياتك؟ قد أهبك إياها . .

ـ وماذا أعطيك في المقابل . .

● تعاونني ! . .

فوقف المختار غاضباً وصرخ باحتقار :

ـ كلا . . كلا . . كلا . .

وتذكر غرازياني نظارات المختار التي عُثر عليها في أرض المعركة ، وبدا له أن فقدان هذه النظارات من ذلك الشيخ الطاعن في السن ربما كان السبب الذي أدى إلى وقوعه في الأسر ، وعرض النظارات عليه فعرفها وقال إنه أضاعها في معركة وادي السانية ،

فقال جلاد ليبيا :

ـ لقد تأكد لي منذ اليوم الذي عثرنا فيه على هذه النظارات بأنك لن تلبث حتى تقع في أسري! .

فأجاب بغير اكتراث : مكتوب! أرجع إليَّ النظارات لأني لا أرى بدونها! .

ثم قال ساخراً : ولكن ما الفائدة ونحن الآن في قبضتك : أنا والنظارات؟! .

وختم غرازياني تلك المقابلة بقوله : لا شك في أنك كنت طوال حياتك رجلاً شجاعاً ، واني لأرجو أن تظل شجاعاً مهما حدث لك! .

وفي الساعة الخامسة من مساء ذلك اليوم انعقدت المحكمة الطائرة في دار البرلمان البرقاوي الذي أغلق منذ سنة ١٩٢٣ ، وحوكم المختار محاكمة صورية شكلاً وحقيقة ، لأن الطليان كانوا قد أعدّوا المشنقة وانتهوا من ترتيبات الإعدام قبل صدور الحكم . وقد جيء به مكبلاً بالحديد ، وحوله الحراس من كل جانب ، وبدأت الجلسة باستجوابه . وكانت المحكمة قد استعانت بمترجم يدعى نصرت هرمس ولكن التأثر غلب عليه فتلعثم واضطرب واعتذر عن متابعة مهمته ، فأسندت إلى يهودي يدعى لمبروزو .

دخل ثابتا الى الموت

وكـان عمر المختـار مثـالاً للشجـاعـة والجـرأة ، وهـو لم يكتف بالإقرار بما أُسند إليه من «جرائم» بحق الدولة الإيـطالية ، بـل كان يصحح للمحكمة بعض الوقائع ويحدد الأرقام والأسماء .

ونبهه رئيس المحكمة إلى خطورة أقواله وأعاد عليه السؤال :

● هل أنت قائد العصيان ضد إيطالية؟ .

ـ نعم ، أنا هو .

● هل حاربت الدولة الإيطالية؟ .

ـ نعم حاربتها .

● هل حملت السلاح في وجـه قواتهـا واشتركت في قتـالها قتـالاً فعلياً؟ .

ـ نعم . . نعم . . نعم ! لقـد فعلت كـل مـا لـوطني عـليّ من حق . . اللهم اشهد أني آليت فوفيت! . .

ووقف النـائب العام الكـولـونيـل بـدنـدو فـطلب الحكم عليـه بالإعدام .

وجـاء دور المحامي الـذي عهد إليـه بـالـدفـاع عن المتهم وهـو ضابط إيطالي يـدعى الكابتن لـونتانـو فقال: إنني كجنـدي لا أتردد البتة إذا وقعت عيناي عـلى عمر المختـار في ميدان القتـال في إطلاق

الرصاص عليه، وإني لأفعل ذلك أيضاً كإيطالي يمقته ويكرهه ، ولكنني وقد كلّفت بالدفاع عنه فإني أطلب حكماً هو في نظري أشد من الإعدام ، وهو السجن مدى الحياة نظراً لكبر سنه وشيخوخته .

فاعترض النائب العام على كلام المحامي مدعياً بأنه خرج عن الموضوع بحديثه عن سن المختار ، ووافقت المحكمة على الاعتراض ومنعت المحامي من إتمام مرافعته ، وسأل الرئيس المختار إذا كان لديه ما يقوله ، فأجاب بالنفي ، فانسحبت المحكمة للتداول في الأمر ، وعادت بعد دقائق قليلة لتعلن حكمها بإعدامه شنقاً .

كان ذلك في يوم الثلاثاء في ٣ جمادى الأولى ١٣٥٠ هـ (١٦ أيلول (سبتمبر) ١٩٣١)، وقد استغرقت المحاكمة التي قضت بالإعدام على شخصية فذة من شخصيات التاريخ الحديث ، ساعة وخمس عشرة دقيقة ، وهو أمر لم يعرف له مثيل في التاريخ ! .

وفي الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي بعدما استنفرت القوات الإيطالية وحشدت لحفظ الأمن فرق من جميع أقسام الجيش ، جاء الجلادون بالأسير البطل وهو يجرُّ قيوده الثقيلة وشيخوخته الباسلة ويردد الشهادتين . وكانت شمس الضحى قد ارتفعت فتخضب وجهه بالنور . . وساقوه إلى أرجوحة الأبطال وهو يسير إليها بشجاعةٍ نادرة ، فدخل إلى الموت ثابتاً ، وصعد درجات المشنقة بهدوءٍ وجلال كأنه يصعد منها إلى السماء .

وقد حرص الجلادون على أن يشهد تنفيذ جريمتهم النكراء حشدٌ عظيم من الناس ، فساقوا إلى ساحة الإعدام ما لا يقل عن

عشرين ألفاً من المواطنين لرؤية المشهد الرهيب ، فتابعوه بقلوب واجفة وأكباد متقطعة وأعين دامعة ونفوس مؤمنة بأن هذه الظلمة الغاشية لا بد من أن تسفر عن فجر جديد .

وعبّر أحمد شوقي عن صرخة الأحرار في وجه الاستعمار ، حين رثاه بقصيدة كبيرة جاء فيها :

ركزوا رفاتك في الرمال لواء　　يستنهض الوادي صباح مساء
يا ويحهم، نصبوا منا من دم　　يوحي إلى جيل الغد البغضاء
ما ضرّ لو جعلوا العلاقة في غد　　بين الشعوب مودة وإخاء
جرح يصيح على المدى وضحية　　تتلمس الحرية الحمراء

رمز البطولة ورمز الطغيان

ذهب الزعيم ولكن الشعب من الخالدين . .

وحمل الراية يوسف بورحيل المسماري رفيق عمر المختار في جهاده الطويل . . وذلك هو شأن الشعوب الحية ، لا تأتي فيها يد الظلم على بطل إلاّ ليظهر فيها بطل آخر يكون رمزاً لإرادتها وجامعاً لوحدتها .

وفي سنة ١٩٤٣ عيّن الماريشال ايتالو بالبو حاكماً على ليبيا لتنفيذ الشطر الثاني من برنامج الاستعمار الإيطالي فيها ، وهو اغتصاب الأرض من أبنائها العرب وإعطائها للمستعمرين الإيطاليين .

ومرّت فترة لزم فيها الشعب الليبي الصمت بعد أن أهلك المستعمرون ما يقارب نصف السكان أو أخرجوهم من ديارهم ظلماً

وعـدواناً . . والصمت المنـطوي على الأحقـاد أقتل للنفـوس من يـد الجلاد .

واستؤنف الجهـاد سنة ١٩٤٠ عنـدما غـدت ليبيا أحـد مسـارح الحرب العالمية الثانية ، فاشتـدت المقاومـة الداخليـة فيها ، وتـطوع الكثيرون من الليبيين في صفوف الحلفاء بعد أن تعهد هؤلاء بـإعطاء ليبيا حريتها متى انتهت الحرب .

وفي سنة ١٩٤٣ تحررت ليبيـا من النير الإيـطالي نتيجة لنضـالها الـدامي ونضال الشعـوب الأخـرى في سبيـل الحق والعـدل . ولكن جيـوش الحلفاء حلّت محـل الجيش الإيطالي المنهـزم . وحـين انتهت الحـرب بانتصـار الحلفاء أخـذ الشعب الليبي يـطالب البـريـطانيـين بـاستقلالـه وحريتـه ، ولكن رغم وعد السيـد إيدن وزيـر الخارجيـة البريطانية آنذاك بأن لا تسمح بريطانية بعودة الاستعمـار إلى ليبيا ، ظلّت الإدارة الإنكليـزية قـابضة عـلى زمام الحكم في كـل من برقـة وطرابلس بينما تولّت فرنسا الحكم في فزان . .

واستمر الحال على ذلك حتى سنة ١٩٤٩ وهي السنة التي تخلّت فيها إيطاليـة نهائياً عن مستعمـراتها في أفـريقية ، وكـانت وفود ليبيـا والبلاد العربية الأخرى في ليك ساكسس تـطالب باستقـلالها ، بينـما كـانت بريـطانيا تقـدم إلى اللجنة السيـاسية مشـروعـاً عـرف بـاسم مشروع بيفن سفورزا ، وهو يقضي بأن تـوضع بـرقة تحت وصـايتها وطرابلس تحت وصاية إيطالية وفزان تحت وصاية فرنسا . .

ولكن الشعب الليبي وقـف بجـرأة في وجــه هــذا المـشــروع

الاستعماري الجديد ، فعمت المظاهرات أنحاء البلاد ، وأعلن الليبيون في طرابلس العصيان المدني ، وكادت تندلع الثورة المسلحة لولا أن باء المشروع البريطاني بالخسران ، ونص قرار الأمم المتحدة على أن لا يتأخر إعلان استقلال ليبيا بمناطقها الثلاث عن اليوم الأول من عام ١٩٥٢ .

وفي ليلة ٢٤ ـ ٢٥ كانون الأول ـ ديسمبر وهي ليلة عيد ميلاد المسيح رسول المحبة والسلام رفرف على ليبيا علم الاستقلال . . وخفقت قلوب العرب في كل بقعة من ديارهم ، تحية للعلم المظفر . . وانحنت لذكرى عمر المختار البطل الذي كان جهاده المجيد دعامة أساسية في هذا الاستقلال .

أما القادة الإيطاليون الذين حكموا ليبيا بالحديد والنار ، وأنزلوا بها طوال اثنتين وثلاثين سنة مختلف ألوان الظلم والإرهاب ، فقد تساقطوا على الطريق واحداً بعد آخر ، منهم من قتل في ساحة القتال ومنهم من أسر وسجن ومنهم من حوكم وأعدم . . وأما موسوليني الطاغية الذي كان وراء كل تلك الجرائم فقد مزّقه شعبه وعلّقه على المشنقة من قدميه ورأسه منكس إلى الأرض . . وكان ذلك بعد ثلاث عشرة سنة من استشهاد ضحيته عمر المختار ! وهكذا دخل الرجلان التاريخ من بوابتين مختلفتين ، وأصبحا رمزين متناقضين : رمز للبطولة ورمز للطغيان ! .

صور من التاريخ



معركة بين العرب والطليان في صحراء ليبيا



مشهد حقيقي لعمر المختار في السلاسل قبل إعدامه

والمشهد نفسه في السينما يتقمصه انطوني كوين





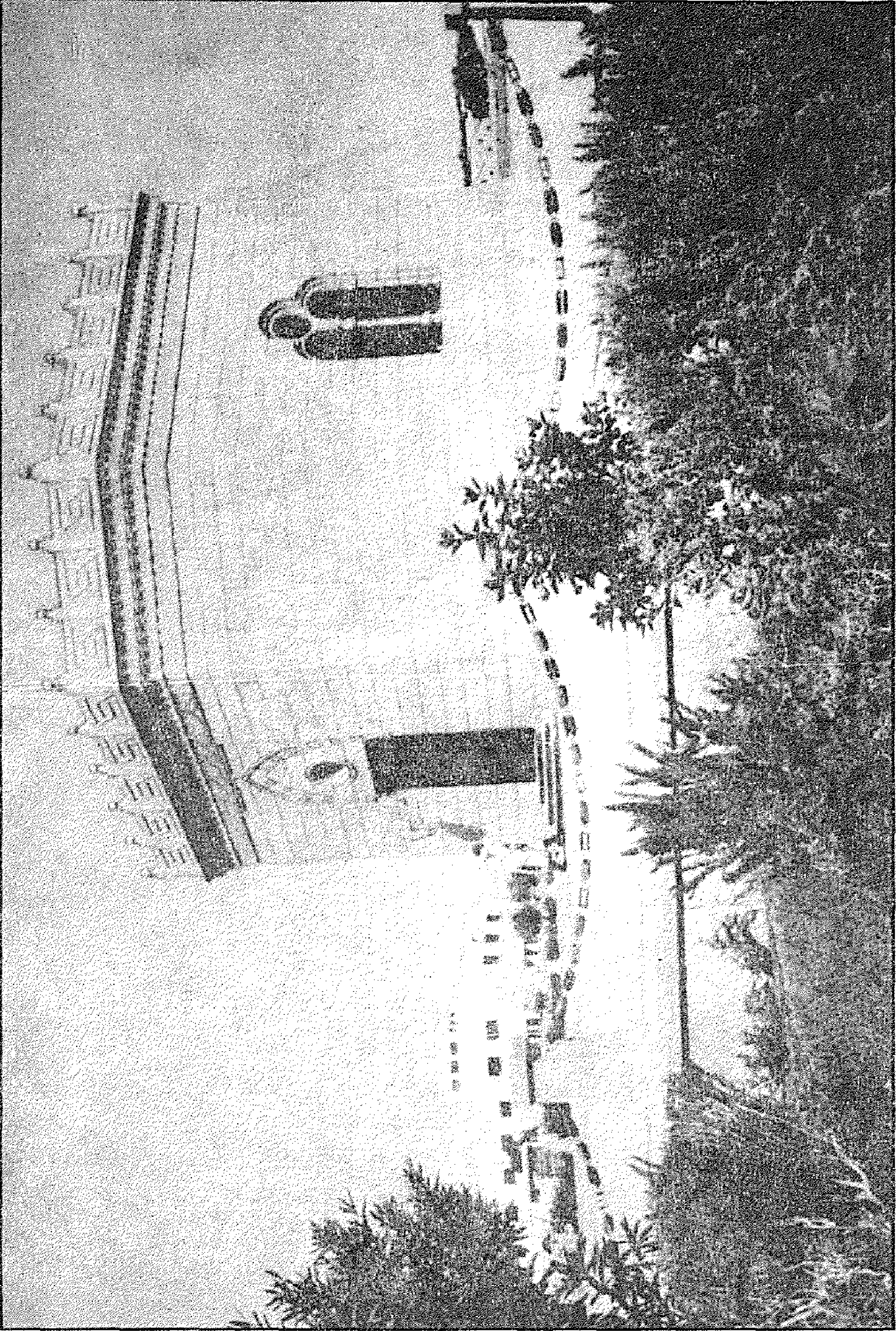
عمر المختار على الطبيعة



وعمر المختار على الشاشة يتقمصه انطوني كوين



عمر المختار



ضريح عمر المختار في بنغازي



معركة على شاطىء بنغازي «بريشة موليناري»



الجنرال كارلو كانيفا أول وال عام ايطالي في ليبيا

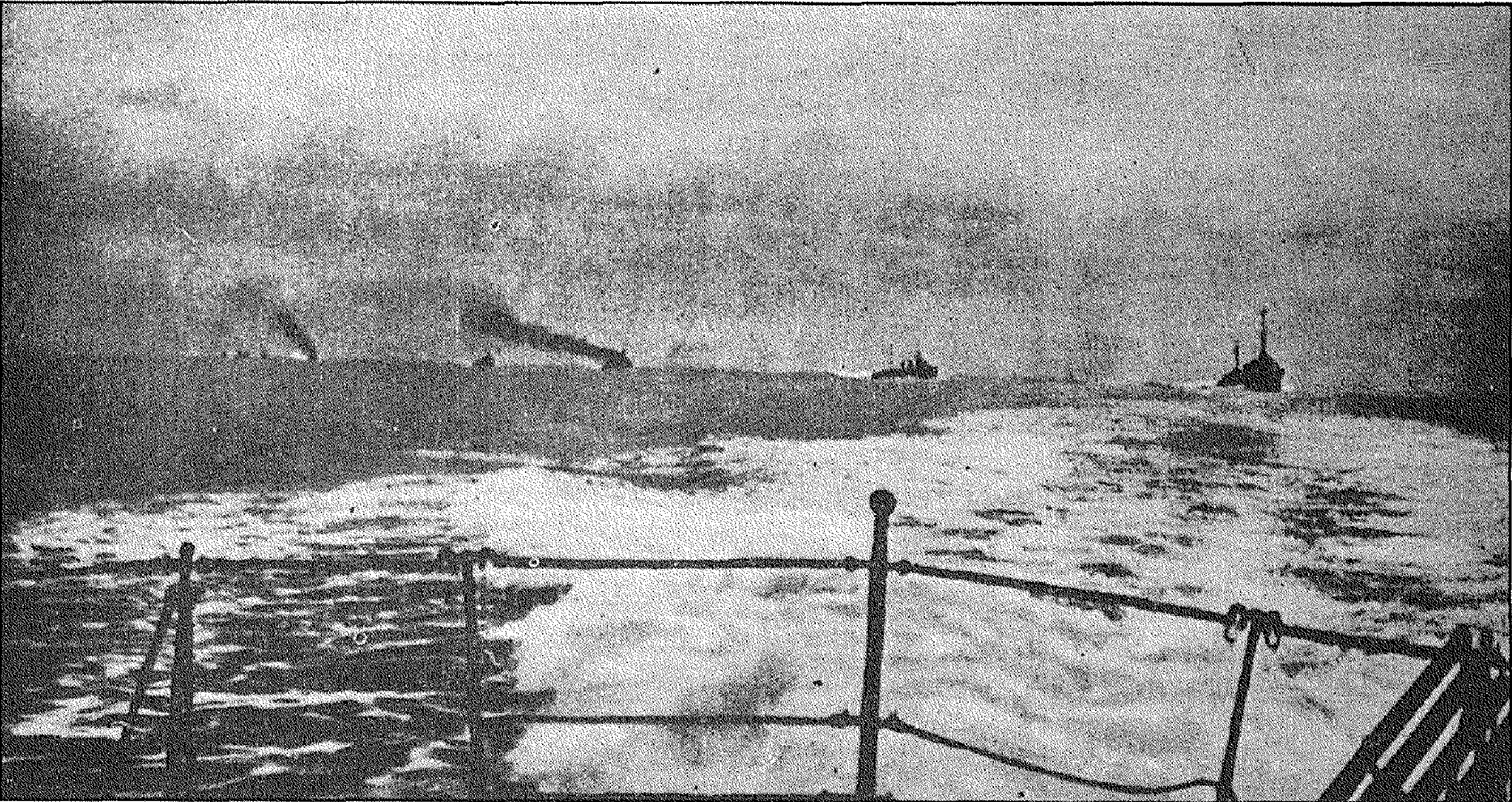


المدفعية الثقيلة تقصف المجاهدين في درنة بقنابلها الفتاكة

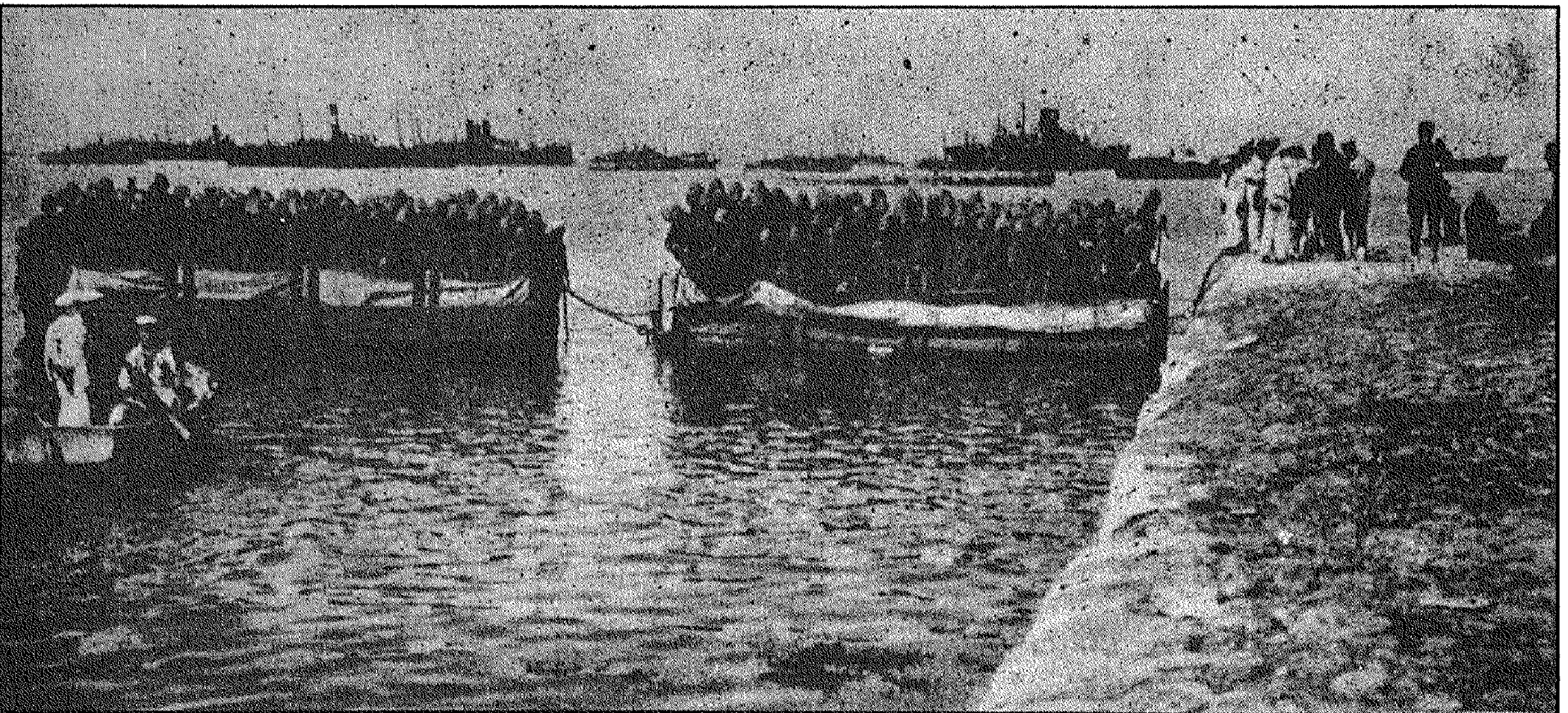
«بريشة بلترامي»



مشهد لنزول القوات الايطالية في بنغازي بريشة آ. بلترامي



الاسطول الايطالي في طريقه إلى ليبيا



مشهد لنزول القوات الايطالية الغازية في طرابلس



مشهد لأول معركة يخوضها البحارة

الايطاليون الغزاة مع المجاهدين الأحرار بعد نزولهم في طرابلس



سوق المشير بطرابلس

الفهرست

يوسف العظمة

شهيد ميسلون

يوم استشهد يوسف العظمة وهو يـذود عن استقلال وطنـه ، قيل إن البطل لم يقتل وإنما انتحر . .

وإذا كان الانتحار في بعض الأحيان جبناً إقرار بالهزيمة ، فقد كان إنتحار يوسف العظمة قمة بطولته وذروة عطائه ، لأنه احتجـاج صارخ على جريمـة دولية اقتـرفت بحق العرب ، ومؤامـرة جماعيـة حيكت على حريتهم واستقلالهم ووحدتهم . .

ولقـد سار إلى المـوت وهو في مجـد الحياة . . فقـد كـان ابن ستـة وثلاثين عاماً . . وكان يزخر بالقوة العارمة ، ويتلألأ بـالجمال الأنيق ، ويفيض بالشباب الـرّيان ، فلم تبق إمـرأة إلاَّ وذرفت عليه الـدموع ، ولم يبق رجل إلاَّ وتمنى لو كان إلى جانبه في ساحة الشرف والخلود . .

وبالدم الزكي الذي بذله بشجاعة لا مثيل لها وسخاء لا حد له ، كتب عنـوان كتاب الاستقـلال الذي تحقق لـوطنـه بعـد ربـع قـرن ،

والوحدة العربية الآتية ما في ذلك ريب . .

فهو شهيد في مقدمة الشهداء ، وكريم فوق الكرماء :

يجـود بالنفس إذا ضنَّ الكـريم بهـا
والجـود بالنفس أقصى غـاية الجـودِ

فتى يسابق الزمن

في سنـة ١٨٨٤ ولد في حي الشـاغور بـدمشق لإبراهيم العـظمـة طفل وسيم وقف أبوه يملأ بصره بطلعته ، ويـدهش لشدة جمـاله ، ثم سمّاه يوسف . . ونشـأ الطفـل ذكياً أريبـاً نابهـاً مجتهداً ، إذا انصـرف أترابه إلى اللعب عكف هو على الدراسة ، وإذا خرج أهله إلى النزهـة انزوى هو في ركن من أركان المنزل ليقرأ كتابـاً . . فكأنـه كان يسـابق الزمن ليملأ بالمجد سني حياته القصيرة! . .

توفي أبوه وهو في سن السادسة فتعهده أخوه عزيز وقام على تربيته وتعليمـه ، ولما أتمَّ دراستـه الابتدائيـة انتقل إلى المـدرسـة الـرشيـديـة العسكـرية التي تؤهـل طلابهـا للإلتحـاق بمـدارس الضبـاط ، ولما أتمَّ دروسه فيها انتقل إلى المدرسـة الإعداديـة العسكريـة في بنايـة المحاكم المدنية ، فقضى فيها سنتين ثم انتقل إلى المدرسة الإعداديـة العسكريـة في الأستانة (استانبول) فأحرز شهادتها وانتقـل إلى المدرسـة الحربيـة في عاصمة الدولة العثمانية .

وفي جميع هذه المدارس ، كان يـوسف العظمـة على جهـد جاهـد ونشاط مستديم ، يحرز قصب السبق على رفقـائه في كـل سنة من سني

دراسته . ولما دخل المدرسة الحربية في استانبول كان لا يزال في السابعة عشرة من عمره ، وكانت تتردد في ذهنه كلمات سمعها في السنة الثانية من دراسته الابتدائية من أستاذ اللغة التركية إذ أخطأ أحد التلامذة في قراءة فرضه ، فقال له الأستاذ موبخاً : «أنتم العرب أحط الشعوب ولا تتعلمون إلاّ بالعصا» ثم انهال عليه ضرباً بعصاه حتى أدمى جبينه . .

ما كان يوسف لينسى هذه الكلمات التي سمعها صغيراً ، ثم وعاها كبيراً ، ثم أبت من بعد أن تبرح ذهنه كلما فكر في وضع بلاده . لقد أدرك وهو في حداثة السن أن الأتراك يستعمرون البلاد العربية ويحاولون القضاء على ثقافتها وتراثها بدءاً من القضاء على لغتها . وأيقن بأن العرب وإن كانت تجمعهم مع الأتراك رابطة الدين ، فإنهم يؤلفون قومية ذات خصائص ومزايا تتفرد بها ، وإن عليهم العمل لإحياء قوميتهم وتوحيد أمتهم واستقلال وطنهم .

ولم يمنعه ذلك من الالتحاق بالمدرسة الحربية التي تعدّ للجيش التركي الضباط الذين يتولون فيه زمام القيادة . بل لعل ذلك هو الذي دفعه إلى انتهاج هذا المسلك . فمن يدري ماذا يخبىء القدر ، ومتى تحتاج أمته إلى أمثاله من الضباط الماهرين والجنود المدربين .

الشاب العربي المتفوق

وتجمعت هذه الحوافز كلها لتجعل من يوسف العظمة الأول في صفه ، ولم يستطع أحد من زملائه الأتراك أو البلقانيين ، أن ينتزع منه هذا التفوق أبداً . وكانت قسماته الصارمة تدل على ما يملأ نفسه

الطموح من عزيمة وعزة ، ولكن نظراته الوديعة تنبىء بما يخبىء خلف تلك الصرامة من طيبة ومحبة . .

وفي سنة ١٩٠٣ غادر يوسف المدرسة الحربية برتبة ملازم أول وهو في التاسعة عشرة من عمره ، وكان من تقاليد هذه المدرسة أن من يحرز فيها الأولية على الطلاب ، يؤهل لأركان الحرب ، فانتقل إلى المعهد الحربي العالي وتخرج فيه سنة ١٩٠٥ برتبة رئيس أركان حرب ، ومنح وسام المعارف الذهبي المعروف باسم «وسام النبوغ» وهو لا يمنح إلاّ لمن يحرز الأولية في المعاهد العليا .

وكان في الجيش التركي عدد من الضباط الألمان يشرفون على تدريبه وتنظيمه ، فألحق يوسف بعد تخرجه بفرقة الفرسان التي تعسكر في استانبول ، ثم عين معاوناً للقائد الألماني الجنرال ديتفورت باشا في لبنان وأستاذاً للدرك اللبناني ، ثم عاد سنة ١٩٠٨ إلى استانبول ليكون مساعداً للمسيو بروتوريوس معلم التعبئة في المعهد الحربي العالي .

وفي هذه السنة كان يوسف العظمة يلتقي بالضباط العرب الذين كانوا يجتمعون سراً ويضعون الخطط الرامية لتحرير العرب من الحكم العثماني ، وإنشاء دولة عربية مستقلة ، تضم جميع أجزاء الوطن العربي . كما كان يجتمع بالضباط الأتراك ويحاول إقناعهم بحق العرب في التحرر والاستقلال ، وكان إعلان الدستور العثماني في تلك السنة قد خلق جواً من الحرية وأثار نوازع التحرر في مختلف الشعوب التي تتألف منها الامبراطورية العثمانية .

حوار على ضفاف البوسفور

وفي ليلة خريفية صافية الأديم ، بينما كان القمر يسكب نوره الفضي على مياه البوسفور ، والسماء ترصّعها ملايين النجوم ، والنسيم الندي أشبه بأنفاس العذارى نقاءً وطيباً . . وكانت الأرض تجاري السماء ببهائها فإن استانبول لا تزال تحتفل بإعلان الدستور ، ولا تزال أصوات البهجة تتلاقى في سمائها بالأسهم النارية الجميلة . .

في تلك الليلة الخريفية الصافية دار على ضفة البوسفور حوار بين يوسف العظمة وزميل له تركي هزيل الجسم قصير القامة في وجهه نعومة ورقة يذكران بنساء الحريم في قصور يلدز التي تتلألأ أنوارها الساطعة وتلقي ظلالاً راقصة على ضفة الخليج . .

وقال الضابط التركي بلهجة ساخرة :

ـ إذن فأنتم تسعون إلى استقلال العرب؟ . .

وقال الضابط العربي في تحدٍ ظاهر :

● أجل . . إننا نسعى لذلك . . ونناضل من أجله . .

ـ وأنتم تفكرون في إنشاء دولة عربية واحدة؟ .

● نعم . . دولة تجمع العرب وتوحد بلادهم جميعاً . .

ـ ألا ترى معي أن هذه الفكرة بعيدة التحقيق . . وإذا كتب لها الفوز فلن يكون ذلك قبل خمسين سنة آتية؟ ! .

● لقد شجعتني ووطدت عقيدتي ، لأننا لم نتخيل ، أنا أو أحد

إخواني ، أن فكرة الدولة العربية الكبرى التي نحلم في إنشائها سيقدر لها النجاح قبل هذا الوقت . . لأن الاستعمار العثماني قد أرهق أمتنا ومزقها وابتلاها بالمصائب والنكبات ، وأشاع فيها كثيراً من النقائص والعلل ، ولا بد لنا من نضال جاهد حتى نتحرر من هذا الإرث الثقيل . .

مثل المناضل والمزارع

تأمل الضابط التركي في وجه الضابط العربي طويلاً ثم قال باستغراب :

ـ وماذا يجديك أنت أن تعمل وتناضل ، وقد تسجن أو تشنق ، وتضيع حياتك ، في سبيل فكرة خيالية إذا ما أثمرت يوماً فلن يتاح لك أنت أن تجني خيرها وتتمتع بثمرها؟ .

● إننا لا نعمل لأنفسنا بل لأولادنا وأحفادنا . . إننا نعمل للأمة العربية . . وهي باقية خالدة ونحن زائلون . . وهل رأيت مزارعاً يتوقف عن الزرع لأن الغراس الذي يتعهده في أرضه الطيبة قد لا يعطي ثماره في حياته ، ولو فعل آباؤه وأجداده ذلك هل كانت الأرض تعطي تلك الأشجار الباسقة والدوحات الظليلة؟! .

ـ عهدي بك أنك مسلم عريق ، فلماذا تريد أن تحرّض العرب علينا ونحن وأنتم مسلمون؟ .

● نحن عرب قبل أن نكون مسلمين ومسيحيين . . وما أظلمكم للإسلام حين تتخذونه ذريعة لاستعباد الناس واستعمار الشعوب . .

وها أنتم تدعون إلى «القومية الطورانية» وتحاولون القضاء على اللغة العربية وإخماد كل شعلة عربية تدعو للبعث والنهوض . . فلماذا لا يحق لنا نحن أن ندعو إلى القومية العربية . . وقوميتنا إنما تدافع عن بقائها وتذود عن حقها ، أما قوميتكم فهي تنشد البغي والعدوان؟ . .

ونظر يوسف العظمة في ساعته ثم ودّع صديقه التركي ، إذ إن إخوانه دعاة الفكرة العربية ينتظرونه في «المنتدى العربي» لتبادل الرأي في توجيه الروح الحماسية التي ألهبت صدور العرب لمناسبة إعلان الدستور، فلقد أعاد هذا النصر الذي أحرزته الحرية على الاستبداد آمال العرب ، وأحيا ثقتهم بأنفسهم ، وضاعف من إيمانهم بمستقبل أمتهم . .

وأنشأ الضابط العربي وهو في طريقه إلى المنتدى ، يستعيد كلمات زميله التركي . . وبدلاً من أن تثير هذه الكلمات غيظه وحقده كانت تثير فيه الأمل والرجاء! . .

خمسون سنة! . . إن الزارع وهو فرد، لا يحصد زرعه إلاَّ مرة في العام . . فما ضرهم ، وهم أمة ، لو حصدوا البذور التي يزرعونها الآن بعد خمسين من الأعوام . . وما حجم خمسين سنة من حياة أمة وفي عمر الزمان؟! .

ثورة القومية العربية

أرسل يوسف العظمة في السنة التالية إلى بلاد الروم إيلي الشرقية ، رئيساً لأركان الحرب في الفرقة التي يقودها حلمي باشا في

غاليسـا ، فأبدى من صنوف المهارة وضروب البراعة في تعبئـة الجيش وميـادين الـرمـايـة والإشـراف بنفسـه عـلى تـدريب الجنـد وتنـظيمهم وتـوجيههم ، ما جعله في مصـاف كبار القـادة العسكريـين ، فـاختـير للذهـاب إلى ألمانيـا على رأس فـرقة من الضبـاط الأتراك للتمـرن على الفنـون العسكريـة العليا ، فبقي فيهـا سنتـين كـان خـلالهـما مـوضـع إعجاب القيادة الألمـانية ، ثم عـاد إلى استانبـول في سنة ١٩١١ فعـين ملحقاً عسكرياً في المفوضية العثمانية في القاهرة ، ومعاوناً لرؤوف باشا المفوض السامي العثماني في مصر. ولكن ما كادت نذر الحرب العالميـة الأولى تبـدو في الأفق السياسي الـدولي ، حتى نقل إلى البلقـان رئيسـاً للفرقة الخامسة والعشـرين أركان حـرب في بلغاريـا ، ثم رئيساً لفـرقة أركان الحرب في الفيلق الثامن برومـانيا ، ثم عـاد إلى الأستانـة ليرافق وزير الحربيـة العثمانيـة أنور بـاشا في رحـلاته التفتيشيـة في الأناضـول وسورية والعراق وقفقاسيا .

وكانت الحركة القومية العربية قد انتقلت من عهد التعبئة الروحية إلى عهـد التعبئة المـادية ، ومن طـور الاعداد والتنبيـه إلى طور العمـل والتنفيـذ ، ولجأت السلطات العثمـانية إلى البـطش والإرهـاب لإخماد الـروح القوميـة لـدى العـرب، ونصبت المشـانق لأحـرارهـم في دمشق وبيروت ، وأعلنت الثورة العربية في مكـة برئـاسة الشـريف حسين في العاشر من حزيـران (يونيـو) ١٩١٦، وبدأ ضبـاط العرب وأحـرارهم ومتطوعوهـم يفدون إلى مكة قاطعين الصحـارى والجبال والبحـار ، في عشرة أيام أو عشرين يوماً أو ثلاثين يوماً وأحياناً في مائة يوم . . وكـان بعضهم يأتي من القفقاس أو إيران أو الهند ، كما جاء آخرون من مصر

والسـودان ، وقد مثلت الجمعيـات العربيـة دوراً رئيسـاً في تنـظيمـات الثورة ومدّها بالكثيرين من القادة والأجناد .

وكان يوسف العظمة أحد أولئك الضباط الأحرار الـذين فروا من الجيش التركي ، إلاّ أنه لم يلتحق بجيش الثورة في مكة ، وإنما اختفى في أحد أحياء دمشق إنتظاراً لاشتعال الثورة في سوريـة ، وكان يعمـل مع فريق من إخوانه لتهيئة النفوس لهذه الثورة وتجنيد المواطنين لها .

الحلفاء ينكثون بالعهود

وكـانت دول الحلفـاء أثنـاء الحـرب التي خـاضتهـا ضـد الـدولـة العثمانية وألمانيا قـد وعدت زعـماء الثورة العـربية بمنـح العرب الحـرية والاستقـلال والوحـدة ، ولكنها كـانت تعدّ في الخفـاء مؤامرة لاقتسـام أملاك الامبراطورية العثمانية ، وتجزئة الـوطن العربي ، وتـوزيعه بـين انكلترا التي يكون لها فلسطين وشـرقي الأردن والعراق ، وفـرنسا التي يكون لها سورية ولبنان . فلما بدأت هذه المؤامرة تتكشف للعيان ، ثار العرب على الاستعمار الجديد كما ثاروا على الاستعمـار العثماني ، ثـار العرب في العراق عـلى الإنكليز سنـة ١٩٢٠ وثارت مصر عليهم سنـة ١٩١٩ ، وثار المغرب على اسبانية وفرنسا سنة ١٩٢٠ ، وثـارت تونس على فرنسـا سنة ١٩٢١ وكـذلك ثـارت ليبيا عـلى الاستعمار الايـطالي بقيادة عمر المختار .

أما في سورية فقد رأى زعماء العرب أن ينشئـوا فيها دولـة عربيـة تكون نواة الوحدة العربية الشاملة ، وبدأوا منذ الأيام الأولى يناضلون ضد خصومهم وحلفائهم على السواء .

وبعد استيلاء الجيش العربي على العقبة خفف الإنكليز من ميلهم إلى مساندة الثورة ، واتجهت خطتهم إلى إبقاء هذا الجيش في مواقعه الراهنة بالحجاز ، ولكن رجال الثورة رفضوا ذلك ، وأصروا على متابعة الزحف إلى الشمال ، واصطدموا بالضابطين الإنكليزيين لورنس وجويس اللذين كانا يحاولان توجيه الجيش العربي نحو الجنوب ، ولم توافق القيادة الحليفة على مطلب قيادة الثورة إلاَّ عندما أيقنت بأن رفضها ذلك سيؤدي إلى تمرد الجيش العربي . ومن ثم بدأ بين فيصل بن الحسين قائد هذا الجيش ، والجنرال اللنبي قائد الجيش البريطاني، تنافس شديد في الوصول إلى سورية ، وكان كل منهما يود أن يسبق الآخر في الدخول إلى دمشق ، إلاَّ أن الجيش العربي كان الأسرع فدخلها في أول تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩١٨، ورفعت الراية العربية فوق مباني الحكومة ، واندحر العثمانيون متراجعين إلى الأناضول ، ولم يمض شهر واحد حتى تحررت سورية كلها من الحكم العثماني بعد احتلال دام زهاء أربعة قرون .

وأراد زعماء الحركة العربية أن يضعوا الحلفاء أمام الأمر الواقع ، فأعلنوا في مؤتمر عام تمثلت فيه جميع أنحاء سورية وفلسطين ولبنان والأردن ، إنشاء مملكة دستورية مستقلة تضم أجزاء سورية الطبيعية ويتولى المُلْك فيها فيصل بن الحسين ، وكانت هذه الدولة أول دولة عربية وطنية في العصر الحديث قامت على دعائم القومية واحتشد فيها العديد من الكفايات والمواهب من كل قطر عربي . وبعد حكومة انتقالية لم تعمر طويلاً وكانت قد سميت وزارة الشيوخ المعتدلين وأسندت خلالها ليوسف العظمة رئاسة أركان الجيش ، تألفت حكومة

برئاسة هاشم الأتاسي وعهد بوزارة الحربية فيها إلى يوسف العظمة .

عيدنا الوحيد هو الاستقلال

ومرة أخرى، كما في طفولته وفي شبابه ، دخل يوسف العظمة في سباق جديد مع الزمن لإنشاء الجيش وتدريبه وتنظيمه وتسليحه ليكون قادراً على الدفاع عن الوطن وعن العروبة ، ولم يكن الحصول على السلاح بالأمر الممكن لأن جميع الدول كانت مشتركة في المؤامرة على تجزئة الوطن العربي واقتسامه واحتلاله ، فأخذ يعمل على إصلاح الأسلحة القديمة التي تركها الجيش العثماني وخربتها فلول الألمان عند انسحابها من سورية في أواخر الحرب العالمية .

وجاء يوسف العظمة ذات يوم إلى وزارة الحربية فشاهد الضباط يرفلون في ثيابهم الجديدة ، وقد بدت على وجوههم علائم البهجة ، واصطفوا لاستقباله وتحيته ، فاستغرب ذلك وسألهم عما يجري ، فأجابوه بأن اليوم هو يوم العيد وقد جاءوا لتقديم تهانيهم وتمنياتهم له لمناسبة هذا اليوم السعيد ، فقطب جبينه وأظلمت أساريره ، وقال لهم غاضباً :

«علام الفرح والبشرى ، وعلام التهنئة والتبريك ، وهل لشعب لم ينل تمام حقه ، وكل سيادته ، من عيد؟ ألا أن لنا عيداً واحداً ، هو العيد الذي يُعترف فيه باستقلالنا وحريتنا ونطمئن إلى مستقبل العروبة ، أمّا ونحن على ما نحن عليه من حال قلق ووضع مضطرب لا يعلم إلاّ الله مصيره ، فلا يحق لنا أن يهنىء بعضنا بعضاً بعيد هو في الحقيقة ليس عيداً» .

والواقع أن دول الحلفاء لم تقبل التحدي الذي واجهها به زعماء الثورة العربية بإنشاء دولة عربية مستقلة تضم أجزاء سورية الطبيعية ، وبدأت فرنسا التي كانت سورية ولبنان حصتها من غنيمة التركة العثمانية ، باحتلال لبنان والسواحل السورية والاستعداد للزحف على دمشق ، وكان يقود جيشها الجنرال غورو كبير قادتها العسكريين . وكتبت جريدة «الطان» الفرنسية : «أن فرنسا يجب أن تكون في دمشق وحلب كما أن انكلترا في بغداد والبصرة» فدخول الجيش الفرنسي إلى سورية كان أمراً مدبّراً مقضياً ، ومتفقاً عليه بين فرنسا وانكلترا .

يوسف العظمة يدعو للمقاومة

عصفت الحيرة بالحكومة العربية المستقلة في دمشق ، واستولى القلق على أفراد الشعب . . واضطرب الملك فيصل أمام الخيبات المتوالية التي كان يُمنى بها بعد أن أجزل الحلفاء له الوعود والعهود . . إلاّ أنه لم يفقد الأمل حتى اللحظات الأخيرة بأن البريطانيين لن يسمحوا للفرنسيين بالإستيلاء على سورية وإنهاء «الحكم الشريفي» .

ولكن يوسف العظمة لم يدع للحيرة والاضطراب سبيلاً إلى نفسه ، إذ كان في رأيه ، منذ البدء ، أن يقاتل السوريون دفاعاً عن الاستقلال الذي بذل العرب في سبيله دمهم بسخاء . .

وكان القائد الباسل قد دأب منذ تولي وزارة الحربية ، على تقوية الجيش العربي وتعزيزه وتجهيزه بالسلاح ، ولكن ما كاد ناقوس الخطر يدق حتى قال ياسين الهاشمي وهو قائد منطقة دمشق ، انه لا يستطيع النهوض بأعباء الدفاع عن هذه المنطقة ، لأن الجيش أضعف من

القيام بهذه المهمة . .

واجتمع على إثر ذلك مجلس الوزراء ليستمع إلى تقرير الهاشمي ، واعترف يوسف العظمة بأن الجيش لا يزال ضعيفاً غير قادر على النهوض بالأعباء الجسام ، ولكنه أصر على ضرورة القتال ، وقال إن ذلك واجب لثلاثة أسباب: أولها أن الشعور الوطني يأبى على المرء أن يسلم بلاده للغزاة دون أن يستنفد في دفع العدوان قواه ، وثانيها أن الشعب يلحّ في طلب الدفاع عن وطنه ويعلن التفافه حول جيشه والسير معه نحو هذا الهدف المقدس وهذا التأييد الشعبي قوة معنوية لا يستهان بها . وثالث تلك الأسباب أن القتال إذا طال واستطاعت البلاد أن تنال من القوات الغازية بقواها النظامية والشعبية بعض المنال ، فإن ذلك يفتح المجال للمفاوضة ، ويعزز موقف المفاوض السوري فيحرز شروطاً أفضل من تلك التي ستفرض على البلاد في حال افتتاحها دون أية مقاومة . .

وبعد اختلاف في الرأي وتضارب في الأهداف ، قرر مجلس الوزراء أن يعقد قادة الجيش مجلساً عسكرياً برئاسة الملك فيصل لاتخاذ قرار حاسم في هذا الشأن . . وقد تخلف يوسف العظمة عن حضور هذا الاجتماع تجنباً للصدام بينه وبين المعارضين لمقاومة الاحتلال الفرنسي لعجز القوة السورية عن القيام بذلك .

ومرة أخرى تضاربت الأجوبة واختلفت الآراء ، ثم تقرر أن في استطاعة الجيش العربي بما يملك من قوى واستعداد ، وبأحكام مواقعه الحربية وخططه في القتال ، وباشتراك بقية القوى التي يؤلفها

المتطوعون والبدو والأهالي مع أسلحتها الخاصة، أن يقاوم بضعة أسابيع يتاح للحكومة خلالها كسب انتصار سياسي . أما إذا لم يتح للحكومة أن تستخدم هذه القوى جميعاً وأن تستعد للقتال استعداداً وافياً يقترن بحسن التوجيه والتنظيم ، فإن جيشها يعجز عن مقاومة الغزاة ساعة واحدة . .

وكان الجيش العربي، أو جيش الثورة العربية الذي يتألف من عشرة آلاف جندي ، قد حلّ من قبل ديوان الشورى الحربي بدمشق الذي يرأسه ياسين الهاشمي ، على أن يُعاد تعيين الأكفاء من ضباطه مجدداً بحسب كفاياتهم والحاجة إليهم ، لأن ظروف الثورة التي رفّعت بعض الضباط إلى مراتب عالية تختلف عن الظروف السلمية الجديدة . وقد تألف جيش جديد بلغ عدد أفراده ثمانية آلاف جندي موزعين في دمشق وحلب ودرعا، وكانت الأسلحة التي يملكها تتألف من ١٥ ألف بندقية مختلفة الطراز لكل منها ٢٥٠ خرطوشة فقط، و٥٤ مدفعاً لكل منها ٥٠ قنبلة . وقد تألف هذا الجيش من جنود متطوعين ومن ضباط عرب تخلفوا عن الجيش العثماني أو كانوا في الأسر.

انذار الجنرال غورو

وبينما كان المسؤولون يتشاورون في هذا الأمر بقلق واضطراب ، وكان الملك فيصل يعلق آماله على المفاوضات السياسية ونتائج مؤتمر الصلح ، إذا بالجنرال «غورو» يرفض كل مفاوضة أو انتظار ، ويوجه إلى الملك فيصل في ١٤ تموز (يوليه) سنة ١٩٢٠ إنذاراً يتضمن البنود الأربعة الآتية :

١ ـ أن ترضى الحكومة العربية بالإنتداب الفرنسي بلا قيد ولا شرط .

٢ ـ أن تعيد الجيش السوري إلى ما كان عليه في شهر شباط (فبراير).

٣ ـ أن ترضى بالتعامل بأوراق النقد التي أصدرها بنك سورية ولبنان .

٤ ـ أن لا تمانع في احتلال محطات خطوط رياق وحلب وبعلبك وحمص وحماه إحتلالاً عسكرياً مع احتلال مدينة حلب نفسها . .

ويشترط الجنرال تنفيذ هذه البنود قبل الثامن عشر من تموز (يوليو)، وسوف تبدأ جيوشه خلال ذلك استعدادها للزحف من لبنان .

وتوصي الحليفة بريطانيا الملك فيصل بواسطة معتمدها في دمشق بقبول الشروط . . ويلح المعتمد البريطاني الكولونيل ايستون على فيصل بذلك مرات عدة . . مما يحمل الحكومة على انتداب وفد يسافر إلى حيفا للوقوف على رأي اللورد «اللنبي» لأن الملك فيصل كان لا يزال يعتقد بأن اللنبي سينتصر له ويوطد مركزه وثباته في وجه قوات الاحتلال الفرنسي . وإذا بالوفد يبرق بوجوب الاتفاق ، ثم يعود حاملاً إلى الملك كتاباً بهذا المعنى يقضي على كل رجاء ، وينصح بالإستسلام «صيانة لآثار المدينة من الخراب»! .

ولكي يتأكد الملك من حقيقة الموقف العسكري أرسل هيئة من الخبراء لفحص التحصينات ودرس إمكانات الجيش، وكان أبرز

أعضـاء هذه الهيئـة الأمير زيـد وياسـين الهاشمي ، فـذهبت إلى مجدل عنجـر وهو المـوقع المنيـع والمحصن تحصيناً فنيـاً ، واشـرأبت الأعنـاق واختلجت الأفئدة ، وساد القلق نفوس المواطنين .

غضبة الشعب لقبول الإنذار

ولما عاد الوفد اصطحب معه تحسين الفقير قائد الفـرقة المـرابطة ، وتكلم ياسين الهاشمي باسم الوفد فقال :

ـ إن جيش جـلالتكم لا يستـطيـع الثبـات فنيـاً سـوى بضـع ساعات .

ووجـد فيصل نفسـه أمام الأمـر الواقـع ، فأبـرق إلى الجنـرال في الثامن عشر من تموز (يوليه) مبلغاً إياه قبوله ما جاء في الانـذار آملاً في إنقـاذ دمشق من الاحتلال . . ولكن الجنـرال لم يلبث حتى أجـاب في اليوم التالي بصلف الفاتح المتعسف بأنه ليس المقصـود من مذكـرة ١٤ تموز (يوليه) قبولها ، بل تنفيذ أحكامها بأعمـال رسمية تجـري قبل ١٨ تموز (يوليه) على أن يتم تنفيذ ما ورد فيهـا قبل نهايـة الشهر ، وبمـا أنه قد مدد الأجل ٢٤ ساعة إجابة لطلب الملك فإنه قـد يكون محقـاً إذا لم يمدده مرة أخرى قبل أن يتلقى نبـأ القبول من الملك رسميـاً وفعلياً . . وأضـاف الجنرال قـائـلاً : « ولكني لكي أدع لكم وقتـاً كـافيـاً لقبـول المـطالب وتنفيذهـا فقـد قـررت أن لا تتحـرك جيـوشي قبـل ٢١ تمـوز (يوليه) عند منتصف الليل. . . » .

وكـانت الحكومـة بعد أن وافقت عـلى قبول الانـذار في جلسـة لم

يحضـرها يـوسف العظمـة وفي مذكـرة لم يوقعهـا ، قـد بـدأت بتنفيـذ أحكامه ، فأصدرت أمرها إلى قطاعات الجيش العربي بالإنسحاب من جميع المواقع والحصون التي كان معسكراً فيها ، والانتقال إلى العاصمة لتسريحها ، وقد بدأ تسريح الجنود فعلاً ، وسرح الكثيرون من المـواقع التي يعسكرون فيها . وقد أصدر يوسف العظمة الأمر بتسريح الجيش السوري وهو في أشـد حالات الاضـطراب ، كما تلقـاه الضباط، وهـم في مثل حالتـه وذهولـه ، فلم يخطر لهم أن يتخـذوا التدابـير التي تتخذ عادة في مثل هذه الحالـة ، فخرج الجنـود من ثكناتهم بـأسلحتهم وهم يهتفون ضد الحكومة قائلين إنها سلّمت البلاد إلى الأجانب ، ثم ذهبوا إلى القلعـة مع جماهير الشعب السـاخـطة لـلإستيـلاء عـلى الأسلحـة والذخائر ، وأدى ذلك إلى انتشار الفوضى والاضطراب ووقوع المئـات من القتلى والجرحى . فضاعف ذلك من هياج الشعب واستياء الهيئات الوطنية من موافقة الملك على إنذار غورو وعلى تسريح الجيش .

وكـان الاجتماع الـذي عقد بـين الملك وممثـلي الشعب اجتمـاعـاً صاخباً لم يرتح إليه ، فآنفضّ دون الوصول إلى نتيجة إيجابيـة ، ومضى الملك ليأمر الحكـومة بتعـطيل المؤتمـر السوري الـذي كان بمثـابة مجلس نيابي شهرين كاملين . ثم عقد مجلس الوزراء اجتماعاً وضع فيـه نص مذكرة جوابية للجنرال غورو بقبول إنذاره وكل مطالبـه ختمت بالجملة التالية : « ولن يـطول الوقت حتى تـدرك حكومـة الجمهوريـة أن هذه الأزمة الشديدة التي اجتزنـاها لم تكن سـوى نتيجة سـوء تفاهم واسـع النـطاق بينها وبـين الشعب السوري الـذي قاتـل جنبـاً إلى جنب مـع الحلفاء وضحى في سبيلهم» .

المستعمرون يزحفون على دمشق

وفي هـذه العاصفـة التي استولت عـلى دمشق ، وعـلى الـرغم من تضحيات الحكومة ومواجهتها الصابرة لغضب الشعب ، وردت الأنباء في ٢١ تموز (يوليـه) بأن الجيش الهـاجم قد بـدأ زحفه عـلى العاصمـة السورية . . ويدهش الملك فيصل لـذلك ويحتـج فيجيب الجنرال بـأن بـرقية الملك بتنفيـذ الشروط المـطلوبة منـه ، قـد وصلت بعـد الـوقت المحدد ، بسبب انقطاع أسلاك البرق ، وأن مسؤولية قطع العصـابات السـورية لأسـلاك البـرق تقـع عـلى حكـومـة دمشق ، وقـد بـات من الصعب الآن تـوقيف الجيوش الـزاحفة ، وإن الـزحف سيستمـر حتى يصل الجيش إلى مقابل دمشق ، فإذا لم يجد مقاومـة ، وإذا تم احتلال حلب والمحطات المذكورة في الشروط دون مقاومة ، فإن الجيش يدخل دمشق . .

وكان الجنرال غوابيه هو الذي يقود الحملة الفرنسية وقد روى أنه التقى في وادي الحرير بسيارة آتية من جهة دمشق فيها الكولونيل كوس من البعثة الفرنسية الموفدة لدى الأمير فيصل مع عدة ضباط سوريين ، وكان الكولونيل كـوس مصفر الـوجه من شـدة الهياج فقـال لغوابيـه : «مـاذا تعملون أيها القـائد؟ إنكم احتللتم الأراضي السـوريـة مـع أن الأمير فيصل أذعن لجميع مطالب المفوض السامي ،غير أن غوابيه أجابه ببسـاطة : « لـديّ أمر من الجنـرال غورو بـالزحف عـلى دمشق ، وأنا أقـوم بتنفيذ مهمـة عسكريـة محددة تحـديـداً واضحـاً ، أمـا القضـايـا السياسية فعليك أن تراجـع بشأنها من بقي خلفنـا » ثم واصل غـوابيه

سيـره إلى الأمام في حـين انطلقت سيـارة الكولـونيل كـوس من خلف الرتل إلى عاليه لمقابلة الجنرال غورو .

وتأتي بعد ذلك أنباء جديدة بـأن شرذمـة من الجند السـوري التي تخلّفت لجمع الأسلحة والذخائر من السكان والعودة بها إلى دمشق قـد وقعت في قبضـة الجيش الـزاحف ، فـأسـرهـا واعتبـرهـا من جيـوش الأعداء لا من جيوش الحلفاء . .

واحتج فيصل من جديد ، ورفض غورو الاحتجاج ، وكتب إليـه يطلب منه التوقيع على شروط جديدة بالإضافة إلى الشروط التي وردت في الانذار .

أدرك الملك فيصل أن محاولاته لن تجدي شيئاً ، وأن الجنرال مصرّ على أن يدخل دمشق فاتحاً فالتفت إلى مستشاريه وقال آسفاً :

ـ لقد كان يوسف العظمة على حق ! .

وشعر يوسف العظمة بأن الملك يعود إلى رأيـه في ضرورة الـدفاع عن البـلاد ، ولكن بعـد أن سُـرح الجيش السـوري ونهبت أسلحتـه وذخائره ، وتخلى عن مواقعه وتحصيناتـه . فدعـا رجال الـدولة وزعـماء الشعب إلى الاجتماع في دار المشيرية ، وأطلعهم على حقيقة الموقف ، وصرح بأن الحكومة قررت إعلان الحرب دفاعاً عن استقلال البـلاد ، فقال :

ـ إن العرب قاتلوا في صفوف الحلفاء وكان لقتالهم وزنـه وأثره في معركة الشرق ، ولم يكن للعرب من باعث يدفعهم إلى خوض غمرات

الحـرب سوى التعلق بحـريتهم والنضال في سبيـل استقـلالهم ، وهـا نحن نرانا مضطرين إلى مقاتلة حلفـاء الأمس بعد أن نقضـوا عهودهم وأرسلوا إلينـا الجيوش الغـازية بـدلاً من الحق المغصـوب والاستقـلال الموعود . .

الاستعداد للقتال

ورحبت دمشق بالنضال في سبيل الاستقلال . . وأشرق وجهها . . وأقبـل بعض المتطوعـين من المـدن السـوريـة إلى ميسلون حيث أنشيء مركز لتهيئـة المتطوعـين . وبادر يـوسف العظمـة إلى الإبقاء عـلى ما لم يكن قد تم تسريحه من قوى الجيش ، وأمـر القوى المنسحبـة من مجدل عنجر بالتـوقف في المواقـع التي وصلت إليها . وأسـرعت قيادة الـدرك والجيش فجمعت فريقاً من الجنود كانوا قد سـرحوا ، وأرسلت كـل ما يمكن جمعه من قوى إلى ميسلون للدفـاع فيها عن دمشق ، ولكن كـان من الواضح أن القوة العربيـة المنظمـة كانت قـد تضعضعت ، ولم يبق هناك متسع لجمع شملها وإعـادة تنظيمهـا ، وكان كـل ما استـطاعت السلطات السورية حشـده في ميسلون جيشاً من ألفي جنـدي لا يملك من الـذخيـرة الحـربيـة إلاَّ اليسـير ، وألفـاً من المتـطوعـين المسلحـين بالسيوف والعصي والمسدسات !

وفي صباح ٢٣ تموز (يوليه) اجتمعت الوزارة برئاسة الملك في قصره ، فأعلن ساطـع الحصري وزيـر المعارف مـا قالـه ليلاً لجـلالة الملك عن اجتماعه بالجنرال غورو والشروط التعسفية الجديدة التي قدمها الجنرال والتي تدل على إصراره على احتلال دمشق ، فرأى الوزراء أن حراجـة

الموقف تستدعي تأليف وزارة عسكرية أو مدنية برئاسة عسكري ، فاتجهت الآراء إلى الفريق رضا الركابي، فاعتذر هذا عن تأليف الوزارة وقال معرّضاً بيوسف العظمة :

ـ إن الحالة الحاضرة أصبحت وخيمة العاقبة ، نتيجة للتهور الذي سلكه الشبان المهووسون ، فعلى هؤلاء أن يتولوا الحكم ويتحملوا تبعة ما بدأوه .

فساد الحاضرين الوجوم ، واستدعى الملك ياسين الهاشمي ، فحضر على الفور ، ولما كلفه بتأليف وزارة عسكرية اعتذر عن ذلك ولكنه أبدى استعداده للدفاع عن النقطة التي تعين له عسكرياً أو بأمر من الملك ، فاستشاط يوسف العظمة غيظاً وخاطب ياسين الهاشمي بقوله :

ـ أنت يا باشا بلبلت الأفكار وفضحت أسرار الجيش بما نقلته إلى بعض الوزراء عن عتاده ، مع أنك أنت المسؤول عن تموينه ، فلا يليق بك التهرب من الحكم بعد أن أوصلتنا ببياناتك إلى الأزمة الحاضرة .

فرد عليه الهاشمي بقوله :

ـ إني اطلعت الوزارة على حقيقة حالة ميرة الجيش ، لكي لا تنخدع بأقوالك وتسوق البلاد إلى حرب لا أمل لها في كسبها ! أما مسؤولية التقصير فتقع على عاتق الذين خلفوني في رئاسة الميرة وتولوا شؤون الدفاع .

فأجاب الملك فيصل :

ـ ولكنك يا ياسين كنت رئيساً للميرة مدة عشرة أشهر ، فلماذا لم تعمل على تدارك الأسلحة اللازمة؟ .

وحينئذٍ تقدم يوسف العظمة بحماسته المعروفة فحيا الملك تحية عسكرية وقال :

ـ إني مستعد يا صاحب الجلالة للدفاع عن الوطن بكل قواي حتى النفس الأخير ، إذا أوليتموني ثقتكم! .

فشكر له الملك وطنيته وإخلاصه ، ودعا له بالتوفيق ، وعينه نائباً للقائد العام للقوات السورية ، باعتبار أن الملك هو القائد العام . واكتفى الملك بهذا الاجراء فأبقى على الوزارة القائمة .

وداعا يا ليلى

وكان ليل الثالث والعشرين من تموز (يوليه) ١٩٢٠ آخر موعد عينه الجنرال للدخول إلى دمشق ، فودع يوسف العظمة زوجته وابنته ليلى وأخذ يستعد للانتقال إلى ميسلون .

وسألته ليلى ببراءة :

ـ إلى أين أنت ذاهب يا أبي؟ . .

فنظر إليها طويلاً ثم أجاب بكلمات لم تفهم الطفلة الوديعة منها شيئاً ولكنها فهمتها جيداً بعد أن كبرت :

ـ أنا ذاهب إلى المستقبل المشرق . . مستقبل سورية ومستقبل

العروبة! .

يقول ساطع الحصري الذي كان يتولى وزارة المعارف : « وبعد العشاء جاء يوسف العظمة يودعنا ، قائلاً بأنه سيتوجه إلى الجبهة ، ولكنه قبل أن يغادرنا انتحى بي زاوية من الغرفة وقال لي :

ـ أنا ذاهب! إني أترك ليلى أمانة لديكم ، أرجوكم أن لا تنسوها .

وليلى المقصودة في كلامه هذا ، هي ابنته الوحيدة التي كانت قد جاءت من الأستانة مع أمها قبل أسبوعين من تاريخ تلك الحوادث ، أي قبيل بدء الزوبعة التي كانت تجرفنا في ذلك الحين .

ولقد أدركت حالاً ما كان يقصده من كلامه هذا : إنه يتوجه نحو الجبهة موطداً العزم على أن لا يعود منها أبداً .

ولم أشأ ـ في هذا المقام الرهيب ـ أن أبدي له أيّ رأي كان ، بل قلت له بهدوء تام : «تستطيع أن تطمئن إلى ذلك كل الاطمئنان » .

ومضى القائد فعسكر بجيشه في أرض هادئة بميسلون يسيل فيها جدول ناعم تحف بضفتيه أشجار الصفصاف وحشائش برية ، وعلى مقربة من الطريق خرائب قديمة تشرف على المكان فتضفي عليه مهابة التاريخ .

وبات يوسف العظمة تلك الليلة مع جنوده تحت السماء المقمرة ، وفي جوار بضع شجيرات ظلت تتهامس طوال الليل عن سر البطل الذي ساهر النجوم حتى شحبت وتضاءلت وتلاشت .

وعندما أفاق الصبح ، وأشرقت شمس الرابع والعشرين من تموز (يوليه) ، كان للقائد البطل خطة وهدف معينان ، فأما الخطة العسكرية فقد أخفقت لعوامل خارجة عن إرادته ، وأما الهدف القومي فقد حققه باستشهاده في ساحة الكفاح من أجل شعبه ووطنه .

لقد كان يوسف العظمة يعلم كل العلم أنه يخوض معركة خاسرة ، غير متكافئة ، لا مجال للمقارنة فيها بين الفريقين المتقاتلين ، قوةً وعدداً ، وسلاحاً وتنظيماً ، ولكنه أبى أن يسجل التاريخ أن المستعمر الفرنسي قد دخل دمشق دون مقاومة من أبنائها ، فكان جسده وجسد إخوانه في السلاح والكفاح الثمن الذي دفعه بكرامة وشجاعة وسخاء ، لإنقاذ شرف أمته وجلال تاريخها .

وكان جيشه يتألف من ٤٠٠ جندي من المشاة و٢٠٠ هجان ومعهم عدد من المتطوعين المدنيين غير المدربين ومقاتلون من الجيش العربي المسرح وقسم من فصائل البدو ، وقد راوح عددهم جميعاً بين أربعة آلاف وخمسة آلاف مقاتل ، أما الفرقة الفرنسية الثالثة بقيادة الجنرال ماريانا غوابيه فكانت تتألف من أربعة ألوية مشاة وكتيبة خيالة السباهية المراكشية وسبع بطاريات مدفعية وسرية دبابات وسرية هندسة وفيصل رشاش آلي منقول بالسيارات وسرب طائرات . فهل شهد التاريخ قبل وقعة ميسلون ، شعباً بلا جيش ولا سلاح يزحف مدفوعاً بقوة إيمانه وعزة نفسه ، لصد عدو حشد لاحتلال بلاده جيشاً قوياً مسلحاً بطائراته ومدفعيته ودباباته ومجهز بمختلف الأسلحة والذخائر والامدادات؟! .

تقـدم يوسف العـظمة إلى الخط الأمـامي لجبهة القتـال ، لا يكاد يحجبه عن أنظار العدو إلَّا صخرة يظهر من ورائهـا جذعـه ، وكان لا يبعـد عن الجيش الفرنسي أكـثر من مئات الأمتـار ، ومن هـذا المكـان شرع يدير معركة يائسة ويقاتل عدواً يفوقه عـدداً وعدةً ، وأخـذ يلقي الحمـاسة في قلوب المتـطوعين والجنـود النظاميـين للدفـاع عن الـوطن المقدس ، وإذا برصاصة تصيبه في ذراعه فجـاء إليه مـرافقه يـرجوه أن يعود بسيارته إلى المستشفى لضمد جرحه ، فأبى وقال إني أتيت إلى هنا لأموت فداء عن بلادي وأمتي ، وتحت أصوات القنابل المتساقطة كـان يزأر ويصيح :

ـ غورو . . لن تمر إلى دمشق إلَّا على جثتي! .

وما زال يحارب ويجالد بشجاعة فذة وبسالة نادرة، ويشجع رجاله عـلى الصبر والثبـات والقيـام بـالـواجب ، حتى أصيب بعـدة طلقـات أوقعتـه صريعـاً على الأرض ، منهـا اثنتان أصـابتاه في صـدره ، وأخذ الدم ينزف من صدره وفمه .

تفجـرت الدمـاء من صـدر البـطل غـزيـرة سخيـة تـروي تـراب ميسلون ، فأخذ التراب يصلي ، بل الكون كله كان يصلي ، وهل مثل الاستشهاد صلاة! .

وركضت عينـا يوسف العـظمة فـوق التلال . . اجتـاحت مناطق مجهولة وبقـاعاً منسيـة من الوطن الغـالي . . وأحس ببراعم تـورق من جراحه ، وأن دمه يتحول إلى بـروق وسيوف ، وأن استشهـاده يختصر المسافة بين حاضر الأمة ومستقبلها فينبلج من عتمة الهزيمة فجر جـديد

وتتهاوى تحت أقدام المناضلين . . وشاهد رايات مظفرة تخفق ، وأطفالاً سعداء يولدون في كل مكان وكلهم يشبهون ابنته ليلى ، وعلى جباههم شمس حمراء مثل اللهب يشرق منها غد سعيد . . ومات وهو يبتسم ، وفي قلبه نغم ، وفي روحه نشوة ، وفي صدره زهو حبيب! .

وباستشهاد البطل ولفيف من ضباطه ورفقائه ، بدأ الجيش السوري يتراجع تحت ضغط القوى الفرنسية وقصف الطائرات ، وانتهت المعركة باستشهاد ١٢٠٠ مقاتل وسقوط ٤٠٠ جريح . وتقول خيرية قاسمية إنه يصعب أن نسمي الاصطدام الذي وقع بين الفرقة الثالثة الفرنسية مع كل تجهيزاتها ، ومجموعة قليلة من الجيش النظامي وعدد أكبر من غير النظاميين غير المدربين أو المجهزين ، بأنها معركة بالمعنى الحديث ، ولكن من المدهش أن النشرة الفرنسية الرسمية التي وزعت مساء في بيروت في ٢٤ تموز (يوليه) أفادت بأن «الاشتباك الذي جرى صباحاً قرب ميسلون يقارن بأعظم معارك الحرب العظمى . . وأن هزيمة الجيش الشريفي كانت أعظم نصر للقوات الفرنسية في سورية» .

وهكذا تقدم الجيش الفرنسي نحو دمشق وتحصن في ضواحيها ، بينما كان فيصل يستعد لمغادرتها مع عدد من وزرائه وقادة الحركة العربية .

وقد حرص الجنرال غوابيه على دخول دمشق في اليوم التالي ، في أبهة عظيمة واستعراض عسكري تقدمه بنفسه راكباً جواده بخيلاء الفاتح المنتصر . . وكانت أسواق المدينة مقفلة ، والشوارع مقفرة ،

والوجوه عابسة واجمة ، والقلوب تنطوي على ألمها في انتظار يوم آت لا ريب فيه تطرد فيه المستعمر الغاشم ، وتستعيد ما فقدت من سيادتها واستقلالها في ذلك اليوم المشؤوم .

أما الجنرال غورو فقد بلغه سقوط ميسلون وهو وراء مكتبه في عاليه وأمام الخرائط المليئة بالأسهم والدبابيس ، فهتف بسرور :

ـ يا إلهي . . ما أروع لحظات الانتصار . . كنت أشعر بالبؤس لأن لي ساقاً من خشب . . ولكن ما أثمن هذه الساق عندما أمدّها غداً على ضريح صلاح الدين! .

معنى الفداء

ويقول الدكتور عبدالرحمن شهبندر الذي كان يتولى وزارة الخارجية : «سيختلف كتاب العرب في المستقبل على ما هي ألمع المزايا التي كان يزدان بها شهيد العروبة وفقيد سورية ووزير حربيتها على عهد حكومتها الوطنية ، ولا مشاحة في أن نواحيه كانت متعددة وأخلاقه الإيجابية كانت متينة ، فهو من حيث الفن الحربي ركن من الأركان البارزة ، ومن حيث القيادة قائد مدرب ، ومن حيث التخرج والاحاطة بما يبيت الأعداء سياسي محنك ، ومن حيث الاضطلاع بالتبعات زعيم تتخلله عناصر الدكتاتورية القاهرة ، يضاف إلى ذلك نشاط عجيب وحركة دائمة وتتبع دقيق وطموح لا حد له .

على أنني أضع كل هذه المزايا الرائعة في جانب ، وأضع المزية الآتية ذات الكفة الراجحة في جانب آخر ، وهي عندي ألمع مزاياه ،

وقد طغت على سائر ما تحلى به حتى أن التاريخ لا يذكره إلاّ بها أولاً ، وصفوة القول في هذه المزية هي أنه لما تضاربت الآراء في المسلك الذي سلكه في مقاومة الفرنسيين والتهمة التي وجهت إليه بأنه خدع مليكه وزملاءه ووطنه بإخفائه عن المسؤولين معه ، القوة الحقيقية في الجيش ، مما أدى إلى كارثة كان من المحتمل تجنبها ، قدّم للتاريخ برهاناً ساطعاً على إخلاصه وعلى أن تلك الخطة خطة حربية إيهامية مقصودة ، يراد بها التعمية على الأعداء ، فسافر إلى الجبهة الحربية المفككة في ميسلون في اللحظة الأخيرة ليخرّ صريعاً يتخبط بدمه كأحد أفراد الجند المدافعين بدمهم عن بلادهم .

وأذكر جيداً أن العلائق لما توترت في أحد الأيام بينه وبين جلالة الملك فيصل في أواخر عهد الحكومة الوطنية ، اعترف الملك الراحل بالمزايا التي يزدان بها وزير حربيته ، فقال إنني لا أنكر أبداً أن هذا الرجل سيكون له شأن كبير بين الرجال وأكاد أرى بعيني منذ الآن الدور الخطير الذي سيمثله على المسرح السياسي».

ويضيف الدكتور شهبندر إلى ذلك قوله : «إن نبوءة فيصل كانت ولا شك متحققة لو فسح القدر لشهيد ميسلون المجال ، فأطال أجله حتى يرى بعينه ما حلّ بوطنه من النكبات الآخذ بعضها برقاب بعض منذ الاحتلال إلى اليوم».

وفي رأينا أن يوسف العظمة ما كان ليستطيع مهما فسح له في مجال الحياة ، أن يسجل انتصاراً أعظم من الانتصار الذي سجله باستشهاده ، أو بانتحاره ، ليكون للذين بعده من المناضلين قدوةً

ومثالاً ، توجهان النفوس وتثيران الهمم وتعمران القلوب بالإيمان .

إن يوسف العظمة بما سفك من دمه وبذل من روحه ، ليصون الشرف السوري من ذل التخاذل والاستسلام ، ويثبت للرأي العالمي أن فرنسا إنما دخلت البلاد بقوة السيف لا برضى الشعب ولم تحتل دمشق إلاّ على جثث أبنائها ، قد وضع اللبنة الأولى في صرح الاستقلال الذي تتفيأ بظله الآن ، ففي ذلك اليوم التاريخي ، يوم المقاومة العربية السورية الباسلة واسترخاص النفوس في سبيل المثل الأعلى ، أعلنت سورية العربية ثورتها على قوى الظلم والبغي ، والعدوان والاحتلال ، وظلت هذه الثورة مشتعلة لاهبة ، لم يخمد لها أوار طوال ربع قرن ، حتى انتهت بخروج القوات الفرنسية الغازية المحتلة ، مقهورة مهزومة يوم الجلاء في ١٧ نيسان (ابريل) سنة ١٩٤٦.

ولا تزال شبيبة القطر السوري تنشد وقد ظفرت بلادها بمعركة الاستقلال وبقيت أمامها معركة الوحدة :

يا روابي ميسلون　　يا روابي ميسلون
بالضحايا ذكّرينا　　غالها الدهر الخؤون
جدّدوا العهد الأمينا　　لزعيم الشهداء
وانصروا الحق المبينا　　بالتآخي والولاء
يا فخار الخالدين　　وشعار الأوفياء
عشت يا يوسف فينا　　رمز صدق وإباء

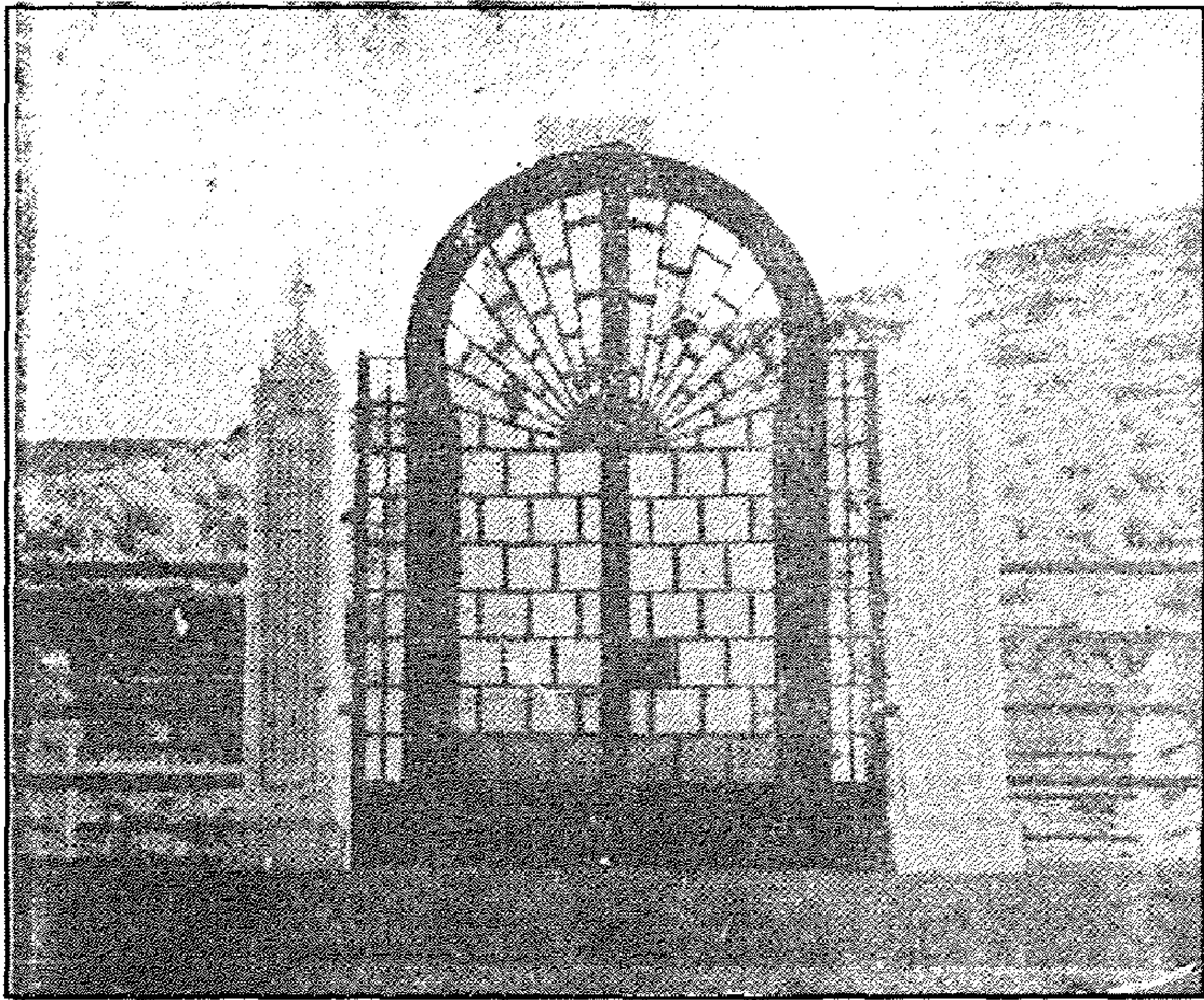
صور من التاريخ



تمثال يوسف العظمة



الفقيد البطل يوسف العظمة وهو في سن العاشرة بين أهله...



الضريح الخالد للشهيد يوسف العظمة في ميسلون

معركة ميسلون

مقياس ١/٢٠٠٠٠٠

الفهرست

عبد القادر الحسيني

شهيد الجهاد المقدس

طالب أنيق في قطار فلسطين

كانت محطة القاهرة تعجّ بالقطارات والمسافرين والمودعين والمستقبلين والطلاب وبائعي الفلافل والعرقسوس والمشروبات المثلجة الأخرى ، فقد بدأ موسم العطلة المدرسية ، وجاء الصيف ومعه طقسه الحار .

وكان بين تلك القطارات المستعدة للانطلاق ، قطار طويل سوف يتجه بعد قليل من القاهرة إلى السودان . هذا قطار «القبلي» لأن وجهته الجنوب . وقطار آخر سوف ينقل المصطافين إلى شواطىء الإسكندرية الجميلة . وثمة قطار ثالث وجهته بورسعيد عند مدخل قناة السويس على البحر الأبيض المتوسط ، وقد كتب عليه «قطار فلسطين» لأنه بعد أن يصل إلى مدينة بور سعيد سيجتاز قناة السويس إلى شبه جزيرة سيناء فيمر بمدنها الصغيرة القائمة على الشاطىء ، ويتابع طريقه شمالاً إلى أن يصل مدينة غزة ومنها إلى يافا وحيفا وعكا مدن الشاطىء الفلسطيني الأخرى ، التي يحار المرء في وصف جمالها .

أما من أراد الوصول إلى مدينة القدس ومدن قلب فلسطين الأخرى ، فعليه أن يأخذ من محطة يافا قطاراً فرعياً ، لأن هذا القطار سيواصل سيره إلى بيروت .

ففي ذلك الزمن ، في سنة ١٩٢٩ ، كان السفر مباشراً بين بيروت والقاهرة ، عبر أراضي فلسطين الجميلة وشواطئها الساحرة المظللة ببساتين الموز والبرتقال والليمون .

وكان القطار يجري بين القاهرة وبيروت مرحاً سعيداً لا تعترضه أية عقبة ، فالكيان الصهيوني لم يكن له يومذاك وجود ، بل إن عدد اليهود في فلسطين لم يكن يزيد على عشرة في المائة من عدد السكان.

وكان بين ركاب هذا القطار ، فتى وسيم وأنيق ، لفت إلى نفسه الأنظار بكثرة ما معه من حقائب لو فتحها المفتش لوجدها مليئة بالكتب والهدايا والصور التذكارية لهذا الفتى النابه مع رفقائه الطلاب العرب الذين يدرسون في معاهد القاهرة ومدارسها . . . وربما وجد بين تلك الصور صورة لرجل شهير يدعى موسى كاظم الحسيني رئيس اللجنة التنفيذية العربية بفلسطين ، وهي قمة تنظيم شعبي عربي أخذ على عاتقه التصدي للاحتلال البريطاني الظالم .

ولو سئل ذلك الفتى الوسيم يومذاك : « ما هي علاقتك بهذا الرجل المعادي لبريطانيا؟» لأجاب فخوراً: « إنه أبي . . وأنا ابنه عبدالقادر الحسيني الطالب في القاهرة ، عائداً إلى أهلي في مدينة القدس لقضاء إجازة العطلة الصيفية».

لكن أحداً لم يفتش هذا الطالب الأنيق أو يعترضه بمثل هذا

السؤال ، رغم أن القطار ، ولا سيما بعد أن دخل شبه جزيرة سيناء ، كان يعج بالجنود الإنكليز .

كما أن هذا الطالب لم يستغرب كثرة عدد الجنود الإنكليز في عربات القطار الذي يطوي أرض سيناء في اتجاه فلسطين ، فهو يعرف أن القطر ما عادت تأمن من عبور سيناء ما لم تكن محروسة جيداً ، لأن شباناً من بدو سيناء كانوا يسابقون القطار بخيولهم العربية الأصيلة ، ثم يثبون إلى العربات كالنمور ، فيباغتون الجنود الإنكليز المسافرين ، ويجردونهم من أسلحتهم ، ثم يقفزون إلى الأرض غير مبالين بما يتعرضون له من أخطار.

وكان أولئك الشبان المغامرون يرسلون تلك الأسلحة هدية إلى الثوار في فلسطين ، فهم في حاجة إليها في معاركهم المستمرة ضد السلطة الاستعمارية البريطانية التي تحتل فلسطين منذ نهاية الحرب العالمية الأولى ، باسم تنفيذ قرار «عصبة الأمم» القاضي بانتداب بريطانيا على فلسطين .

وابتسم الطالب الوسيم عبدالقادر الحسيني ، حين خطرت في ذهنه حكاية «الانتداب»، وتذكر ما كان يسمعه في ديوان أبيه بالقدس من إجماع أهل فلسطين على رفض هذا الاستعمار الجديد ، وقيامهم بالثورات المسلحة ضده .

وكان القطار ما يزال ينطلق سريعاً ، والشوق إلى القدس يشتد في صدر الفتى الوسيم ، وهو يقول لنفسه : « لسوف تكون عطلة صيفية رائعة ! » .

الطالب يحمل البندقية

لكن عبدالقادر ما إن وصل إلى القدس ، وقلبه يخفق حنيناً إلى كل شيء فيها ، حتى وجدها تشتعل بأزيز الرصاص ودوي المتفجرات . .

كانت شوارع القدس تشهد معركة هائلة بين أبنائها العرب وقوات الاستعمار البريطاني . . وكانت أشد مواقع الاحتدام ضراوة وعنفاً تدور حول حائط البراق وقرب المسجد الأقصى .

وحائط البراق جزء من هذا الحرم الشريف الذي يقدسه المسلمون ويتطلعون إليه من شتى أنحاء الأرض بالاحترام والتكريم ، فهو أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ، وهو درة فريدة من مفاخر التراث العربي والإسلامي . ومع ذلك فإن اليهود يزعمون بأن هذا الحائط هو آخر ما تبقى من هيكل سليمان القديم ، وقد أخذوا يحاولون الإستيلاء عليه ، مدعومين بقوة السلطة الاستعمارية البريطانية ، فتصدى لهم أبناء القدس وكان منهم عبدالقادر الحسيني الذي بادر إلى حمل البندقية فور وصوله. وهكذا انفجرت هذه المعركة الهائلة التي يسمونها «انتفاضة ١٩٢٩» والتي قدم العرب فيها مئات الشهداء ، بعد أن أوقفوا في صفوف العدو عدداً أكبر من القتلى والخسائر ، وظل حائط البراق على حقيقته جزءاً من الحرم الشريف .

وهكذا تبدأ قصة بطل اسمه عبدالقادر الحسيني ! . .

كان ذا مكانة كبيرة فتخلى عنها ليمضي إلى الجهاد . .

وكان ذا ثروة كبيرة فبذلها في سبيل الجهاد . .

وكان ذا دم فوّار وشباب ريان فأراقهما في ساحة الجهاد! .

ولقد جاء ليقضي عطلته الدراسية فانضوى تحت لواء الثائرين ، وسرعان ما تفاعل مع الحركة الوطنية فأصبحت مشكلات الشعب مشكلاته هو ، وغدت معارك الشعب معاركه ، وكانت عطلته المدرسية تلك السنة أعظم درس تلقاه ، لأنه تعلم في ميادين القتال معنى الوطنية والجهاد ، وشاهد ألواناً فذة من الكرامة والعزة والإباء ، ونعم بأعظم ما يطمع الإنسان أن يناله في هذه الحياة . . نعم برضى والده موسى كاظم الحسيني الذي بارك جهاده وأثنى عليه .

في كل ساعة شهيد

كانت انتفاضة ١٩٢٩ في القدس أوسع من الانتفاضات العربية التي سبقتها وأخطر منها ، وقد امتد لهيبها إلى جميع أنحاء فلسطين ، ولا سيما مدينة الخليل . وكان المستعمرون الإنكليز يسلحون اليهود ويمنعون وصول أي سلاح إلى العرب ، ومع ذلك فقد استطاع هؤلاء العُزَّل الإيقاع بالكثيرين من أعدائهم ، ومهاجمة طرق المواصلات ، في انفجار شعبي عفوي كاد يتحول إلى ثورة عارمة ، وكان حافزاً للعرب على تنظيم أنفسهم لمجابهة سلطات المستعمرين الإنكليز وعصابات الصهاينة التي تستظل بحرابها .

وكان يحكم فلسطين يومذاك طاغية بريطاني اسمه تشانسلور يحتل منصب المندوب السامي البريطاني في القدس ، وكان مسافراً إلى لندن

أثناء هذه الانتفاضة الشعبية العربية، فعاد إلى فلسطين مسرعاً ، وهدّد وتوعّد ، ووصف أعمال المقاومة العربية في الدفاع عن الأرض والمقدسات بأنها «أعمال همجية تستحق لعنات جميع الشعوب المتمدنة» . ثم أنذر بشديد العقاب ، فأجابه الوطنيون ببيان وقعه موسى كاظم الحسيني رئيس اللجنة التنفيذية العربية والأمناء: مغنم الياس مغنم وعوني عبدالهادي وجمال الحسيني ، وأكدوا فيه : « أن اضطرابات فلسطين السابقة والحالية إنما هي ناشئة مباشرة عن السياسة البريطانية الصهيونية ، التي ترمي إلى إفناء القومية العربية في وطنها الطبيعي ، لكي يُحِلَّ محلها قومية يهودية لا وجود لها» .

وكان من شهداء هذه الثورة الأبرار فؤاد حجازي وعطا الزير ومحمد جمجوم الذين حكمت السلطات البريطانية عليهم بالإعدام ، فعلقوا على أعواد المشانق في عكا في السابع عشر من حزيران (يونيه) سنة ١٩٣٠ ، والبلاد يلفها حزن عميق ، وتقدموا إلى الموت ببطولة وثبات بعد أن خضّبوا أيديهم بالحناء ، في حين كان يتعانق في سماء فلسطين رنين أجراس الكنائس وتكبير المؤذنين ، وتتعالى أصوات الجماهير بالنشيد الوطني :

يا ظلام السجن خيّم   إننا نهوى الظلاما
ليس بعد الليل إلاَّ   فجرُ مجدٍ يتسامى

وقد لجأت السلطات الاستعمارية إلى أسلوب جديد في الإعدام ، إمعاناً في الاستفزاز والطغيان ، فنفذت الحكم في الشهيد فؤاد حجازي في الساعة الثامنة ، وفي الشهيد محمد جمجوم في التاسعة ، وفي الشهيد

عطا الزير في العاشرة ، والجماهير تقف خاشعة كلما دقت الساعة معلنة موت شهيد جديد! .

ووصف الشاعر إبراهيم طوقان ساعات التنفيذ الثلاث في قصيدة معبّرة رددها أحرار العرب ومما قاله فيها :

الساعة الأولى فؤاد حجازي :

أنا ساعة النفس الأبية الفضل لي بالأسبقية
أنا بِكْرُ ساعات ثلاث كلها رمز الحمية
قسماً بروحك يا فؤاد صعِدَتْ جوانحها زكية
عاشت نفوس في سبيل بلادها ذهبت ضحية

الساعة الثانية محمد جمجوم :

أنا ساعة الموت المشرّف كلَّ ذي فعل مجيد
بطلي يحطّم قيده رمزاً لتحطيم القيود
قسماً بروح محمدٍ تلْقى الردى حلو الورود
قسماً بأمك عند موتك وهي تهتف بالنشيد
ما نال من خَدَمَ البلاد أجلَّ من أجرِ الشهيد

الساعة الثالثة عطا الزير :

أنا ساعة الرجل الصبور أنا ساعة القلب الكبير
بطلي أشدُّ على لقاء الموت من صُمّ الصخور
يلقى الإله مخضّب الكفين في يوم النشور
قسماً بروحك يا عطاءُ وجنةِ الملك القدير

وصـغــارك الأشــبــال تبكي الليث بالدمع الغزيـر
مــا أنقـذ الــوطن المفـدّى غـيرُ صـبَّــارٍ جـســور

وكان الشهداء الثلاثة قد وجهوا قبل إعدامهم بيوم واحد كتاباً إلى اللجنـة التنفيذيـة رجوا فيـه الأمة العـربية أن لا تنسى دمـاءهم المراقـة وأرواحهم «التي ترفرف في سماء هذه البـلاد المحبوبـة » وقالـوا : « إننا قدمنا عن طيب خاطر أنفسنا وجماجمنا لتكون أساساً لبناء إستقلال أمتنا وحريتها » وأوصوا العرب «أن لا يثقـوا بالأجـانب وسياستهم» وطلبـوا أن يكتب على قبورهم «إلى الأمـة العربيـة ، الاستقلال التـام أو الموت الزؤام ، باسم العرب نحيا وباسم العرب نموت» .

مجاهد في الثالثة والثمانين

وكان موسى كاظم الحسيني في الثالثة والثمانـين من عمره ، ولكن شيخـوخته لم تثنـه عن تقدم صفـوف المتظاهـرين في إحدى المنـاسبات الوطنية ، فـاعتدى عليـه الجنود الإنكليـز وأصيب بجراح أسـاءت إلى صحته وأدت إلى مفارقتـه الحياة فـدفن في جوار المسجـد الأقصى الذي كان ملاذه اليومي فغدا ملاذه الأخير .

وقد وصفه عجاج نويهض بقوله : إنـه « أكبر شخصيـة عربيـة في فلسطين بل من مقـدمي شخصيات العـرب الذين علوا علواً كبيـراً في فن الإدارة في الدولة العثمانية ، وسجل في سيرته ضرباً من الاستقامـة فريداً لا شك في ذلك . ولما وقعت الحرب العـالمية الأولى لـزم بيته في القـدس ، إلى أن عـينّ محــل أخيـه حسني سليم رئيســاً للبلديـة أول ١٩١٨ » إلاّ أنه ما لبث حتى تخلى عن رئاستها سنة ١٩٢٠ عـلى الرغم

من شأنها الكبير في القدس وفي سائر فلسطين ، احتجاجاً على محاولات اليهود بتأييد الإنكليز صبغ البلدية صبغة يهودية فطلبوا أن تكون اللغة العبرية لغة رسمية ، فأبى موسى كاظم لأن الأعضاء اليهود في البلدية هم لغة رسمية، ولما أصرّ الإنكليز على تأييد مطلب اليهود بادر إلى الاستقالة وأخذ يساند التظاهرات الشعبية السياسية فإما أن يكون على رأسها وإما أن يطل عليها ويحييها محرضاً على مقاومة المحاولات الإنكليزية المجرمة لتهويد فلسطين .

وأما المظاهرة التاريخية الأخيرة التي اشترك فيها وهو في سن الثانية والثمانين وأصيب فيها بالجراح التي انتهت بالقضاء عليه ، فإن لها قصة ذات عبرة ، فعندما قرر شباب فلسطين القيام بها واستعدوا لها ، احتجاجاً على الهجرة اليهودية والانتداب البريطاني ، حمل أولئك الشبان قرارهم إلى موسى كاظم الحسيني وأبلغوه أن المظاهرة ستتم سواء أقرتها اللجنة أم لم تقرها ، ولما عرض موسى الأمر على أعضاء اللجنة التنفيذية العربية ، أقره بعضهم ورفضه الآخرون ، فوقف رئيس اللجنة حائراً متردداً ، فتقدم عبدالقادر إلى والده وقال :

ـ يا والدي ، لقد بلغت من العمر ما يشتهيه الكثيرون ، فاختم هذا العمر الطويل الجليل بقيادة شعبك في ثورته على الظلم . .

فقالت الأم متوسلة :

ـ ولكن الإنكليز سيطلقون النار على المظاهرة ، وإذا كان أبوك في مقدمتها فسيقتل لا محالة ! .

فالتفت إليها عبدالقادر بإشفاق وقال دون تردد :

ـ يؤسفني أن أسمع هذا الكلام من رئيسة المؤتمر النسائي العربي

الفلسطيني التي هاجمت الانتداب ووعد بلفور والهجرة اليهودية ، ودعت إلى حركة قومية عامة تقف في وجه الصهيونية والاستعمار . . فهل تكونين من الذين يقولون ما لا يفعلون ، ويدعون الآخرين إلى الإقدام على ما يتهيبونه هم ويخشون الإقدام عليه؟ .

فبكت الأم وقالت :

- والله لو طلب مني أن ألقي بنفسي بين براثن الموت في سبيل وطني لما ترددت . . ولكني أخشى على أبيك من أن يقتل وهو في هذه السن! .

فصرخ عبدالقادر غاضباً :

- إذا لم يمت مثله في سبيل وطنه فمن الذي يموت؟ .

ونظر الوالد إلى ولده بإكبار ، ونزل على رأيه ، فوافق على قيام المظاهرة وعلى السير في طليعتها . وكان المندوب السامي البريطاني في تلك الأيام ، هو السير آرثر راكهوب ، فأنشأ يسعى لإلغاء هذا القرار ، وأرسل قبل الموعد المحدد للمظاهرة وفداً غير رسمي من أعضاء الجالية البريطانية على رأسه مس نيوتن التي كانت تدّعي صداقة العرب ، لإقناع موسى كاظم الحسيني واللجنة التنفيذية بإلغاء القرار . وعلم عبدالقادر بذلك فانتظرها عند باب المنزل ، ولما همّت بالدخول اعترضها قائلاً لها في صوت حازم :

- يا سيدتي إني أربأ بك أن تسعي إلى والدي للكف عن دعوته . . إن أبي لن يكون خائناً لوطنه . . والله ، لو أن أبي قبل

وساطتكم ، فسأكون أول من يخرج عليه فإن حبي لوطني يفوق حبي لأبي . . .

وكان الأب قد أقبل ، وسمع ما قاله عبدالقادر ، فاغرورقت عيناه بالدموع وقال :

ـ يا مس نيوتن . . إذا كان هذا ما يقوله ابني ، فماذا يقول الناس؟! .

فالتزمت الصمت وعادت من حيث أتت .

وانطلقت مظاهرة التحدي على الرغم من تحذيرات السلطة الاستعمارية الظالمة وانذاراتها ، يوم الجمعة في ١٣ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٣٣ من المسجد الأقصى ، يتقدمها موسى كاظم الحسيني ، وكانت تضم جمعاً غفيراً من المسلمين والمسيحيين ، فتعرض الجند البريطانيون لها بالسلاح ، فخر ٣٥ جريحاً عربياً بينهم عبدالقادر الحسيني .

وتجددت المظاهرات في ٢٧ تشرين الأول (اكتوبر) متجهة إلى يافا من القدس والخليل وحيفا وجميع أنحاء فلسطين ، واصطدمت بالجند البريطانيين أمام باب الجامع الكبير في يافا ، فجرح ١٦٧ عربياً ، بينهم موسى كاظم الحسيني ، فحمله ابنه عبدالقادر إلى المنزل وهو فاقد الوعي . وظل الشيخ الجليل يعاني من جراحه حتى توفي يوم ٢٦ آذار (مارس) ١٩٣٤، في حين كانت الإضرابات والمظاهرات تعم سائر أنحاء البلاد.

وبعـد وفاة مـوسى كاظم الحسيني تـولى الحاج أمـين الحسيني مفتي فلسطين قيادة الحركة الوطنية ، كما نشأت أحزاب وطنية متعددة . وقد التف الشعب حـول الحاج أمـين بصدق وإيمـان ، واضـطرد ذلـك إلى خريف ١٩٣٧ إذ اضطر في ذلك الوقت إلى براح القدس سراً إلى يافـا ومنها إلى بيروت في قارب عربي رجاله من خيرة رجال يافا الذين تربـوا على مغامرة البحر ، وقد اشتهرت يافا ببـطولات رجالهـا هؤلاء وكانت تسمى عروس فلسطين .

خطة بريطانيا لسرقة الأرض

وعاد الفتى بعد انتهاء الثورة إلى متابعة دراسته في قسم الصحافـة والتاريخ بالجامعة الأميركية في القاهرة ، وفي صدره نقمة مضاعفة على الاستعمار اقترنت فيها العاطفة الشخصية بـالعاطفـة الوطنيـة ، وأنشأ يقـاوم الدعـاية الاستعمـارية التي تقـوم بها بعض المـدارس الأجنبية ، وأدت حملته العنيفة عـلى هذه المـدارس إلى وقف المساعـدة الماديـة التي كانت الحكومة المصرية تقدمها لها .

ولما أنهى دراسته ، وتسلم شهادته من رئيس الجامعة الأميـركية في حفلة التخرج ، ألقى خطاباً حماسيـاً هاجم فيـه الدولـة الأميركيـة التي تساند الصهيونية في فلسطين ، وقال :

ـ وإعراباً عن احتجاجي عليها فإني أمزق شهادتي وأربأ بنفسي أن أحملها أو أفاخر بها ! .

وكـانت الصحـافـة هي الميـدان الـذي اختـاره لعمله حـين أنهى

دراسته الجامعية وعاد إلى وطنه ، فكان القلم في يده سلاحاً جريئاً قوياً . .

وكان الضباط الإنكليز يجسدون وجه الاستعمار الوحشي الكريه ، وكان أسوأهم سيرة وأشدهم تعسفاً ضابط يدعى سيكرست كان يحقد على الحركة الوطنية العربية وأبطال المقاومة الشعبية ، فيهاجم المظاهرات ويغرق التجمعات بسوطه ، ويطوف الشوارع ليلاً يضرب هذا ويعتدي على ذاك ، كلما اشتدت المقاومة العربية ضد المستعمرين الإنكليز وعصابات الصهاينة المجرمة . واقتحم ذات ليلة النادي الرياضي فحطم ما فيه من الأثاث ، وعرّج على وكالة جريدة الدفاع فوجد صبحي قطينة يخابر بالتلفون فأهوى على رأسه بهراوة يحملها فحطم جمجمته وشوه وجهه ، ثم خرج إلى الشارع يضرب المارة كيفما اتفق ، فكان ممن أصابهم طائفة من خيرة المثقفين بينهم عبدالقادر الحسيني . فأقسم عبدالقادر على قتله وإراحة البلاد من شره ، ولكن سبقه إلى ذلك فتى في التاسعة عشرة من عمره يدعى سامي الأنصاري أطلق عليه النار في يده وظهره وعموده الفقري فأصيب بالشلل ، وجرح سامي خلال ذلك وضرب بأعقاب البنادق فنقل إلى المستشفى حيث فارق الحياة في اليوم التالي .

ثم التحق عبدالقادر بخدمة الحكومة الفلسطينية فعهدت إليه بالمساهمة في أعمال التحديد والتحرير في دائرة تسوية الأراضي ، واطّلع خلال قيامه بهذا العمل على الخطة المجرمة التي كان يبيتها الاستعمار للاستيلاء على أراضي العرب في فلسطين . ومن بنود هذه

الخطة أن المندوب السامي البريطاني أعطى نفسه صلاحيات خليفة المسلمين ، فقال في قرار له : «بما أن أحكام الشرع الإسلامي كانت قد خولت السلطان صلاحية تحويل الأراضي الميري إلى أراضي ملك ، وورد نص بشأن هذه الصلاحية في المادة ١٢١ من قانون الأراضي العثماني ، والمادة ٨ من قانون التصرف بالأموال . غير المنقولة لعام ١٣٢٩هـ ، وبما أنه من المناسب تخويل المندوب السامي هذه الصلاحية بشأن كافة الأراضي الميري في فلسطين ، لذلك تعدل المادة ١٦ من مرسوم الدستور بحيث يجوز للمندوب السامي أن يحول بمرسوم يصدره أية أرض في فلسطين يسميها في المرسوم من صنف الميري إلى صنف الملك» . وبموجب هذا القرار تحايلت السلطة البريطانية على احكام القانون وحرمت الفلاحين العرب من أراض توارثوها قروناً طويلة وسلمتها إلى الجمعيات اليهودية .

ثورة عز الدين القسام

وكانت الوعود البريطانية تتناقض باستمرار ، والهجرة اليهودية متواصلة بمختلف الأسماء والذرائع ، وكل كتاب أبيض تصدره السلطة البريطانية يتحول إلى كتاب أسود ، والنضال العربي يخبو في مكان ليشتعل في مكان آخر ، والمناضلون العرب كما قال هتلر عنهم في رسالته إلى ألمان السوديت سنة ١٩٣٦ : « اتخذوا يا ألمان السوديت من عرب فلسطين قدوة لكم ، فهم يكافحون إنكلترا أكبر امبراطورية في العالم واليهودية العالمية معاً ، ببسالة خارقة ، وليس لهم في الدنيا نصير أو مساعد ، أما أنتم فإن ألمانيا كلها من ورائكم » .

وظهر البطل الشيخ عز الدين القسام معلناً الجهاد الإسلامي في ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٣٥ ذكرى وعد بلفور ، متحدياً كل أعمال القمع والإجراءات الإرهابية التي اتخذتها السلطة البريطانية ، بعد أن قضى وقتاً في الإعداد العقائدي والتنظيم السري وتدريب المقاتلين . وقد أرسل رسولاً إلى الحاج أمين الحسيني ليقترح عليه القيام بالثورة في جنوب فلسطين حين يعلنها هو في الشمال ، فأجابه بأن الوقت لم يحن بعد لمثل هذا العمل ، وأن الجهود السياسية التي تبذل تكفي الآن .

وكان القسام رئيس جمعية الشبان المسلمين وخطيب مسجد الاستقلال في حيفا ، وهو سوري الأصل شارك في الكفاح الوطني في وطنه ثم انتقل إلى فلسطين عام ١٩٢١ هرباً من بطش السلطة الفرنسية ، فكان يدعو في خطبه إلى الجهاد ويقول : «لا كرامة لمسلم يذعن للأعداء أو يعاملهم أو يصادقهم أو يطمئن إليهم» ويختم خطبه بالآية الكريمة : ﴿ **ومن يتولّهم منكم فإنه منهم** ﴾ . وكان يجمع المال بحجة إجراء اصلاحات في المسجد ويشتري به سلاحاً يوزعه على أنصاره سراً ويدربهم على استعماله .

وألّف القسام قيادة جماعية لثورته من اثني عشر عضواً ، واعتصم هو ورفاقه المقاتلون بالجبال داعياً الفلاحين إلى الجهاد ، فطاردتهم القوات البريطانية بالطائرات ، وأصيب القسام بشظية قضت عليه في ٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٥ ، فمات الشيخ ويده تشدّ على نسخة من القرآن الكريم كانت لا تفارقه أبداً .

وقد طلبت السلطة من الصحافة نشر بيان عن «قمع عصابة من الأشقياء ومقتل رئيسها عز الدين القسام» ، وحاولت منع الناس في حيفا من تشييعه ، لكن الجماهير احتشدت ألوفاً ولفت نعشه ونعشي رفيقيه بالأعلام العربية ، توكيداً للوحدة العربية ، وهاجم المشيعون دائرة الشرطة فرموها بالحجارة وحطموا لها ثلاث سيارات .

ويقول أبو إبراهيم الكبير (الشيخ خليل محمد عيسى) أحد رفقاء القسام : « لم يحدث انشقاق على الاطلاق بين القائد الشهيد وإخوانه بل كان الوفاق على أتمه . والانشقاق بمفهومه لم يحدث لا في حياة القائد الشهيد ولا بعد استشهاده أيضاً ، والسبب بسيط جداً فإن القائد الشهيد كان يدعو إلى الجهاد في سبيل الله واستخلاص الوطن ودفع الظلم عن المواطنين . وكان هناك شعار واحدِ تنطوي تحته كل مفاهيم الثورة : هذا جهاد فثمة نصر أو استشهاد!».

ورثاه الشاعر فؤاد الخطيب بقوله :

إن الزعامة والطريق مخوفةٌ   غيرُ الزعامة والطريقُ أمانُ
ماكنت أحسب قبل شخصك أنه   في بردتيه يضمها إنسان
يا رهط عزالدين حسبك نعمة   في الخلد لا عَنَتٌ ولا أحزان
شهداء بدر والبقيع تهلَّلتْ   فرحاً، وهشَّ مرحّباً رضوان

مع البطل سعيد العاص

لم تنته ثورة القسام باستشهاده وإنما ابتدأت ، فقد كانت قوية بوهجها سريعة بانطفائها ولكنها تركت خميرة نضالية في البلاد ،

فتتابعت الانتفاضات الشعبية وحركات المقاومة حتى أُعلن الاضراب العام الذي بدأ في ٢٠ نيسان (ابريل) ١٩٣٦ واستمر ستة أشهر كاملة ، وكان اضراباً فريداً لم يعرف له مثيل في التاريخ .

وكان ذلك الاضراب بدء ثورة ١٩٣٦ ببطولاتها الرائعة ومعاركها الخالدة التي اشترك فيها الكثيرون من المتطوعين العرب الذين انضموا إلى المناضلين الفلسطينيين ، قادمين من مختلف مناطق وطننا العربي .

والواقع أن تلك السنة شهدت موجة ثورية معادية للاستعمار شملت الوطن العربي بأسره من المغرب إلى العراق .

وقد شلَّ الاضراب الحياة السياسية في فلسطين ، ودمرت العمليات العسكرية المسلحة الكثير من المرافق والمصالح البريطانية واليهودية ، وأخذت مدن فلسطين تترنح بين القنابل والحرائق ، وامتلأت السجون بآلاف المعتقلين ، في حين تساقط المئات من القتلى والجرحى في ساحة القتال ، وكانت فلسطين كلها ساحة لذلك القتال المستعر ، وفرضت السلطة البريطانية على كل مدينة وقرية نفقات الشرطة التي تقمع الاضطرابات فيها ، وأنزلت العقوبات الجماعية بقرى بكاملها للاشتباه بإيواء أهاليها لرجال الثورة ، كما أُجري تفتيش واسع للمحلات والمنازل، الواحد تلو الآخر ، بحثاً عن السلاح والذخيرة بقصد تجريد المواطنين العرب من سلاحهم ، وفي الوقت نفسه سمح المستعمرون للمنظمات الصهيونية الإرهابية وفي مقدمتها الهاغاناه بالتوسع والتسلح ، لكي يصار فيما بعد إلى توزيع مجنديها على القوات البريطانية في شمال فلسطين .

وفي هـذا الجو من التحـدي العـربي للسلطة البـريـطانيـة ، بـادر عبدالقادر الحسيني إلى الاستقالة من منصبـه ، وانضم إلى الثائـر سعيد العاص وهو بطل عربي من مدينة حماه ، واشترك معـه في أكثر المعـارك التي خـاضها في فلسـطين . وكـان إلى جـانبـه في معـركـة الخضر التي استشهـد فيها البـطل السـوري في ٦ أيلول (سبتمبـر) ١٩٣٦ بعـد أن أصيب بثلاث رصاصات وهو صامد رابط الجأش مستمر في كفـاحه ، ثم أصابته رصاصة رابعـة في رأسه فسقط صـريعاً ، فهـرع عبدالقـادر إليه ليحمله وإذا به يصاب بطعنة في ظهره ، وانقض عليه أحد الجنـود البريطانيين ليجهز عليه بحربته ، فصاح به عبدالقادر منذراً متـوعداً ، وانتهره أحد رفاقه قائلاً :

ـ ويحك كيف تريد قتله وقد رأيت شجاعته وبطولته؟ . .

وتقدم الجندي البريطاني الآخر من عبدالقـادر وحمله إلى المستشفى حيث أُنقذ من الموت ، ولكنه سيق إلى السجن .

وأثنـاء صلاة الجمعـة وإقامـة صـلاة الغـائب في المسجـد الأقصى بالقدس على أرواح سعيد العـاص وإخوانـه الشهداء ، شعـر المصلون بأن شخصاً كان يتجسَّس عليهم لمصلحـة السلطة البريـطانية ، فهـاج النـاس وانقضوا عليـه لكماً وركـلاً ثم راحوا يضـربونـه بـالنعـال حتى مات ، ثم لفوه بحصيـرة وقذفـوا به من سـور الحرم إلى المقبـرة لتأكله الكلاب جزاء خيانته .

ضمير الشعب

وسادت فلسطين هدنة قصيرة المدى في أواخر سنة ١٩٣٦ إثر تدخل ملوك العرب ودعوتهم المواطنين للإخلاد إلى السكينة ريثما تنتهي المفاوضات الجديدة التي بدأوها مع الحكومة البريطانية . وقد استطاع عبدالقادر الهرب من مستشفى السجن في القدس رغم الحراسة المشددة حول المستشفى ، وانتقل إلى سوريا فالعراق ومنها إلى ألمانية حيث قضى بضعة أشهر انصرف خلالها إلى التخصص في صنع المتفجرات .

لقد أيقن بأن قضية بلاده إنما هي قضية استعداد وكفاح ، فحرص على اتقان هذا الفن ليصنع بيديه القوى المتفجرة التي يحتاج إليها في قتاله مع الأعداء .

وفي هذه المرة ، ألف عبدالقادر إثر عودته إلى القدس سنة ١٩٣٨ «منظمة الجهاد المقدس»، وأنفق عليها من ماله الخاص، فلبى دعوته عدد كبير من الرجال الأشداء ، واعتصم معهم في جبال القدس ، وخاض مع الجنود البريطانيين واليهود معارك عديدة دامية، ظفر فيها عليهم ، وأوقع فيهم ، وكبدهم الخسائر الجسيمة ، حتى كانت معركة بني نعيم التي خاضها بألف مجاهد فاستشهد فيها عدد كبير منهم وجرح عبدالقادر جراحاً خطيرة .

ولما غادر المجاهدون أرض المعركة انتبهوا إلى أن عبدالقادر ليس بينهم ، فاشتد قلقهم وتطوع فريق منهم للعودة إلى ساحة القتال للبحث عنه ، فوجدوه فاقد الوعي بين عدد من القتلى وقد تركه الجنود

البـريطانيـون لاعتقادهم بمـوته ، فحملوه إلى مغـارة قريبـة من ميـدان المعـركة ، ثم هـاجموا مستشفى الخليـل وقطعـوا خطوطـه التلفـونيـة ، وأرغموا الطبيب البريطاني على معالجتـه ، ثم نقلوه على ظهـر جمل إلى دمشق حيث كانت تقيم أسرته .

ولكن ما كاد البطل يشفى من جراحه في مطلع عام ١٩٣٩، حتى عاد إلى فلسطين من جديد مؤكداً استحالـة اخماد الـروح الكفاحيـة في ضمير الشعب ، وقد لفتت هذه الظاهرة الجديدة الجنرال هايننغ القائد العسكـري البريـطاني الجديـد ، فكتب في تقريـر لـه أن تـزايـد عـدد الغـارات في المدن والـدمار الـذي أصيبت بـه المؤسسـات البـريـطانيـة والصهيـونية ، همـا «من أعراض مـا أصبح الآن روحـاً ثوريـة عميقـة الجـذور اجتاحت السكـان العرب قـاطبة وحفـزتهم إليها الـدعـوة إلى حـرب مقدسـة . ولقد بلغت سيـطرة عصـابـات الثوار عـلى جمـاهـير الشعب ، حداً لم يعد معه من المبالغة القول بأن كل عربي في البلاد هو عـدو كامن للسلطة البـريـطانيـة مهـما بلغت عـواطفـه الشخصيـة من الاعتدال» .

والتف رجال عبدالقـادر من حولـه ، وانضم إليهم عدد آخـر من الشبان المتحمسين ، فكان مثال القـائد الجـريء والفدائي المغـوار . . وما زال يقاتل المستعمرين والغاصبين حتى جـرح للمرة الـرابعة ونقـل إلى سورية ليعالج فيها .

وأعلنت الحرب العالمية الثانية وعبدالقادر الحسيني في سوريا ، فما لبث حتى غادرها إلى العراق مع نفر من مجاهدي فلسطين ، وأقام هناك استاذاً في المدرسة العسكرية وتابع في الوقت نفسه دروس الكلية الحربية في بغداد وأحرز شهادتها ، ثم اشترك في ثورة رشيد عالي الكيلاني وتولى قيادة فرقة من المتطوعين العرب الذين هرعوا لمؤازرة الثورة ، وكانت جبهته تلال « أبو غريب » على مقربة من الفلوجة ، وقد استطاع أن يصد هجومين بريطانيين بقيادة الجنرال كلارك .

وصمد عبدالقادر مع اتباعه من المجاهدين العرب إلى آخر يوم من الثورة ، ثم اعتقل وعـذِّبَ ولم يفرج عنه إلاَّ بتوسط الحكومتين المصرية والسعودية ، بعد أن قضى في سجون عملاء الإنكليز في العراق ، ثلاث سنوات، فرحل إلى المملكة العربية السعودية وبقي فيها حتى انتهت الحرب العالمية الثانية فذهب إلى مصر .

وفي مصر بدأ عبدالقادر الحسيني يستعد من جديد لاضرام نار الجهاد على الاستعمار ، وغدا بيته ندوة للشباب العربي وموئلاً لرجال القضية الفلسطينية ، وكان يشتري السلاح ويدرب عليه المتطوعين ويخفيه في مخبأ خاص .

وفي أواخر عام ١٩٤٧ كان عدد اليهود في فلسطين قد بلغ ٦٥٠ ألف يهودي ، بعد أن لم يكن فيها يوم دخلها الاستعمار البريطاني سنة ١٩١٧ سوى ٥٦ ألف يهودي ، فدفعت الصهيونية العالمية إنكلترا إلى عرض القضية الفلسطينية على منظمة الأمم المتحدة ، بعد أن حشدت

لهذا الغرض كل ما لديها من نفوذ أدبي واقتصادي ، وجاء العرب إلى المنظمة ولم تسبقهم أية دعاية ولم يتقدمهم أي نفوذ ، فدخلوا هذه السوق الدولية السوداء ، وليس معهم إلاّ الحق ، فكان شأنهم في ذلك الجو شأن إلاّ قيام في مأدبة اللئام ، ولم يناصرهم إلاّ الجار القريب أو الذي يتصل بالأمة العربية بنسب أو دين . . . وأسفرت المؤامرة الدولية على فلسطين عن صدور قرار ظالم يقضي بتقسيم فلسطين إلى قسمين : قسم للعرب وقسم لليهود .

ذهب عبدالقادر الحسيني إلى فلسطين ، وبدأ المرحلة الرابعة من جهاده ، وقد عينته اللجنة العسكرية للجامعة العربية قائداً عاماً لقوات «الجهاد المقدس» التي أنشأتها، وعهدت إليه بمهمة الدفاع عن القطاع الشرقي من المنطقة الوسطى ، أي القدس ورام الله وباب الواد ، وكانت اللجنة قد قسمت فلسطين إلى خمس مناطق عسكرية .

وفي هذه المرحلة سجل عبدالقادر وإخوانه المجاهدون معه أمثلة رائعة من البطولة ، فحاصروا المستعمرات اليهودية وقطعوا الطرق بين القدس ويافا ، حتى اضطر اليهود إلى الاستسلام بعد أن انقطعت عنهم المؤن والمياه . . ثم قاموا بنسف جريدة «بالستين بوست» وشارع يهودا والوكالة الصهيونية وحي المنتفيوري، وجميعها من الأمكنة اليهودية المحاطة بحراسة قوية . . وكانت جميع المتفجرات التي يستعملونها من صنع يديه . .

قوى الجهاد المقدس

وكانت عودة البطل إلى فلسطين باعثاً لحماسة الأهلين ، وحافزاً لعزائمهم ، فسرى النشاط فيهم ، وتألق البشر في وجوههم ، وتسابقوا للالتحاق به ، فدوّت زمجرة المجاهدين في كل مكان ، وزغردت جبال فلسطين بطلقات النار وصرخات الثار . . ذلك أن عبدالقادر كان إلى جانب شجاعته الفريدة وجرأته النادرة، مهوى أفئدة المجاهدين ، وموضع حبهم وتقديرهم لما امتاز به من خلق كريم وإخلاص عظيم .

كان ، وهو سليل أسرة ألفت النعيم ، جندياً مع الجنود وعاملاً مع العمال ومغامراً مع المغامرين ، يقود المغاوير بنفسه ويعامل جنوده معاملة أخ كبير يشاطرهم أفراحهم وأتراحهم ، ويسهر على أمنهم وراحتهم ، ويعاملهم بالعدل والمساواة ، لا فضل عنده إلاّ للشجاع الجريء . . ولقد كان في مقدمتهم دائماً ، يعطي القدوة بنفسه ويضرب المثل على القيادة المثلى .

ولم تفارق عبدالقادر ابتسامته المرحة المتفائلة التي كانت تبعث الحماسة في صدور المجاهدين والطمأنينة في قلوبهم ، إلاّ حين نفدت ذخيرته وبات يقابل نيران العدو بالبسالة العزلاء .

وكانت قوى الجهاد المقدس التي تألفت بقيادته قد ضمت عدداً من المجاهدين الذين تدربوا عسكرياً في سورية والعراق وألمانيا ، بالإضافة إلى الخبرة التي اكتسبوها في المعارك السابقة .

وقد عقدت قوى الجهاد المقدس اجتماعاً حضره عدد من الضباط

السوريين والمصريين والعراقيين ، ووضعت برنامجاً عملياً للنضال الشعبي ، وهيأت مئات الأهداف لعمليات الجهاد ، ووضعت لكل هدف خارطة دقيقة مفصّلة . . ونفذ المجاهدون قسماً من هذا البرنامج في الجنوب والشمال . . ولكن نفاد الذخائر ونقص الأسلحة أوقفا عمليات الجهاد ، وشلاّ حركات المجاهدين ، وعرّضهم للخطر الشديد، كما عرّضا البلاد للغزو الصهيوني المتعاظم . .

لقد سيطر العرب في الأيام الأولى على زمام المبادرة ، وأثاروا الرعب في قلوب اليهود ، حتى أعلنت الصحف الصهيونية أن التقسيم قد قضي عليه ، ونصحت اليهود بانقاذ ما يمكن انقاذه ، ولكن التفوق العسكري أخذ يتحول لمصلحة اليهود منذ منتصف آذار (مارس) ١٩٤٨، واشتدت وطأتهم في شهر نيسان (ابريل)، وذلك بفضل الإدارة البريطانية التي سلمت الوكالة اليهودية العديد من المؤسسات والمنشآت والموانىء والمطارات ، ويسّرت لها الفرصة لاستقدام المدربين من الشباب الذين كانوا يعدون في معسكرات خاصة في دول أوروبا الشرقية ، وجلب مختلف أنواع السلاح ووسائل القتال والتدمير جواً وبحراً . كما أن وطأة التآمر على قوات المجاهدين الشعبيين اشتدت بسبب تخاذل بعض الحكام العرب ممن كانوا أدوات في يد الغرب الذي وضع كل ثقله إلى جانب المعتدين الصهيونيين .

المناضل ... والباشا

أسرع عبدالقادر بالسفر إلى دمشق مقر اللجنة العسكرية للجامعة العربية ، وفي اعتقاده أن المسؤولين سيقدرون موقفه ويشكرون

مسعاه ، ويبادرون إلى تسليمه ما يطلب من سلاح وعتـاد . . ولكنه لم يجد إلاَّ ممثلي الأنـظمة المتخـاذلة الـذين التقاهم رفـاقه المجـاهدون من قبل، وحاول أن يستثير هممهم ونخواتهم بالحديث عما تنزله العصابات الصهيـونية بشعب فلسـطين من الويـلات ، فلم يلق منهم جوابـاً غير الاستهتار والمماطلة .

وزار عبدالقادر في دمشق الأمين العام للجامعة العربية عبدالرحمن عزام بمقره في فندق أوديون فرحب به وعانقه بحرارة وقال له :

ـ مرحباً بالبطل . . لقد علمنا بانتصاراتك المشرفـة على المجـرمين اليهود . . لقد رفعت رؤوسنا عالياً يا عبدالقادر . . فأجابه بقوله :

ـ ما زلنا في بداية المشوار يا بـاشا . . ولقـد تأزم المـوقف وانهالت على اليهود أسلحة جديدة وعديدة . . لقد كثرت عندهم الـرشاشـات والمـدافع ، وعنـدهم طائـرات تحمـل المؤن لقـواتهم وتقـذف مـواقعنـا بـالقنابـل ، ولا نستطيـع مواجهتهم بمـا نملكه من امكـانات عسكـرية محدودة . .

ـ نحن واثقـون من قدرتـك على مـواجهـة اليهـود . . أنت سيـد الشجعان .

ـ الشجـاعة وحـدها لا تكفي يـا سعادة البـاشا . . نحن بحـاجة ملحة لأسلحة وذخائر . .

ـ كن مـطمئنـاً يـا عبـدالقــادر . . سنحقق رغبتكم إن شـاء الله وسوف أتصل باللجنة العسكرية لهذا الغرض . . واستبشر القائد خيراً

ولكن اجتماعه باللجنة العسكرية لم يسفر إلاَّ عن الوعود . .

وفي ذات يوم روت الأنباء أن العصابات اليهودية قامت بهجوم عنيف على قرية «القسطل» تؤازرها المدفعية والمصفحات والطائرات ، وقد تغلبت على القوة العربية التي تحميها وتمكنت من احتلالها .

وقرية القسطل تقع على جبل حصين يشرف على طريق القدس الرئيسية ، وهي تبعد عن المدينة المقدسة اثني عشر كيلومتراً ، وكانت قلعة بناها الصليبيون وسموها «كاستل» أي القلعة نظراً لأهميتها الاستراتيجية ، لأن من يحتلها يضع القدس وضواحيها تحت رحمة مدافعه وجنوده .

وجن عبدالقادر لدى سماع هذه الأنباء ، وجدّد مسعاه لدى المسؤولين فقوبل بالاعراض مثلما قوبل في المرات الأولى . .

وقال عبدالقادر الحسيني للعميد طه باشا الهاشمي المشرف العام على جيش التحرير وعلى تلك اللجنة :

ـ يا باشا إن القسطل حصن منيع ليس من السهل استرجاعه بالبنادق العتيقة والذخائر القليلة التي بين أيدينا . . أعطني السلاح الذي طلبته منك وأنا كفيل باستردادها . . وقد كانت خطتي حتى الآن أن أحاصر القدس والمستعمرات اليهودية وباب الواد ، وأن أمنع وصول المؤن والإمدادات العسكرية إليها ، ونجحت خطتي حتى اضطر اليهود إلى تموين رجالهم في القدس والمستعمرات بالطائرات ، أما الآن فقد تطور الوضع وبات لدى اليهود رجال وطائرات ومدافع ،

وليس باستطاعتي أن أحتل القسطل إلاَّ بـالمدافـع ، فأعـطني ما طلبت وأنا أعدك بالنصر ! .

فقال الباشا بإصرار :

ـ ماكو مدافع . . ماكو سلاح ! .

وقال مساعده أحمد الشراباتي وزير الدفاع السوري :

ـ إذا احتل اليهود القدس فسوف ندفنهم فيها ! .

فارس القسطل وفارس غرناطة

وأدرك عبدالقادر أن اللجنة العسكرية للجامعة العربية ليست على مستـوى الحدث المصيـري الذي يـدور على أرض فلسـطين سـواء من الناحية القومية أو الناحية الاستراتيجية ، فصرخ في أعضائها :

ـ سـوف يسجـل التـاريـخ أنكم أضعتم فلسـطين . . أمـا أنـا فسأسترجع القسطل ، وسأموت فيها مع إخواني المجاهـدين! وأما أنتم فدعوا الأسلحة تصدأ في العنابر ! ! .

كان البطل قد اعتزم أمراً . .

لقـد قرر الانتحـار احتجاجـاً عـلى تلك المعـاملة التي يُقَـابـل بهـا المجـاهدون لـدى المسؤولين العـرب . . ولكن رجـلاً مثـل عبـدالقـادر الحسيني لا ينتحر إلاَّ في ساحة الجهاد . . فلعل استشهاده يُدين أولئك القـابعين وراء مكـاتب اللجنة العسكـريـة في دمشق إدانـةً لا ينسـاهـا التاريخ .

ورفع البطل عينيه إلى السماء وتمتم ضارعاً :

ـ ارحمني يا رب، وهبني لذة الاستشهاد . . اللهم أمتني قبل أن تحلّ الكارثة بأمتي وبلادي! . . وعبثاً حاول رفاق عبدالقادر أن يثنوه عن العودة إلى القتال وهو لا يزال كما أتى لا عتاد ولا سلاح . . وقال الرفاق :

ـ إنك تلقي بنفسك بين أشداق الموت! .

وضحك الشاب الذي يتدفق صحة وبسالة وحيوية وقال:

ـ إن الموت الآن أشرف . . لأن من يعيش منا لن يعيش إلاَّ ليرى الفضيحة والعار . .

وقد شبهه صالح أبو يصير بفارس غرناطة موسى بن أبي الغسان ، يوم هانت الكرامة لدى حكامها العرب ، فاجتمعوا في بهو الحمراء الكبير ليوقعوا عهد التسليم لفرديناند وايزابيلا ملك الاسبان وملكتهم ، وليحكموا على دولتهم بالذهاب وعلى شعبهم بالفناء . ولبث موسى بن أبي الغسان وحده صامتاً عابساً وقال : «اتركوا العويل للنساء والأطفال ، فنحن رجال لنا قلوب لم تخلق لإرسال الدمع ، ولكن لتقطر الدماء ، وإني لأرى روح الشعب قد خبت حتى ليستحيل علينا أن ننقذ غرناطة ، ولكن ما زال ثمة بديل للنفوس النبيلة ، ذلك هو موت مجيد . فلنمت دفاعاً عن حريتنا ، وانتقاماً لمصائب غرناطة ، وسوف تحتضن أمنا الغبراء أبناءها أحراراً من أغلال السفاح وعسفه ، ولئن لم يظفر أحدنا بقبر يستر رفاته ، فإنه لن يعدم سماء تغطيه ،

وحاشا لله أن يقال إن أشراف غرناطة خافوا أن يموتوا دفاعاً عنها».

وصمت موسى، وساد المجتمعين سكون الموت، ونظر الخليفة أبو عبدالله محمد بن أبي الحسن بن الأحمر، فإذا اليأس ماثل في تلك الوجوه التي أضناها الألم فصاح: «الله أكبر، لا إله إلاَّ الله محمد رسول الله، ولا رادّ لقضاء الله، إنا لله، لقد كتب عليَّ أن أكون شقياً، وأن يذهب المُلْك على يديّ».

وحين رأى موسى أن الجماعة قد أخذت فعلاً في توقيع صك التسليم، نهض غاضباً وصاح: «لا تخدعوا أنفسكم، ولا تظنوا أن الأعداء سيوفون بعهدهم. إن الموت أقل ما نخشى، فأمامنا نَهْبُ مدننا وتدميرها، وتدنيس مساجدنا، وتخريب بيوتنا، وهتك نسائنا وبناتنا، وأمامنا الجور والتعصب الوحشي، والسياط والأغلال، وأمامنا السجون والأنطاع والمجارف.. هذا ما سوف تراه تلك النفوس التي تخشى الموت، أما أنا فوالله لن أشهده!».

ثم خرج مدججاً بالسلاح من رأسه إلى قدمه، واخترق شوارع غرناطة على ظهر جواده، وكان مغلقاً خوذته شاهراً رمحه، وقد غرق جواده مثله في رداء من الصلْب، وما إن رأى الفرسان الاسبان حتى وثب إلى وسطهم وأنشأ يقاتلهم، فقضى على عدد منهم وأصيب بعدة طعنات فسقط إلى الأرض، ولكنه ركع على ركبتيه واستلَّ خنجراً وأخذ يناضل عن نفسه، ولما انهارت قواه وأدرك أنه سيقع أسيراً في قبضة الأعداء، ارتدّ إلى الوراء بوثبة أخيرة، وألقى بنفسه إلى مياه النهر، فدفعه سلاحه الثقيل إلى الأعماق!.

ولما وصل عبدالقادر بسيارته إلى رام الله قفز إلى الشارع وراح يصيح :

ـ المحاربون في القسطل بلا ذخيرة . . كل من يأتي ببندقية ورصاص أدفع له ثمنها نقداً ! .

ثم أخذ يركض في الشوارع حتى جمع بعض البنادق المتنوعة بين تركية وبريطانية وإيطالية ، وبضع حفنات من الرصاص ، وانطلق إلى ساحة المعركة وهو يردد :

﴿ فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتل في سبيل الله فيُقتل أو يَغْلِبْ فسوف نؤتيه أجراً عظيماً ﴾ .

وما هي إلاَّ ساعات حتى كان البطل يندفع مع رجاله وعلى رأسهم إبراهيم أبو دَيَّه وحافظ بركات ، فيقتحم حصون اليهود بصدره وجسمه ، ويقابل مدافعهم وطائراتهم بلحوم المجاهدين ودمائهم ، فجرح أبو ديّه وقتل ستة عشر من أفراد فرقته ، وحوصر عبدالقادر ومن بقي معه من الأبطال ، فأرسل أحد المجاهدين للبحث في الخطوط الخلفية لعله يجد بعض الذخيرة ، وكان المجاهد جريحاً تنزف الدماء منه ، فذهب ولم يعد لأنه مات على الطريق ! .

وتسامع الناس بأن اليهود يطوقون عبدالقادر ورفاقه ويكادون يقضون عليهم ، فهرع المجاهدون إلى المعركة من جميع الأنحاء ، فجاء مقاتلو الجهاد المقدس يقودهم قاسم الريماوي ، وحراس الحرم

الشريف وعلى رأسهم الحاج عبدالحميد المدني ، وشباب القدس وفي طليعتهم بهجت أبو غربية ومحمد عادل النجار ، وانضم إلى المعركة عبدالحليم الشلق مع جماعة من أهل الخليل ، ورشيد عريقات مع أناس من قرى الوادية ، وجمال رشيد مع جنود من جيش الانقاذ .

وروى عارف العارف أنه شاهد في إحدى القرى فتى راح يتوسل إلى أبيه الشيخ كي يسمح له بالذهاب إلى ميدان القتال بدلاً منه ، وأبى الشيخ في البدء إلّا أن يذهب هو ، ثم عاد فاستجاب لرجاء ولده وسلمه بندقيته قائلاً : « إذهب يا بني وعين الله ترعاك» كما شاهد أخوين كانا يتضاربان إذ رغب كل منهما أن يكون هو مع الذاهبين ، وما كانا ليختلفا لو كان معهما بندقيتان .

واستعرت المعركة ، واحتدم القتال ، واستعاد عبدالقادر الحسيني القسطل من أيدي الغزاة وغرس بيده المضرجة بالدم علم العروبة فوق أعلى نقطة فيها ، بعد أن قاتل فيها بيتاً بيتاً ، وشبراً شبراً ، وفرّ اليهود منهزمين تاركين خلفهم نحواً من مائتي قتيل .

وحين قاربت تلك المعركة الخالدة نهايتها في الثامن من نيسان (ابريل) ١٩٤٨ ، واطمأن قلب عبدالقادر الحسيني وعاودته ابتسامته المرحة المتفائلة ، خرج يهودي لئيم كان يتربص للبطل بين الأنقاض ، وأفرغ في صدره ما في رشاشه من رصاص ، فخر صريعاً وهو يبتسم لأنه حقق وعداً أخذه على نفسه ! .

لقد انتصر ومات . .

مات على رأس جبل القسطل ، ومن خلفه القدس ، قلب

العالم ، ومن أمامه باب الـواد حيث دارت أعنف المعارك ، وامتـزجت الدماء السورية والعراقية والفلسطينية والأردنية والمصريـة مؤكدة وحـدة الأمة العربية! .

وكان موته أروع انتصار له . .

فقد تحول البطل إلى أنشودة تتغنى بها فلسطين ، وقلّ أن تجد الآن بيتاً فلسطينياً أو خيمة تتـلاعب بها الـرياح ، دون أن تجـد على جـدار المنزل أو عمود الخيمة صورة ذلك الرجل المعتمر بالكوفية المرقـطة وقد تصالب على صدره حزامان جلديان معبآن بالرصاص يسميهـما فلاحـو فلسطين «السلحلك» . .

وذلك هو شأن الفدائي ، فهو في حياته قوي ، وفي موته أقوى! .

وحدث ما توقعه عبدالقادر الحسيني وآثر الموت عليه ، فإن المعركة التي خـاضتها الجيـوش العربيـة الرسميـة آنذاك ، لم تنجـح في تحريـر الأقسـام المحتلة من فلسطين ، بـل أضاعت أقسـامـاً جـديـدة أخـرى منها ، ولا سيما بعـد تورطهـا بقبول الهـدنة الأولى ثم الهدنـة الثانيـة ، اللتين سمحتا للأعداء بتأمين احتيـاجاتهم من الأسلحـة والمتطوعـين ، ومكنتاهم بالتـالي من احتلال الجليـل الشمالي بـأكمله ، بالإضـافة إلى عـدد آخر من المـدن والقرى الفلسـطينيـة التي لم تقتصر عـلى «حصـة» الأعداء وفق قرار التقسيم ، بل فاقتها كثيراً .

صور من التاريخ



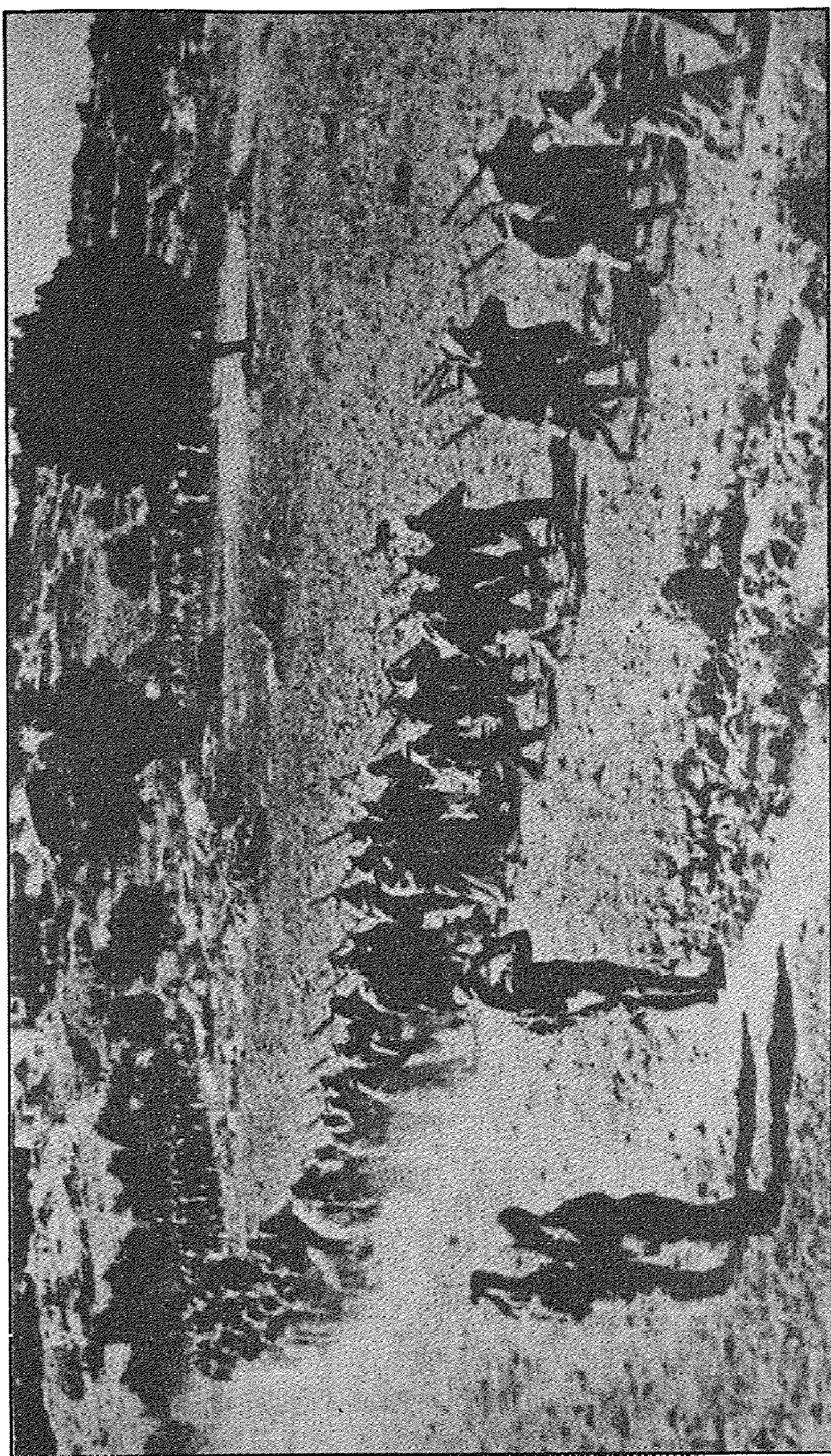
صورة تاريخية لابطال الجهاد المقدس



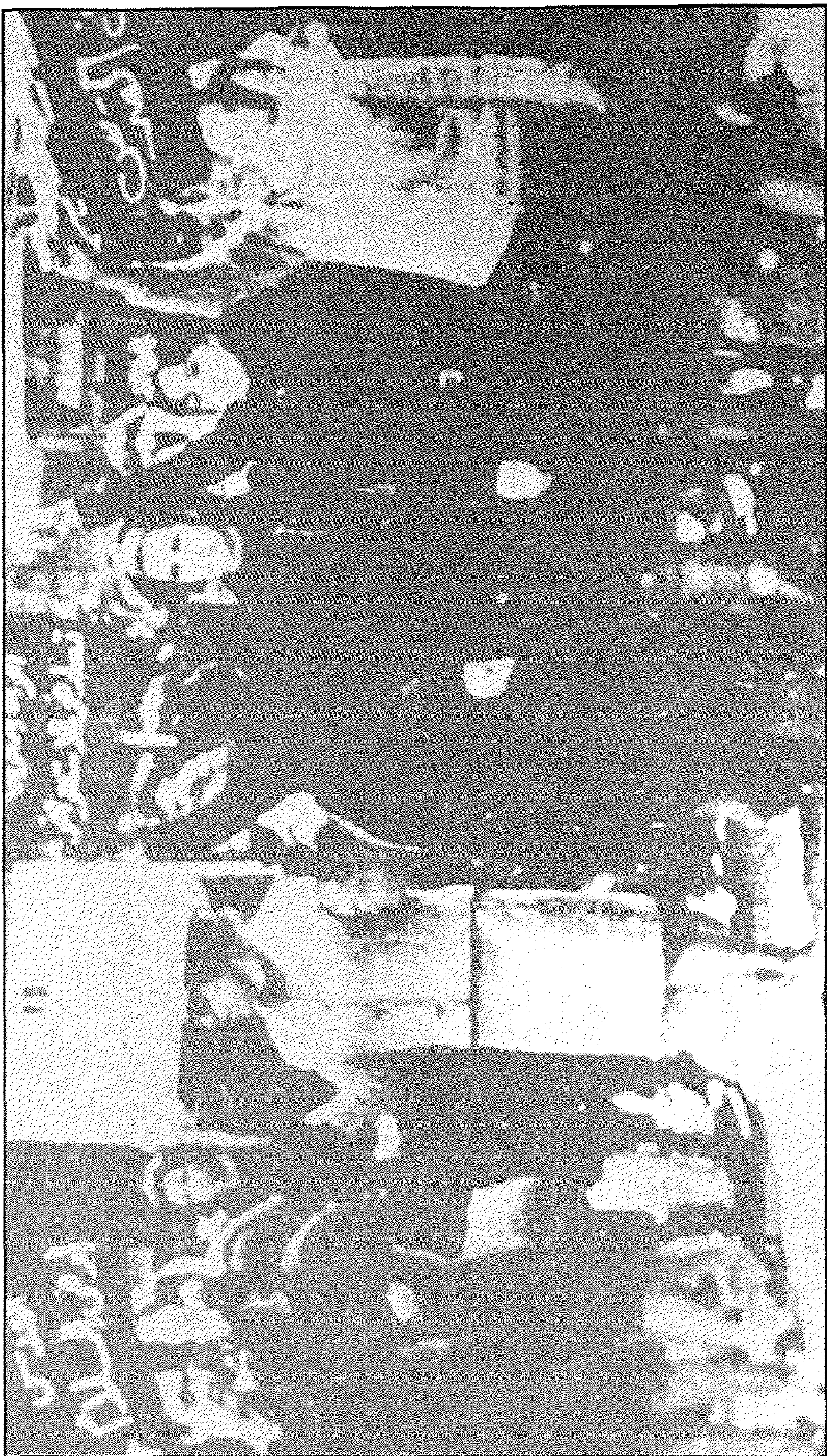
عبد القادر الحسيني. قائد منطقة القدس في جهاد سنة ١٩٣٦. وإلى جانبه ابن عمه المجاهد الشهيد السيد علي حسين سليم الحسيني يحمل بندقية واستشهد سنة ١٩٣٨



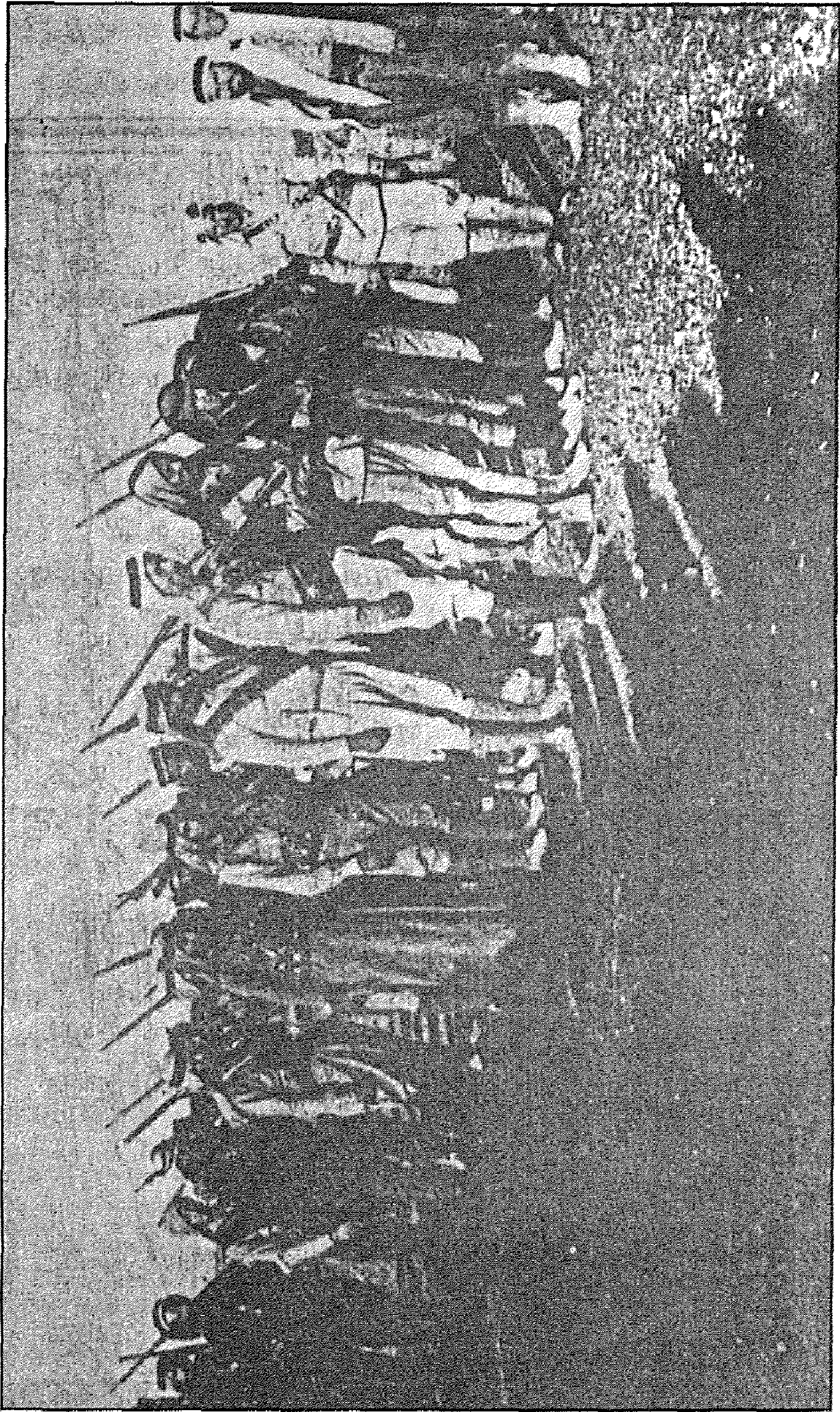
فلاح ربط الأنكليز اذنه بحبل وجعلوا يشدونه في قرية حلحول الخليل



القاوقجي يستعرض قواته في عام ١٩٣٦



نسوة فلسطين تظاهرن احتجاجاً على القمع البريطاني في فلسطين



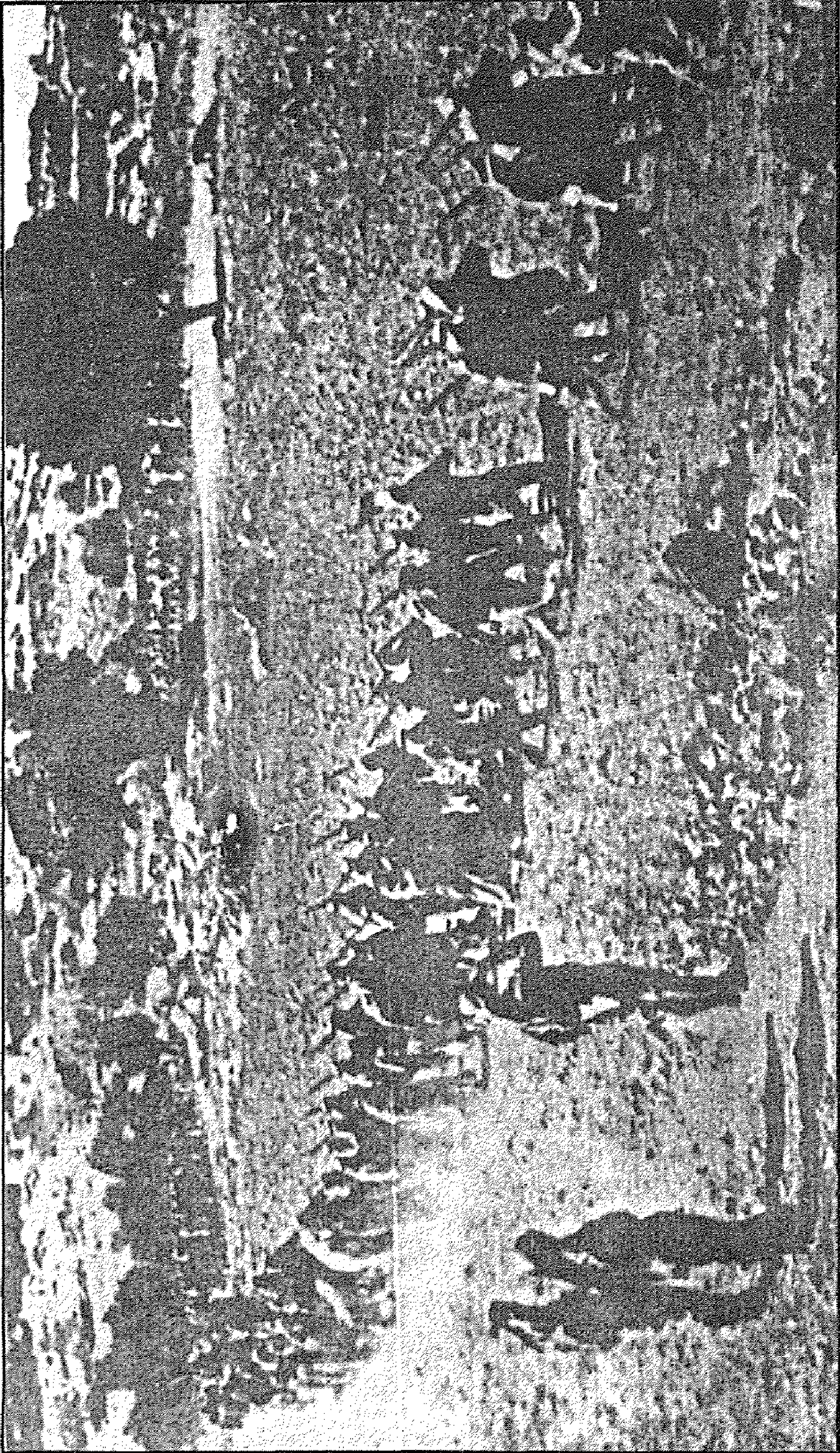
مجموعة من الثوار بقيادة الشيخ محمد الأشمر



مجموعة من المناضلين وأسلحتهم



فاطمة خليل غزال مع مناضلين آخرين



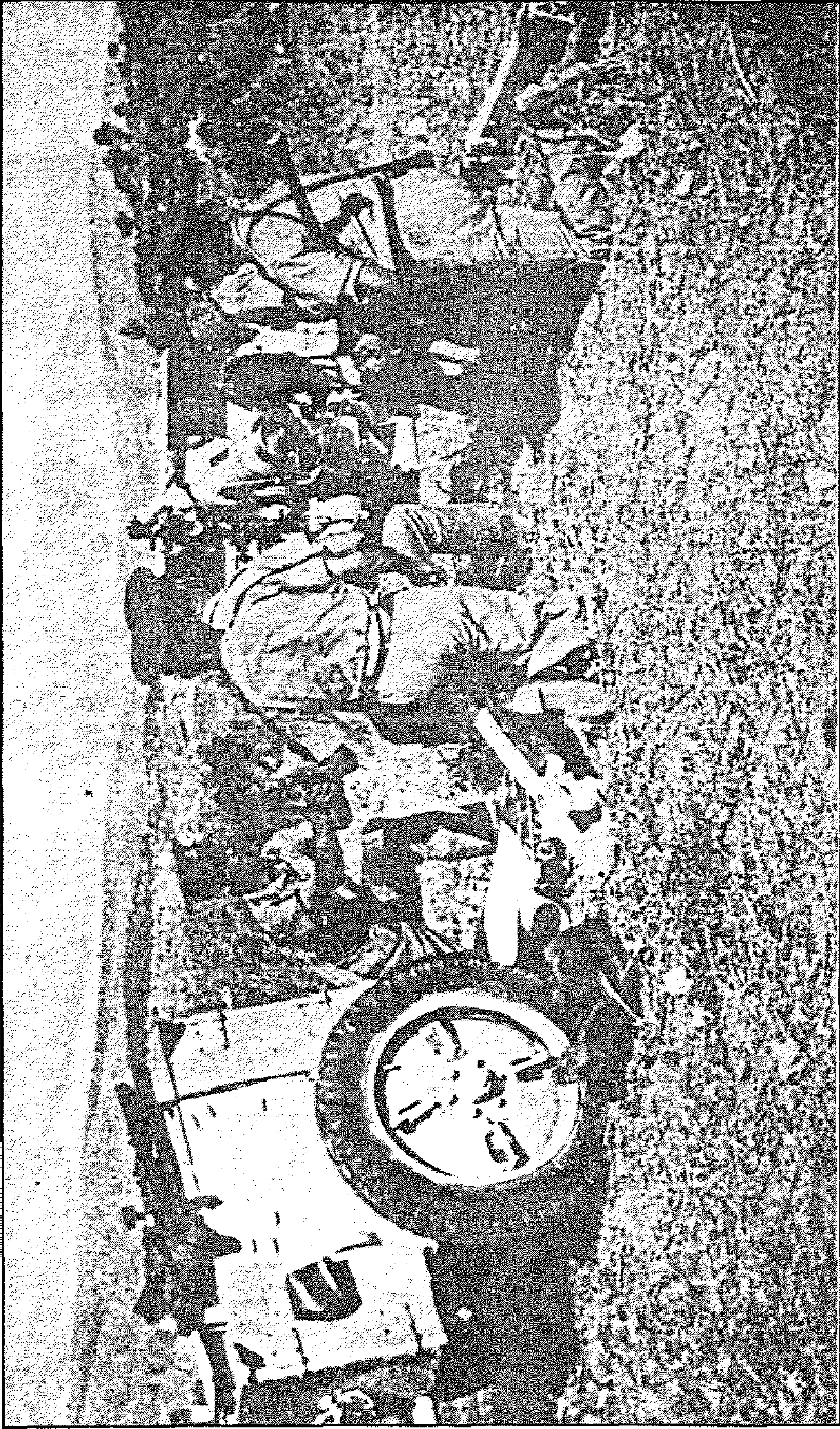
فرقة «الجهاد المقدس» في استعراض أمام القائد فوزي القاوقجي.



القائد العسكري عارف عبد الرزاق يتوسط حمد داود زواتا ومحمد عمر التوباني



مجموعة من المجاهدين تحت علم فلسطين وقد توسط مثلثه هلال وصليب



مدفع ميدان بريطاني



القائد يوسف سعيد أبو درة وحوله أركان حربه في
منطقة جنين ١٩٣٧ - ١٩٣٨

الفهرست

عبد الكريم الخطابي

بطل الريف
الذي حارب دولتين كبيرتين
بحفنة من الرجال

أكبر من الأهرام

قال صاحبي وقد سألته عما يجب زيارته أولاً وأنا أزور مصر للمرة الأولى :

ـ الأهرام طبعاً . .

فابتسمت وأنا أقول :

ـ كلا . . إن هناك ما هو أهم وأكبر من الأهرام . .

وأضفت قبل أن يعرب عن استنكاره ودهشه :

ـ هناك عبدالكريم الخطابي ! .

ـ الأمير اللاجىء إلى مصر ؟ .

ـ نعم . . أمير الجهاد . . الجهاد الذي سمعنا قصصه ونحن أطفال فشغل نفوسنا وألهب شعورنا . . وطالعتنا مواقعه في يفاعتنا حيثما فتحنا عيوننا أو أغمضناها . . وآن لنا أن نراه ونستمع إليه ونحس أن الأبطال هم من لحم ودم . .

وفي داره بحدائق القبة رأيت صورة من أحلامي تتخطى عالم الخيال إلى عالم الواقع ، وكان أول ما فاجأني أني كنت أتخيله طويل القامة عريض المنكبين مفتول العضل جهوري الصوت وغير ذلك مما يتحلى به فرسان الأساطير من صفات ، وإذا به قصير القامة ، نحيل البنية ، كثير الصمت ، خافت الصوت ، قد أضنته قسوة الكفاح ووحشة المنفى وفداحة الانتظار . .

وتحدث الرجل الكبير في إعياء هامس ، فإذا هو يؤمن بوحدة الوطن العربي وفي مقدمتها وحدة المغرب العربي الكبير ، وبأن استقلال الشعوب لا يحتمل المساومة والحلول الوسطى ولا يتم إلاَّ بالكفاح الدائب والجلاء الناجز . واستغرب أن ينسب إليه أنه طامح في الملك ، وقال : « ما الملك؟ ومن الملك حقاً؟ الملك في يقيني هو المجاهد الحر المؤمن بالله والوطن» وأضاف: «لو عرف الملوك أية لذة نستمتع بها في جهادنا لقاتلونا عليها بسيوفهم!».

وكانت الصحف تتحدث يومذاك عن تسلح العرب، هل يتم من الشرق أم من الغرب ، فقال : « إن السلاح الأول الذي يجب أن يتسلح به العرب لتحرير بلادهم ، لا يستورد من الغرب ولا من الشرق . . بل من هنا ». وأشار بيده إلى رأسه وأضاف: «ومن هنا . .» ووضع يده على قلبه ، واستطرد قائلاً في حزم : «السلاح الأول هو السياسة القوية المستقلة الرشيدة الصادرة من العقل ، يدعمها الإيمان الراسخ الصادر من القلب . . ولا يهم بعد ذلك أن نحصل على السلاح من الشرق أو من الغرب! . .».

وسألته : ما هي رسالتك إلى الأمة العربية؟

فأطلّت سنو عمره الخمسة والسبعون من عينيه في ابتسامة متعبة رقيقة وقال في صوت واهن : « ألاّ تتهاون باستقلالها ، ولا تهادن على بلوغه ، ولا تصدق أن دولة أجنبية تساعدها فيه إلاّ لمطمع ترتجيه أو مكيدة تبيتها . وإذا صدقت الأمة في الطلب صدقها الله في النصر!».

ولما غادرت منزل الأمير سألني صديقي : «كيف رأيت؟» فقلت بخشوع : «إني لقيت رجلاً كأحد صحابة الرسول تقي وورعاً ، وإخلاصاً وطهراً ، فهماً وبُعد نظر!».

المستعمرون يتقاسمون الشعوب

في شمال المملكة المغربية سلسلة جبال تمتد على شكل قوس بمحاذاة البحر الأبيض المتوسط ، من مضيق جبل طارق في الغرب حتى حدود الجزائر في الشرق . ويطلق على هذه الجبال الشاهقة اسم «الريف» كما يطلق هذا الاسم على الإقليم الذي تمتد فيه تلك السلسلة الجبلية الطويلة . وكانت الغالبية العظمى ، من قوات المسلمين التي فتحت الأندلس ، من رجال الريف . ولما هاجر العرب من اسبانية بعد سقوط غرناطة آخر معاقلهم فيها ، لجأوا إلى أقرب الموانىء المغربية إليهم ، وفي مقدمتها موانىء إقليم الريف وأهمها ميناء الحسيمة الذي اشتهر كقاعدة بحرية كان من رجال البحر المجاهدين فيها «الريس يحيى» الذي سماه الغربيون «سيد المضيق».

ولما احتلت اسبانية أميركا الجنوبية ، وتحوّلت إلى امبراطورية

كبـرى، دخلت في نزاع مـع المملكة المغـربيـة شـاركتهـا فيـه جـارتهـا البرتغال ، واستطاعت الدولتـان الاستعماريتـان احتلال طنجـة وسبتة ومليلة وحجر باديس وكلها تقع على سواحل الريف ، وانتقلت طنجـة وسبتة فيما بعـد من البرتغـال إلى انكلترا ، كبـائنة في عمليـة زواج بين الأسـرتين الحـاكمتـين فيهـما . وحـاولت فـرنسـا الحصـول من سلطان المغـرب على قـواعد بحـرية في الحسيمـة وجزر ظفـارين ولكنـه رفض إعطاءها هـذا الامتياز . وعنـدما كـان السلطان يتنازل عن أجـزاء من إقليم الريف بموجب المعاهدات التي يعقدها مع الدول الأجنبية ، كان أبناء الريف والمجاهدون البحـريون يقـاومون التسلط الأجنبي وكـأنهم يمثلون قـوة مستقلة في إقليمهم ، يسـاعـد على ذلـك ضعف السلطة المركزية في المملكة .

وفي سنة ١٨٣٠ احتلت فرنسا الجزائـر وبدأت تتـطلع إلى احتلال بقية أجزاء المغرب . وفي سنة ١٨٨٢ احتل الإنكليز مصر والسودان ، وأخذت اسبانية تهدد وتنذر مطالبـة بحصة من المستعمـرات ، فاتفقت الـدول الثلاث عـلى أن تترك لإسبـانية منـطقـة شمـال المغـرب ، وأن يوضع لمنـطقة طنجـة نظام دولي ، أمـا بقية المغـرب فيحق لفرنسـا أن تتوسع فيها مقابل عدم معارضتها للتوسع البريطاني في مصر . وهكـذا أرغم المـولى عبدالحفيظ سلطان المغـرب على تـوقيع معـاهدة الحمـايـة الفرنسية ، وبـدأت إسبانيـة التوغـل في قواعـدها العسكـرية في سبتـة ومليلة صوب الداخل لاحتلال إقليم الريف ، فواجهتها مقاومة عربيـة باسلة .

وكـانت قبيلة بني ورياغـل أكبـر قبـائـل الـريف ، وقـد اختـارت

عبدالكريم الخطابي أميراً عليها ، وهذا القاضي النابه الذي عرف بحكمته وحزمه هو والد عبدالكريم الخطابي الذي اشتهر بلقب بطل الريف. وقد عرف الأب أهمية بلاده من الناحية الاقتصادية وكثرة المعادن فيها ولا سيما الحديد، فأرسل ابنه الأكبر محمد إلى مدريد للتخصص في هندسة المناجم والمعادن ، أما ابنه الأصغر عبدالكريم فأرسله إلى جامعة القرويين في فاس لدراسة العلوم العربية والدينية والتخصص في الشريعة والفقه. ثم التحق بجامعة «شلمنكا» في إسبانية ونال منها شهادة الدكتوراه في الحقوق.

ولما عاد من إسبانية عينّ قاضياً مدنياً لمدينة مليلة ، وبينما كان ذات يوم يسير في أحد شوارع مليلة شاهد ضابطاً إسبانياً يضرب بالسوط عربياً ريفياً ضرباً مبرحاً ، والريفي يستغيث ولا يغاث ، فاحتد عبدالكريم لهذا المشهد ، وتقدم من الإسباني يسأله عن السبب الذي يدفعه إلى ضرب الرجل الأعزل بهذا الشكل الوحشي ، فأجاب بأن ابن الرجل قد بصق عليه بينما كان ماراً في السوق ، فحاول أن يهدىء من روعه ويردعه عن عمله المشين فلم يفلح .

وحين عاد الضابط الإسباني إلى منزله وجلس إلى المائدة بين زوجته وأطفاله ، صلى إلى الله قبل بدء الطعام شاكراً إياه على النعم والخيرات التي يغدقها على الإسبان ، أما عبدالكريم فلم يتناول ذلك اليوم طعاماً ، وإنما بادر إلى الالتحاق بأبيه ليقاتل الإسبان مع الثوار ، ثم اتفق مع عشرة من رفقائه وهاجموا أحد مخافر الإسبان الأمامية وقضوا على من فيه .

ولما أعلنت الحماية الإسبانية على شمال المغرب رفض عبدالكريم الخطابي الأب أن يقدم فروض الطاعة للجنرال خوردانا المندوب السامي الإسباني ، فاعتقل الجنرال عبدالكريم الابن وكان رئيساً للمحكمة الشرعية في مليلة تأديباً له . واستمر اعتقال الشاب أحد عشر شهراً ، ثم وضع تحت المراقبة ستة أشهر. وأثناء وجوده في السجن قرر الهرب بوساطة حبلٍ معلق على طرف حديدي مربوط ببرج القلعة ، فتدلى على الحبل ، ولكن الحبل لم يصل به إلى الأرض وبقي عبدالكريم معلقاً فترة من الزمن في الفضاء ، ثم رأى أن يقفز المسافة الباقية ، وكانت الريح شديدة عاصفة فلما ألقى بنفسه على الأرض سقط على رجله اليسرى فكسرت ، وبقي في مكانه فاقد الوعي فقبض عليه حرس المعتقل وأعادوه إلى زنزانته حيث حاول الطبيب بتر ساقه ، ولكنه رفض إجراء العملية مؤكداً أن ساقه سليمة . وقد أصيب من جراء ذلك بعرج خفيف لازمه طوال حياته كان يعالجه بعصا يعتمد عليها . وانتظر الأب حتى أفرج عنه وعاد ابنه الثاني من مدريد ، ثم أعلن الثورة ، ولكنه ما لبث حتى توفي أثناء زحفه على تافتريست سنة ١٩٢٠ ، فخلفه ابنه عبدالكريم الخطابي في رئاسة القبيلة وقيادة الثورة وكان حينذاك في سن التاسعة والثلاثين . وسرعان ما غدا هذا الاسم علماً للمغاربة يلتفون حوله ، ونبراساً يهتدون بهديه ، ومنارةً يستضيئون بنورها .

محاكمة قاضي القضاة

وقد روى عبدالكريم الخطابي قصة اعتقاله الطريفة باسهاب نلخصه في ما يلي :

أرسل والدي إلى الإسبان إنذاراً يهددهم به بأنه إذا لم تعدل إسبانيا عن سياستها الوحشية ، والكف عن إيذاء الأهالي في المنطقة التي يحتلونها شرقاً وغرباً ، فإنه سيعلن الحرب عليهم ، فبادرت السلطة إلى القبض عليَّ على الرغم من كوني قاضي القضاة في مليلة .

وقد تألف مجلس حربي لمحاكمتي برئاسة الجنرال إي أسبورو قائد القوات الإسبانية المحتلة في منطقة الريف ، فسئلت إن كنت من خصوم الحلفاء فأجبت بالإيجاب ، فضحك الجنرال وقال لي : « يا عبدالكريم أنا أعلم أنك رجل نبيل ومن أسرة معروفة ، ولكن ألا تعلم أن دولة إسبانيا تلتزم الحياد وأنت قاضي القضاة في منطقة الحماية؟» فأجبت بأن هذا لا يمنعني من القيام بواجبي الوطني ، وإذا كانت الوظيفة تمنعني من القيام بالواجب فأنا مستقيل منها ، فقال : «الاستقالة لا نقبلها نحن ولا تقبلها فرنسا» .

وهنا انتهت المحاكمة الصورية التي أعدوها لي ، إلَّا أنه لم تنقض ثلاثة أيام حتى اعتقلوني ، وقال لي الجنرال في السيارة التي أقلتني إلى المعتقل ، إن اعتقالي سببه استعداد والدي للثورة ، وهذا هو السبب في استدعائه لي ولأخي ليعلن الحرب ونحن في حمايته .

وبقيت في السجن سبعة أشهر ، ثم جاء من أسرَّ لي أن قضيتي نتيجتها البراءة ، لأن القاضي العسكري لم يجد مادة يدينني بها ، ولكني أبقيت في السجن بوصفي سجيناً سياسياً ورهينة عن والدي . فأعددت مع بعض الأصدقاء طريقة للهرب ، وقفزت في الساعة الحادية عشرة ليلاً من أعلى برج القلعة إلى الأرض بوساطة حبل معلق

على طرف حديدي مربوط به ، فتدليت مع الحبل ولكن الحبل لم يصل بي إلى الأرض ، وبقيت معلقاً فترة من الزمن في الفضاء . .

ثم رأيت أن أقفز المسافة الباقية ، وكانت الريح شديدة عاصفة، فلما ألقيت بنفسي على الأرض سقطت على رجلي اليسرى لأن الريح أثرت على توازني ، فكسرت من جراء ذلك رجلي ، وبقيت على الأرض فترة طويلة وأنا في حالة إغماء ، فلما حضر الأصدقاء الذين اتفقت معهم وجدوني على هذه الحالة ، لا أستطيع الوقوف ولا السير والدماء تنزف من رأسي التي أصيبت بعدة جراح ، فلما رأى الأصدقاء استحالة نقلي أو ركوبي على جواد أعدَّ لذلك، قرروا أني إذا واصلت السير معهم على هذه الحالة فلا بد أن أموت وأنا في المنطقة المحتلة ، ولذلك قرروا بقائي حيث أنا وبقي معي اثنان منهم .

فقلت لهم : «ليذهب أحدكم إلى حارس باب القلعة فيخبره بالواقع» فلما ذهب جاء الضابط مع جماعة من الجند ، فلما رآني ممدداً على الأرض اقترب مني وسألني : « ماذا بك يا عبدالكريم؟» فقلت له: «أنا مكسور الرِّجل ومهشم الرأس» فقال: «ما هو السبب؟» فقلت: «كنت أريد الهرب من السجن» فقال: «لماذا؟» فقلت: «لأنكم سجنتموني ظلماً من غير حق» فحملت على نقالة إلى مكاني القديم في المعتقل .

وقرر الأطباء بتر ساقي ، وأبلغوني أنهم تلقوا تلغرافاً من المقيم العام في تطوان ، بأن يعملوا على انقاذ حياتي بكل الوسائل وهذا غير ممكن إلَّا ببتر الساق ، فرفضت ذلك بإصرار وطلبت منهم الاكتفاء

بتجبيرها وأنا أتحمل مسؤولية العاقبة ، ففعلوا ذلك مضطرين ، وبقيت في الفراش قرابة شهرين حتى شفيت .

ثم فرض عليّ السجن الانفرادي ، وبحثت قضية هربي تمهيداً لمحاكمتي مجدداً لمعرفة المشتركين في تدبير محاولة الهرب ، وجاءني ضابط وقال لي : «يجب أن تطلب من والدك أن يكف عن حركته العدائية التي يواجهنا بها ، وإلاَّ فإننا سننقلك إلى سجن «ملقة» ونزج بك مع المجرمين» فأجبت بأني لا أستطيع أن آمر والدي بشيء بل هو الذي يأمرني وأنا مطيع له في كل شيء . . ومرّت عليَّ في السجن أربعة أشهر أخرى ، ثم وجد الإسبان ألاَّ طائل من سجني فأطلقوا سراحي وعدت إلى أجدير .

الثورة تنتقل الى الهجوم

لقد كان واضحاً منذ البدء أن ثورة الريف أضعف عسكرياً من القوة الجبارة المدربة والمنظمة التي حشدتها إسبانية لاحتلال شمال المغرب وزودتها بالآلات الحربية والسلاح الحديث ، ولكن رجال الثورة كانوا يمتازون بالإيمان بقضيتهم والدفاع عن أرضهم ، ويتفوقون بمعرفتهم لطبيعة هذه الأرض وشعابها ومسالكها ومخابئها ، أما السلاح والذخيرة فكانوا يحصلون عليها من العدو نفسه وفي أرض المعركة .

وكانت أولى المعارك الكبرى معركة أنوال ، فقد تقدم الجنرال سيلفستر في ربيع سنة ١٩٢٠ إلى غرب نهر القرط واحتل دار داريوس ثم تافاريست دون أن تعترضه أية مقاومة من قبائل بنو ورياغل ، فاعتقد بأن هذه القبائل قد خضعت وبأن المقاومة قد انتهت ، ولم يدر

أن عبـدالكريم الخـطابي كـان يستـدرجـه إلى داخـل المنـاطق الجبليــة المرتفعة ليقضي على قواته قضاءً تاماً .

ووصل الجنرال سيلفسـتر إلى انوال في ربيـع سنة ١٩٢١ فـاحتلها دون مقاومة تذكر ، على الرغم من تحذير الجنرال بيرنجـر القائـد العام له بأن تـوغله في الجبال مغـامرة كبـرى وأنه لن يتمكن من إرسـال أية نجدة له ، فقد أقسم أن يحتل بجيشه الذي يبلغ عدد جنوده ٢٤ ألفـاً بلاد بنو ورياغل كلها ويقضي على مقاومة عبدالكريم الخطابي نهائياً .

ومـا ان وصل سيلفسـتر إلى جبل عـران ، حتى بـدأ عبـدالكـريم هجومه على جميع المـواقع التي احتلهـا الإسبان في وقت واحـد . وكان قد وزّع رجالـه في كل مكـان ، وفي مراكـز تمكّنهم من اصطيـاد الغزاة دون أن يـراهم هؤلاء أو يكتشفوا مـواقعهم . فأنشـأت حاميـات تلك المواقع تستغيث بسيلفستر دون أن يستطيع نجدتهـا لاستحالـة الاتصال بها بعد أن سيطر الثوار على جميع الطرق المحيطة بها .

وكان وضع الحامية الإسبانية في المزيين أكثرها حـرجاً ، وقـد نفد منها الماء والمؤونة ،فبدأ بعض الضباط الإسبـان ينتحرون كي لا يعيشـوا المأساة حتى نهايتها . ولما استولى المجاهدون على هذا الموقـع ، لم يجدوا فيه سوى ضابط طبيب كان يعاني الجوع والعطش ، فسأله عبدالكـريم عن زملائه فقال :

ـ لقد ماتوا جميعاً ولم ينج منهم إلاَّ واحد .

فسأله : وأين هو؟ .

فقال : أنا . .

فقال عبدالكريم : ولماذا لم تسلموا لتنجوا من هذا المصير؟ .

فأجاب : إنها الأوامر يا سيدي ! .

وتولى سيلفستر الذعر ، فأمر أولئك الضباط بأن يحاولوا الإنسحاب من مواقعهم ، وركّز قواته في انوال ، وسرعان ما وجد أن انوال نفسها مطوقة ، فقرر الإنسحاب منها ، ولكن القوات الوطنية كانت له بالمرصاد فقد انقضّت على فلوله المنسحبة بفوضى شديدة ودون أي نظام ، ومزّقتها شرّ ممزق ، واستولى عبدالكريم على ١٣٠ موقعاً من المواقع التي احتلها الاسبان بعد أن فرّت حامياتها أو استسلمت له إثر محاولات فاشلة قامت بها قوات الجنرال بيرنجر والجنرال نافارو لانقاذها . وقد قتل في هذه المعركة ١٤٧٧٢ جندياً إسبانياً ، ووجدت بين القتلى جثة الجنرال سيلفستر وقيل إنه انتحر ، وغنم الثوار بحسب بلاغ وزارة الحربية الإسبانية ٢٩٥٠٤ بندقيات و٣٩٢ مدفعاً رشاشاً و١٢٩ مدفع ميدان وكميات كبيرة من الذخيرة والمؤن والمعدات الطبية ، كما وقع في أيديهم ٥٧٠ أسيراً افتداهم الإسبان بالمال .

وقد عرف عن عبدالكريم الخطابي أنه لا يحمل المال ولا يضعه في جيبه ، ولا يمسكه في حافظته ، ولا يتعامل به ، وإنما يترك كل ما يتعلق بالمال إلى غيره . ولما أرادت إسبانية أن تفدي الأسرى الموجودين لديه ، اتفقت معه على دفع فدية قدرها أربعة ملايين «بسيطة» وهي عملة إسبانية ، فلما أُحضر المال إلى أجدير جمع رؤساء المجاهدين وقال

لهم :

ـ انظروا في أمر هذا المبلغ وكيفية إنفاقه ، فهو لكم خالصاً ولا شيء لي فيه .

فأجابوا : أنت قائدنا وأنت الذي تأمر بإنفاقه حسب ما ترى.

فقال : إن هذا المال لكم باعتباركم المجاهدين المقاتلين في سبيل الله وإعلاء كلمته ، وما أنا إلاَّ واحد منكم .

فقالوا : نحن نعرف ذلك ولكننا لا نقبل أن نتصرف في شيء منه بدون رأيك وأمرك ، فأنت قائدنا في كل شيء وهذا المال مما وليناك عليه ، فانظر ماذا تأمر .

ثم اقترحوا تعيين أمين للمال يتولى شؤونهم المالية ، فوافق على ذلك على ألاَّ يتولى هذا المنصب أحد من أفراد أسرته ، فألحوا على أن يتولاه عمه عبدالسلام لأنه موضع ثقة الجميع ، فنزل على رغبتهم .

وهكذا تحول رجال عبدالكريم الخطابي إلى جيش لا ينقصه السلاح ولا المال ، وتحوّلت الثورة إلى حرب نظامية ، ورتب القائد مقاتليه منذ ذلك اليوم كتائب من المشاة والفرسان والمدفعية ، وعهد بالوظائف الفنية إلى المغاربة الذين سبق لهم أن خدموا في الجيش الفرنسي ، وراح ينازل خصومه حيثما وجدهم ويطاردهم في كل مكان ، كما عمل على تنظيم الإدارة المدنية والإفادة من بعض وسائل الحضارة العصرية بمد أسلاك الهاتف وشق الطرق واستعمال سيارات النقل ، وإرسال الوفود إلى العواصم العربية والإسلامية بقصد الدعاية

لقضية بلاده .

دولة عبدالكريم

تتابع المد الإسباني حتى بلغت القوات الإسبانية في شمال المغرب ١٥٠ ألف مقاتل في ١٠ كانون الثاني - يناير ١٩٢٢ ، بينما تابع عبدالكريم بسط نفوذه على جميع أنحاء الريف ، وتألفت في ذلك الإقليم دولة جديدة عاصمتها أجدير مسقط رأس الخطابي التي تبعد بضعة كيلومترات عن خليج الحسيمة . وبدا أن إسبانية تقبل الإعتراف باستقلال أمير الريف ، على أن يكون استقلالاً ذاتياً خاضعاً للإتفاقات الدولية التي أخضعت المغرب للنظام الاستعماري، فعرض السكرتير العام للمنظمة الإسبانية على الأمير كتابة في ١٥ تموز - يوليه ١٩٢٣ استقلالاً ذاتياً تحت الحماية الإسبانية وسيادة سلطان المغرب ، فرد الأمير برفض الحماية الإسبانية .

وأدركت إسبانيا بعد الخبرة أن تعدد مواقعها بحامياتها الصغيرة المنعزلة ، أمر بالغ الخطورة ، لأن هذه المواقع كانت محاطة بالقبائل المعادية ، وهي معرّضة في كل لحظة للوقوع في أيدي الثوار وحصول هؤلاء على الأسلحة والذخائر الموجودة فيها ، لا سيما وأن العديد من هذه المواقع قد استسلم للثوار دون مقاومة ، فبدأت عملية انسحاب عامة إلى الساحل ، إلاّ أن الثوار كانوا يطاردون الجنود المنسحبين ويفتكون بالكثيرين منهم . وقد جاء في التعداد الرسمي للحكومة الإسبانية أن خسائرها في الريف خلال الأشهر الستة الأولى من سنة ١٩٢٤ بلغت ٢١٢٥٠ قتيلاً وأسيراً .

وكانت خطط عبدالكريم العسكرية غاية في البراعة ، وكثيراً ما يجاري الإسبان ويظل في كرٍ وفرٍ معهم ، يتقدم تارةً ويتراجع أخرى ، لاعتقاده بأن طول الحرب في مصلحته ، وأن الإسبانيين سيضطرون عاجلاً أو آجلاً إلى مصافاته والاعتراف باستقلال بلاده ، رغبة في التخلص من نفقات الحرب ومن إرسال أبنائهم إلى مجزرة الريف . وقد أتت هذه الخطة بثمار طيبة ، لأنها جعلت مشكلة المغرب في مقدمة المشاكل التي تشغل السياسة الإسبانية . وكما كان لحرب الريف أعداؤها داخل إسبانية فقد كان لها أنصارها ، ومنهم الجنرال بريمو دي ريفيرا الذي أخذ على الحكومة تهاونها فأسقطها وتولى الحكم بنفسه ، ثم انتقل إلى تطوان ليشرف بنفسه على العمليات الحربية .

وكانت السلطة الإسبانية قد استطاعت استمالة زعيم منطقة «الجبالا» الشريف الرسولي للمحافظة على الهدوء في تلك المنطقة ، والتفرغ لمحاربة عبدالكريم . ولكن تعاون الرسولي مع المستعمرين أضعف من نفوذه في أوساط الشعب ، فلما زحف الخطابي على «الجبالا» في مطلع سنة ١٩٢٥ لم يقاومه سوى ملاك الأراضي والمواشي ، ولكنه سرعان ما حطم هذه المقاومة وصادر أراضي ومواشي كل من يتعامل مع الإسبانيين ، وألقى القبض على الرسولي وساقه إلى أجدير حيث مات بعد شهور قليلة . وبذلك تمت السيادة للأمير عبدالكريم على إقليم الريف دون منافس أو منازع في مساحة من الأرض تبلغ ٢٨ ألف كيلومتر مربع ويسكنها مليون من المغاربة ، وتوحدت الجهود والقلوب على العمل يداً واحدة وأسرة واحدة في سبيل الاستقلال والتحرر من رقبة الاستعمار ، وتدفقت جموع الثائرين

نحو الحواضر والمعسكرات ، تنشد الموت لكي تهب لوطنها الحياة .

ولم تنس الأعمال الحربية الأمير عبدالكريم أمر الاصلاحات التي تحتاج إليها البلاد ، فعمد إلى تنظيم ماليتها ، وأصلح الإدارة فيها ، ونظم شؤون التجارة والزراعة ، وأسس المدارس وأرسل البعثات العلمية إلى أوروبا ، وعني بإصلاح حالة الريف الصحية فأنشأ المستشفيات والمستوصفات ، وجلب الآلات الفنية وعمل على تعبيد الطرق وربطها بعضها ببعض ، فكانت هذه الإصلاحات نواة لنهضة قومية ثابتة في المستقبل .

وقد أتيح للكابتن كاننغ وهو أحد المغامرين الأجانب الذين التحقوا بعبدالكريم وقاتلوا تحت رايته ومعظمهم من جنود الفرقة الأجنبية بالجيش الفرنسي ، أن يعيش إلى جانب أمير الريف مدة طويلة ، فقال في وصفه : « إن قائد المغاربة ربع القامة ، حاد النظرات ، مفتول العضلات ، قوي البنية ، حلو الحديث ، متواضع إلى أبعد حدود التواضع ، يعيش عيشة الزهد المتقشف ، لا يقابل الناس إلّا نادراً ، وهو يترك لعمه وأخيه مهمة التحدث باسمه إلى كل من يرغب في مقابلته . شجاع إلى حد الجنون ، وكثيراً ما يضطر رجاله إلى إرغامه بالقوة على عدم الوثوب إلى الأمام في طليعتهم خوفاً على حياته . وله على أولئك الرجال سلطان ونفوذ لا يتصورهما عقل . تقي ورع لا تفوته صلاة ، يرتدي الثوب المغربي الوطني المصنوع من الصوف».

وقال الكاتب الإنكليزي وارد بريس وقد زاره في معسكره:

«عبدالكريم في العقد الخامس من عمره ، مشرق الوجه رغم غضونه ، براق العينين ، له نظرات النسر ، وسيم كأغلبية بني جنسه ، أجش الصوت ، جميل اليدين ، مهيب الطلعة ، وديع المحيا ، دائم البسمة ، يشعر المتحدث إليه بطمأنينة وعطف ، وقد حادثته طويلاً فوجدته رجلاً ذكياً حذراً غامضاً » .

المستعمر الفرنسي يشارك في القتال

وفي شهر أيار ـ مايو من تلك السنة بدأت القيادة الإسبانية تفاوض الأمير عبدالكريم على إقامة هدنة بينهما يستقل خلالها كل فريق بمنطقته . ولكن تطوراً جديداً على المسرح السياسي أوقف هذه المفاوضات ، وأنزل إلى الساحة عدواً جديداً ، وبات على المجاهدين أن يواجهوا غزو القوات الفرنسية كما يواجهون غزو القوات الإسبانية .

« كانت فرنسا قد وطدت سلطانها في الجزائر واعتبرتها بلاداً فرنسية ، وشرعت في محاولة لإقرار الأمر نفسه في المغرب ، متوسلة إلى ذلك بالتفريق بين العرب والبربر ، مدعيةً أنها تريد حماية هؤلاء من تسلط أولئك وتعليمهم اللغة الفرنسية وتطبيق القوانين الفرنسية عليهم وقطع صلتهم ببقية الأمة». وكانت «الجبالا» منطقة تسكنها في الأصل أكثرية بربرية ، إلَّا أن سكانها قد امتزجوا بالعرب بعد اعتناقهم الإسلام ، وتفاعلوا معهم طوال أجيال عديدة ، وانصهروا جميعاً في بوتقة وطنية واحدة ، وغدوا يؤلفون جزءاً لا يتجزأ من شخصية البلاد العربية الإسلامية . وقد كان عبدالكريم الخطابي نفسه متحدراً من أصول بربرية، ومع ذلك فما تحدث يوماً إلَّا عن الأمة العربية والعقيدة

الإسلامية . وهو يقول إن البربر لم يخرجوا عن كونهم عرباً أتوا من الجزيرة العربية منذ أزمان سحيقة عن طريق مصر .

وكان الفرنسيون يتابعون احتلال منطقة نفوذهم المغربية ، ومنها منطقة أعالي وادي الورغة التي تقع بين وزان وتازا . ولم يكن عبدالكريم ليعترف بذلك التقسيم الغاشم بين الفرنسيين والإسبانيين ، لا سيما وأن الخط الفاصل بين المنطقتين الفرنسية والإسبانية كان يمر وسط أراضي القبيلة الواحدة ، وبالإضافة إلى أن سكان أعالي نهر الورغة كانوا من قبائل الجبالا التي حررها من حكم الإسبان وضمها إلى دولته ، كان احتلالها من قبل الفرنسيين يحرم إقليم الريف الفقير اقتصادياً من مورده الأساسي للغلال والمنتوجات الزراعية . كما أن السلطة الفرنسية في المغرب كانت تخشى من امتداد ضرام الثورة إلى منطقة نفوذها وتعد العدة للقضاء عليها .

كان لا بد إذن من الاصطدام بين القوات الفرنسية والقوات الوطنية ، وقد بادر رجال الريف إلى الهجوم في ١٣ نيسان - إبريل ١٩٢٥ ، فتوغلوا في الخطوط الفرنسية وأثاروا القبائل العربية من خلفها . مما اضطر القيادة الفرنسية إلى إخلاء تازا من الأوروبيين ، حتى تتمكن من المناورة العسكرية بحرية ، ومع ذلك فقد استطاع عبدالكريم قطع السكة الحديدية التي تصل بين تازا وجرسيف .

الماريشال بيتان يقود المعركة

وقد أثارت الانتصارات التي أحرزها أمير الريف طوال ثلاثة أشهر على القوات الفرنسية المؤلفة من ٧٢ ألف وخمسمائة مقاتل ، حماسة

المغـرب بشمالـه وجنوبـه ، وإعجاب العـالمين العـربي والإسـلامي . فسارعت فرنسا إلى تعيين الجنرال ناولان قائداً عاماً لقـواتها في المغـرب تحت إمـرة المريشـال ليوتي ، ثم أرسلت المـاريشال بيتـان لـلاستعـانـة بخبرته وتوجيهه وتنفيذ العمليات العسكرية بقيادته وإشـرافه . فـأعلن ناولان في أواخر تموز ـ يوليه أن القوات الجديدة التي وصلته ستتيح لـه القيام بهجوم مضاد بالتعاون مع القيادة الإسبانية .

وبدأ الهجوم الكبير حقاً بعد أن وحّدت القيـادتان الاستعماريتان جهودهما وخططهما ، وكان بيتان قـد اقترح أن تقـوم إسبانية بالـزحف على أجديـر من الجبهة الشـرقية بـطريق أنوال ، وتقـوم فرنسـا بزحف مماثل من الجنوب . ومهدت المـدفعية الثقيلة للهجـوم فقصفت مراكـز الثوار قصفاً مروعاً . واستطاعت القوات الفرنسية أن تستعيد في الفترة الواقعة بين ١٠ أيلول ـ سبتمبر و٢٧ تشرين الأول ـ اكتوبـر ، المواقـع التي كـانت تسيطر عليهـا في شهـر نيسـان ـ إبـريـل قبـل أن يبـادرهـا عبدالكريـم بالهجوم .

وتلاقت القوات الإسبـانية الـزاحفة من مليلة بـالقوات الفـرنسية الـزاحفة من تـازا ، في سيدي الحسن في ٦ تشـرين الأول ـ أكتوبـر ، وتـأخّر تـلاقي تلك القوات الـزاحفة جنـوباً . ثم أقبـل فصل الشتـاء وغطت الثلوج قمم الجبال وأدى ذلك إلى توقف العمليـات العسكريـة في انتـظار فصل الـربيع . وكـان عدد القـوات الفرنسيـة قد بلغ ١٥٨ ألف جندي وعدد القوات الإسبانية ١١٨ ألف ، في حين كانت قوات عبدالكريم الخـطابي قد بلغت بعـد انضمام رجـال القبـائـل في المنطقـة

الفرنسية المحررة إليه ما يقارب ٨٠ ألفاً خسر منهم في معارك الخريف ٢٠ ألفاً وبقي إلى جانبه ٦٠ ألفاً من المجاهدين .

ولما اشتعلت نيران القتال في ربيع ١٩٢٦ ، وتجدد الزحف من الشرق والغرب ومن الشمال والجنوب ، كان التعاون تاماً بين القيادتين الفرنسية والإسبانية ، وكان الأسطولان الفرنسي والإسباني قد طوقا جميع السواحل التي يمكن أن تكون سبيلاً لوصول أية ذخيرة أو مؤونة للثوار ، في حين كان الإرهاق قد استولى على هؤلاء وعانوا الشيء الكثير من نقص التموين ، لا سيما وأن المزارعين المقاتلين لم يعملوا في أراضيهم ذلك العام لاضطرارهم إلى البقاء في مراكز القتال ، مما أدى إلى ضعف الانتاج ، ولم يعد المقاتل ليحصل على أكثر من رغيف من خبز الشعير يقتات به طوال يومه .

وعمد الجنرال بواشو الذي حل محل الجنرال ناولان ، إلى الخطة التي اعتمدها الأمير عبدالكريم حين كان يستدرج القوات الأجنبية إلى شعاب الجبال ، فأخذ يستدرج الثوار إلى السهول بعد أن عرف بحاجتهم للإنحدار إليها لتأمين عمليات التموين ، ثم ينقضّ عليهم ويمزّق صفوفهم بعد أن يفقدوا مزيتهم في حرب الجبال، كما لجأ إلى إرسال عدد من المغاربة المتعاونين معه للتغلغل بين القبائل ودعوة كل قبيلة فيها إلى عقد صلح منفرد مع السلطة الفرنسية أو السلطة الإسبانية مقابل تأمين حاجاتها الغذائية .

وامتدت جبهة القتال مسافة ٣٠٠ كيلومتر ، وقامت الطائرات الحربية خلالها بدور فعّال إذ كانت تلاحق القبائل الآمنة وتلقي عليها

القنابل كي تضطرها إلى الإستسلام وإعلان خضوعها للسلطة الاستعمارية ، ولم يمض وقت طويل حتى سقطت أجدير عاصمة عبدالكريم وغدا إقليم بنو ورياغل مفتوحاً للمستعمرين من أجدير إلى مليلة .

أمير الريف بين نارين

كان عبدالكريم الخطابي يحارب دولتين قويتين تملكان الجيوش والأساطيل والطائرات ، ولم يعد لديه من الرجل غير عصبة قليلة بعددها قد نفد زادها وعتادها ، تضغط عليها إسبانيا من الشمال وتهددها فرنسا من الجنوب ، وبات على يقين من أن هزيمته غدت أمراً منظوراً ، فرأى أن الحكمة تقضي عليه بالتوقف عن القتال رحمة بسكان الريف وقبائله أن تلمّ بهم ويلات حرب لا أمل فيها ، فتذهب بالبقية الباقية منهم ، وتؤدي بالبلاد إلى الخراب والدمار .

وأراد البطل المجاهد خوض معركة انتحارية على رأس فرقة فدائية من رجاله ، فلا يكف عن مقاتلة الغزاة حتى يسقط في ساحة الوغى شهيداً دفاعاً عن وطنه وأمته ، ولكن رفاقه منعوه عن ذلك ، وأقنعوه بالتفاوض مع الحكومة الفرنسية لإنهاء القتال ، فوافق على ذلك .

وكان الفرنسيون قد أدركوا حقيقة الوضع الحرج الذي صار إليه . وفي يوم ٢٤ أيار ـ مايو سنة ١٩٢٤ أوفدوا إليه رسولين بادراه بالسؤال :

ـ هل أنت مغلوب؟

فقال : لا . . إنني لا أزال أقاتل .

قالا : هل أنت مضطر إلى التسليم؟ . .

قال : كلا . .

قالا : بل أنت مضطر إلى التسليم وسوف تستسلم بلا قيد أو شرط . .

فقال : كلا . . بل سأستمر في القتال إلى أن أموت .

وعاد الرسولان من حيث أتيا ، ولكنهما لم يلبثا حتى رجعا إليه قائلين :

ـ إذا كان لديك شروط فاملها علينا . .

فقال : وأنتم هل عندكم شروط؟ .

قالا : نعم . . أن تعيد ما عندك من الأسرى الفرنسيين والإسبان ، وأن تستسلم بلا قيد أو شرط .

فقال : أما فيما يتعلق بالأسرى فإني أوافق ، وأما التسليم بلا قيد أو شرط فمحال . . نحن العرب لا نركع بل نموت واقفين ! .

فقالا : وإذا كان الأمان؟ .

قال : في هذه الحالة أقبل ولكن بالكتابة . .

وحينئذٍ عاد الرسولان إلى رؤسائهم ثم رجعا إلى معسكره بوثيقة مكتوبة تكفل الأمان له ولأفراد عائلته ورجال جيشه . وفهم من هذه الوثيقة أن الأمان معناه ألاّ يمسوا جميعاً بسوء ، وأن لا يُعدّ أسيراً بحال من الأحوال .

وعلى إثر ذلك أمر عبدالكريم الخطابي باطلاق سراح الأسرى ، ودخل خطوط الفرنسيين على جواده ليسلم سيفه للعدو بعد خمسة أعوام من الكفاح الوطني الباهر .

شجاعة فائقة.. ولكنها مرة!

يقول الدكتور جلال يحيى الذي درس حرب الريف دراسة مسهبة : «لا شك أن الأمير كان في موقف لا يحسد عليه . حقيقة أنه كان قد نجح في تنظيم رجاله وتسليحهم ، والنزول بهم إلى عمليات تمكن فيها من إبعاد قوات المستعمرين ، وتهديدهم في مناطق نفوذهم ، ولكن طول مدة الحرب ، وضعف الإمكانيات ، مع فرض الحصار البحري ، وزيادة عدد قوات الأعداء ، وتفوقهم في التسليح والتموين ومعدات الحملة ، كانت كلها عوامل في غير صالح أبطال الريف . لقد كان على هذا البطل أن يشرف بنفسه على إعداد الثوار وتنظيمهم ، ويشرف كذلك على عملياتهم ، وفي منطقة صغيرة وفقيرة ، وإن كانت غنية بروحها المعنوية وبنزعتها الاستقلالية . وكان عليه بعد ذلك أن يوفق بين العمليات الحربية ، وبين عمليات الانتاج الضرورية ، سواء أكان ذلك في ميدان الزراعة أم الرعي ، وحتى لا تنتهي الأقوات من المجاهدين ، وهم في خط على النار . وكان على أبطال الريف أن يقسموا أنفسهم بين العمل وبين الجهاد ، وكل ذلك في توافق وفي تكامل ، ومع أهداف محددة وبخطة متكاملة . ولكن طول مدة الحرب والتفاوت بين الإمكانيات المادية الموجودة أجبرته على التفاوض . وحتى في هذه العملية حاول الأمير أن يحصل على أحسن

شروط ممكنة ، لبلاده قبل أن تكون لنفسه . وكـان يعلم أن الاستمرار في الحـرب هي عملية انتحـارية واضحـة إذا ما استمـرت الحـرب إلى أطول من ذلك ، وأن معنى دخول القوات الإسبـانية والفـرنسية لنـزع السلاح من القبائل يعني الخراب والـدمار، والقتـل والسلب والنهب ، والسبي وهتـك الأعراض . لقـد كانت معـركـة ، وحتى آخـر وقت . وكان يديرها بنفسه ، ومع تلك الحفنة المؤمنة المخلصـة التي وقفت إلى جـانبه ، وبصفتهـا من أركان الحـرب ، ومن الـوزراء والمستشـارين ، وكان قد قام بكل ما يمكنه أن يقوم به ، وما دامت العمليات قد بدأت من جديد فعليه أن يوقفها . وما دام الفـرنسيون والإسبـانيون يعلقـون عـلى تسليمه شخصيـاً أهميـة كبـرى، فليسلم نفسـه حتى لا يستفـرس المستعمرون في أبناء البـلاد . ولا شك أنـه كان مـريراً عـلى نفس هذا القـائـد الـوطني والعسكـري أن ينسحب من إقليمـه ومن بـين أهله وجنوده . ولكنها كانت شجاعة فائقة منه أن يقوم بها».

ليل المنفى الطويل

ومـا كاد يـدخل مـركز القيـادة في ترجست حيث ينتـظره الجنـرال أيبوس والكولونيل كوراب والكولونيل جربيرو ، حتى وجد نفسه محاطاً بحراسة شديدة . وسأله الجنرال عن مكان عائلته وأخيه سيدي محمـد فقال لهم إنهم على بعد عشرة كيلومترات ، فأرسل الجنرال لإحضارهم مائتي دبابة وألفي جندي .

وخلال الأيام الثلاثة التي قضاها في تـرجست ، تجنب الفرنسيـون أن يواجهوه بأنه أسير، خوفاً من أن يتسرب النبأ إلى رجالـه فيستأنفـوا

القتـال ، ولكنه بـدأ يشك في نيـات الفرنسيـين ممـا رآه من حـركـاتهم وتصرفاتهم . ثم قالوا له إن عليه الاجتماع بالمقيم العام الفرنسي وهـو موجود في تازا . وفي تازا لم يجد المقيم العام ، فقالوا له إنه تعـذر مجيئه وإنـه سيجده في فـاس . وبقي في فـاس ثـلاثـة أشهـر تحت حـراسـة مشددة ، فأدرك أنهم يبحثون في مصيره .

وفي أحد الأيام قالوا له إن المقيم العام ينتظرك في الدار البيضاء ، ورحلوا به إليها ، ولم ير المقيم العام هناك بل إنهم تحـاشوا أن يـدخلوه المدينة ، وذهبـوا به في سيـارة مغطاة إلى المينـاء حيث نقلوه إلى السفينة التي أقلته إلى المنفى . ولم يسألهم عن كلمـة الشرف ، لأنـه كان يعلم أن المستعمر لا يفهم لهذه الكلمة معنى .

لقد كان الأمير يعتقد بأن فرنسا ستعامله وفقـاً لمقتضيات الشهـامة كخصم شريف قام بواجبه نحو وطنه عـلى أكمل وجـه ، ولكنها لم تـر فيه سوى الزعيم الثائر الذي يؤلف خطراً على سلطانها واستعمـارها ، فنفتـه مع أفـراد أسرتـه إلى جزيـرة ريـونيـون النـائيـة في أقصى المحيط الهندي على بعد ١٣ ألف كيلومتر من وطنه .

وطـال ليل المنفى عـلى البطل الأسـير نيفاً وعشـرين سنـة ، كـان يقضيهـا في القراءة والصـلاة وتدريس أولاده وبنـاتـه في تلك الجـزيـرة الصخرية المعزولة عن العـالم . وكان يشكـو إلى حاكم الجـزيرة المسيـو غوبيكي بين حين وآخر مـا يعانيـه وأفراد أسـرته من سـوء المناخ فيهـا وشدة الحر ، ويرجو السماح له بالانتقال إلى أي بلد عربي تختاره فرنسا لإقامته . ولكن فرنسا كانت تخشى أسيرها وترصـد حركـاته لئـلا ينقل

شعلة الحرية التي يحملها في صدره إلى أي بلد آخر ، وهو صابر على آلام الغربة ووحشة المنفى صبر الأبطال المجاهدين .

وكانت السلطة الفرنسية قد نفت معه إلى الجزيرة جميع أفراد أسرته وحاشيته ، وفي طليعتهم شقيقه محمد رفيق نضاله الذي خاض المعارك إلى جانبه كما قاد المجاهدين بنفسه في معارك أخرى. وكانت المخصصات التي تعطى لهم من حاكم الجزيرة ضئيلة لا تكفي لمعيشة هذه الأسرة الكبيرة ، فعمد عبدالكريم وأخوه إلى شراء مزرعة وأخذا يعملان فيها مع بقية أفراد الأسرة ، في زراعة الزهور ، وتصديرها إلى باكستان وغيرها من الدول الآسيوية ، فاستطاع الأسد الحبيس بذلك تأمين مورد كاف لإعالة الأسرة ، كما اتصل عن طريق المكاتبة بأصدقائه في العالم العربي بوساطة التجار الباكستانيين الذين كانوا يحملون رسائله ويأتونه بالصحف العربية ليظل على اطلاع دائم على تطور الحركة الوطنية في بلاده .

والواقع أن هذه الحركة لم تنطفىء شعلتها باعتقال الأمير ونفيه كما خيّل للسلطة الفرنسية ، وإنما استمرت صاعدة نامية متوهجة ، منذ تألفت جمعية «نجم شمال أفريقية» إثر اعتقاله سنة ١٩٢٦ ، إلى أن تسلم مشعل الكفاح ملك الاستقلال محمد الخامس.

وفي آذار ـ مارس ١٩٤٧ عندما اشتد الصراع بين فرنسا والحركة الوطنية في المغرب، وأمام تشدد الملك محمد الخامس في مطالبه الاستقلالية ، أرادت الدولة الفرنسية أن توحي لمحمد الخامس بأنها قادرة على استبداله بملك آخر هو عبدالكريم الخطابي ، فأمرت بنقل

المجاهد الأسير إلى فرنسا وأعدت له منزلاً لائقاً وموازنـة سخية ، ومن عجائب القدر أنه في الوقت الذي أعلنت فيه فرنسا نقـل زعيم الريف من منفاه ، كان المـاريشال بيتـان الذي ظفـر به أسيـراً ، يعاني مـرارة السجن بعد اتهامـه بخيانـة وطنه وتعـاونه مـع المحتلين الألمان والحكم عليه بالاعتقال مدى الحياة .

وتجمع عدد من المغاربة في مرسيليا للتـرحيب به ، ولكن البـاخرة كاتومبـا التي أقلته من ريـونيون عن طـريق قناة السـويس تأخّـرت عن موعدها ، ثم وصلت دون الأمير . فقد انتهز عبدالكريم الخـطابي هذه الفـرصة وأبلغ أفـراد أسرتـه أنه سيغـادر الباخـرة في بـورسعيـد ، فلما وصلت إلى هذا الميناء أخذ بعض الركاب ينزلـون منها وعمـال الشحن ينزلون بضائعهم ويرفعون إليها البضائع المشحونة ، فتظاهر الأمير بأنـه يريد زيارة المدينة كما صنع في عدن حين زارها وعاد إلى الباخـرة . ولما وصـل إلى دار الحكومـة في بـور سعيـد ، قـدم نفسـه إلى محـافظ قنـاة السويس فؤاد شيرين ، ودوّن أمـامه طلبـاً للالتجـاء السياسي إلى مصر وطلب الحماية المصرية . فرحبت به الحكومة المصرية ، وعمّت الفرحة جميـع أنحاء الـوطن العربي بعـودة الأسد من أسـره إلى أرض العروبـة والإسلام .

في القوة العادلة جمال

وبدأ عبدالكريم الخطابي يعمل في مصر كل مـا يستطيـع من أجل وطنه المعذّب المقطع الأوصال . وكان أول ما قام به تأليف «لجنة تحرير المغرب العربي» لمكافحة الاستعمـار الفرنسي في بـلاد المغرب. وكـانت

رؤيته لهذا الكفاح تقوم على النضال المسلح الذي ينبثق من وجدان الشعب ولا يتوقف حتى يحقق الاستقلال التام ، كما تقوم على وحدة هذا النضال بين شعوب المغرب الثلاثة : تونس والمغرب والجزائر التي يجب أن تتألف منها بعد التحرير دولة عربية واحدة هي دولة المغرب الكبير.

ومما جاء في البيان الذي أذاعه في ذلك الحين قوله : « . . إذا كانت الدول الاستعمارية على باطلها تحتاج إلى التساند والتعاضد لتثبيت سيطرتها الاستعمارية ، فنحن أحوج إلى الاتحاد وأحق به من أجل إحقاق الحق وتقويض أركان الاستعمار الغاشم الذي كان نكبة علينا ، ففرق كلمتنا ، وجزأ بلادنا ، وابتز خيراتنا ، واستحوذ على مقاليد أمورنا ، ووقف حجر عثرة في سبيل تقدمنا ورقينا ، ثم حاول بكل الوسائل أن يقضي على جميع مقوماتنا كأمة عربية مسلمة . .

«ويسرني أن أعلن أن جميع الذين خابرتهم في هذا الموضوع من رؤساء الأحزاب المغربية ومندوبيها بالقاهرة ، قد أظهروا اقتناعهم بهذه الدعوة واستجابتهم لتحقيقها ، واقتناعهم بفائدتها في تقوية الجهود وتحقيق الاستقلال المنشود».

وأعلن في هذا البيان مبادىء الميثاق الذي أقره قادة المغرب العربي ، ومن هذه المبادىء :

* المغرب العربي أمة مسلمة .
* وهو جزء لا يتجزأ من بلاد العروبة.
* الاستقلال المأمول للمغرب العربي هو الاستقلال التام لكافة

أقطاره الثلاثة .

* لا مفاوضة مع المستعمر في الجزئيات .

* لا مفاوضة إلّا بعد إعلان الاستقلال .

* إن حصول قطر من الأقطار الثلاثة على استقلاله التام لا يسقط عن اللجنة واجبها في مواصلة الكفاح لتحرير البقية .

والتزم عبدالكريم الخطابي بهذه المبادىء وناضل من أجلها حتى الساعات الأخيرة من حياته المضيئة ، وغدا منزله في حدائق القبة بالقاهرة مركز استقطاب وتنظيم وتوجيه للقوى التحررية في الوطن العربي عامة وبلاد المغرب خاصة . ونعمت عينا المجاهد برؤية بلاد المغرب وتونس والجزائر تتحرر وتستقل ، وإن لم ينعم بالوحدة التي كان يحلم بها ، وتوفي في سنة ١٩٦٣ وهو في سن الحادية والثمانين .

وكتب الكاتب الفرنسي جان لاكوتير إثر وفاته ، وكان يعرفه معرفة وثيقة: « . . ومما يدعو إلى الدهشة حقاً أن نستمع إليه وهو يقول « عندنا . . » حين يتحدث عن أي مكان في المغرب العربي ، في وقت كانت تسيطر فيه الروح الإقليمية . وقد كان عبدالكريم الرجل الأول في المغرب ، ربما منذ عهد الدولة الموحدية ، الذي لم تفصل عنده أية حدود بين البلاد التي تمتد من رأس سبارتل إلى جربة ، ومن رأس بتنة إلى ايفني . وليس من الهيّن أن نفاجأ بوفاته في وقت تبذل فيه أولى محاولات القضاء على الخلافات ، وعسى أن تكون لوفاته قيمة الرجوع إلى الحكمة والصواب».

وأعود إلى ذكرياتي مع عبدالكريم الخطابي، فأرى من خلال

السنين صورته الرقيقة الشفافة وهو يتحدث إليَّ بصوته الهامس المؤثر فيقول :

« إن إيماني بالقوة الجبارة الكامنة في الروح العربية لم يتطرق إليه الشك في يوم من الأيام ، ولا يعادل إيماني بقوة هذه الروح إلاَّ اعتقادي بأن في القوة العادلة جمالاً . وعندما أقارن بين صورة الوطن العربي في عهد شبابي وبينها في الوقت الحاضر، أجد البون شاسعاً والفرق كبيراً . كان عدد الذين يتنادون إلى مقاومة الظلم جد قليل ، والوعي القومي يشوبه الغموض ، ومظاهر الإنحلال والضعف تحجب كل ما من شأنه أن يبعث الأمل في النفوس ، فحينما اتجهت في البلاد العربية كنت تجد التجزئة تساعد الأجنبي على احتلال الأرض وامتلاك الرقاب ، وتجد المواطنين محرومين من أبسط الحقوق الطبيعية للإنسان ، والرأي العام مسلوب الإرادة ضعيف الضمير لا يوجه وطنياً ولا يرهب عدواً . . أما اليوم فقد تبدلت الأحوال ، وقوي الشعور بالكرامة واضطرمت نار الوطنية في نفس كل عربي ، وتمكن فيها الوعي القومي، وتكون رأي عام عربي قوي المعنويات ، يحاسب المخطىء على خطأه ، ويوقف الظالم عن التمادي في ظلمه ، وتوطدت أركان الوحدة بين البلاد العربية واتصل ما كان قد انقطع بينها . . .

لقد شعرت دائماً بأن تلك الصورة المظلمة التي كنت أراها في شبابي ، شعلة متأججة لا تلبث حتى تبدد كل ما يحجبها من سحب قاتمة . . وقد دنا أجلي الآن ، ولكني أموت مطمئناً لأني قوي الثقة بالجيل الواعي الجديد وشديد التفاؤل بالمستقبل» .

صور من التاريخ
للبطل عبد الكريم الخطابي









عبد الكريم الخطابي وأخوه محمد

الفهرست



حكايات الأيام الماضية لأبناء الأيام الآتية

سعيد العاص

زرع نجوما من دمه
في تربة الوطن العربي

لاجىء من الأناضول

كان البؤس مشهداً مألوفاً في المدن السورية خلال الحرب العالمية الأولى وفي أعقابها ، يطالع المرء في الوجوه الشاحبة والعيون الذابلة والثياب البالية ، ويلقاه في الكنائس والجوامع والساحات العامة حيث يرقد عدد كبير من المشردين ، ويتسكع أمامه على قارعة الطريق مع ألوف المتسكعين من الرجال البطالين والنساء الجائعات والأطفال الذين فقدوا الأهل والمأوى وضاق بهم المجتمع فهاموا على وجوههم في دروب للحياة بلا هدف ولا أمل ، يقتاتون بالحشائش وقشور الخضار التي يلتقطونها من بؤر القمامة .

ولم يكن مما يلفت النظر أن يأتي إلى مدينة حلب لاجىء جديد أو متشرد ضال ، ولكن الذي أثار الانتباه أن هذا المتشرد الممزق الثياب الحافي القدمين الذي وصل إلى حلب في ذلك اليوم البارد من أيام الخريف سنة ١٩١٩ ، كان يزعم أنه هارب من أحد السجون التركية ، وأنه يدعى سعيد العاص .

لقد كان الناس يعرفون أن ثمة شاباً يدعى سعيد العاص من أسرة شهاب في حماه ولد سنة ١٨٨٩ ، وتخرج من الكلية الحربية في استانبول سنة ١٩٠٧ واشترك في حرب البلقان ، ثم انتسب مع عدد من الضباط العرب الاحرار إلى حزب العهد الذي تألف برئاسة الفريق عزيز المصري للمطالبة بحقوق العرب في الحرية والاستقلال ، وعلم السفاح جمال باشا بأمرهم فاعتقلهم مع عدد من قادة الحركة الوطنية وأحالهم إلى المحكمة العسكرية في عاليه فأصدرت عليهم حكماً بالإعدام .

ويقف شاب طويل القامة ذو شارب رفيع وعينين صغيرتين ، فيطيل النظر في المتشرد الذي تهالك على حافة الرصيف تحت شجرة زنزلخت ، ويقول له ساخراً :

ـ هل أنت الرجل الذي يزعم أنه سعيد العاص ؟

فصعّد الرجل بصره إليه ، ويشعر بالضيق الشديد ، ولكنه يكظم غيظه ويجيب بهدوء :

ـ نعم . . أنا هو !

ويقول الشاب متحدياً :

ـ ولكن سعيد العاص حكم عليه بالإعدام ؟ .

ويزداد غيظ الرجل ، ويتردد في الإجابة ، ثم يقول .

ـ نعم . . ولكني مرضت ، وإذا شئت فإني تظاهرت بالمرض ، فأُنزل

الحكم الصادر بحقي إلى السجن المؤبد ، وأرسلت إلى بلاد الأناضول وبقيت في أحد سجونها حتى انتهت الحرب ، وسادت الفوضى واضطرب الأمن فانتهزت فرصة مؤاتية وهربت . . وأتيت إلى هنا سيراً على الأقدام . .

ويتأمل الشاب في ثياب الرجل الممزقة والحذاء التي تبرز منه أصابع قدميه ، والشحوب الذي يبدو على وجهه ، ثم يقول :

ـ لا ريب في أن التعب قد أجهدك . .

فيرفع المتشرد بصره إليه ولا يجيب . . ويستطرد الشاب قائلاً :

ـ ولا ريب في أنك جائع . .

فيستمر المتشرد في صمته وألمه المكبوت . . ويفكر الشاب طويلاً ثم يقول :

ـ تعال معي الى مقر الحاكم الذي عيّنه الملك فيصل ملك دولتنا العربية الجديدة ، فهو يفصل في أمرك !

وينطلق الرجلان الى الحاكم . .

الثائر غضبان

وما هي إلاّ أيام ثلاثة تنقضي بعد ذلك حتى يعين سعيد العاص ضابطاً في الجيش العربي ،وتنطوي من ثمّ صفحة رائعة من حياة هذا الثائر الفذ ، وتبدأ صفحة جديدة ولكنها قصيرة الأمد إذ لا يلبث الحكم العربي المستقل أن ينهار أمام العدوان الفرنسي ، ولا يكتفي

المتآمرون الذين اجتمعوا في عصبة الامم بتمزيق الوطن العربي ، فيعمد الفرنسيون إلى تمزيق القطر السوري ذاته : إلى أربع دويلات : دولة حلب ، ودولة العلويين ، ودولة دمشق ، ودولة جبل الدروز .

وتشتعل الثورات في جميع أنحاء سوريا احتجاجاً على التقسيم المفتعل وعلى الإحتلال الجائر . ويغضب سعيد العاص للمؤامرة التي حيكت على العرب ، والجريمة التي اقترفت بحقهم ، إذ استولى الحلفاء على بلادهم بعد أن وعدوهم بالوحدة والاستقلال ، فيلتحق بثورة الشيخ صالح العلي في جبال العلويين ، ثم بثورة إبراهيم هنانو في أقضية حلب ، ويسجل في كل منهما آيات من الشجاعة والبطولة والاقدام .

وعرف سعيد العاص في غمار هاتين الثورتين الشعبيتين باسم « غضبان » .. وكان الأطفال في جبال العلويين وقرى حلب ، يلفظون هذا الاسم بزهو واعجاب ، لكثرة ما سمعوا في مجالس آبائهم من الأقاصيص التي تروى عن شجاعته في التصدي للمستعمرين ، بينما كان رجال الانتداب الفرنسي يرددون اسمه برعب وغيظ ورغبة شديدة في الإنتقام .

ويعود سعيد العاص بعد خمود الثورتين الى حماه مسقط رأسه ، ويعيش فيها آمناً فترة من الزمن . ولم يكن الفرنسيون يعرفون أن الثائر الذي روّعهم وأقض مضاجعهم ، يعيش هادئاً مطمئناً في حماه ، حتى جاء من يشي به وينبىء المستعمرين بأن « غضبان » الذي يطلبونه ويبحثون عنه إن هو إلاّ سعيد العاص ! .. فيقبض عليه ويحاكم ،

ولكن عبثاً حاول القضاة إثبات التهمة بالوثائق والبينات ، فقد اقتنعوا بصدق التهمة ولكن أعوزهم البرهان ، واضطروا آخر الأمر إلى إطلاق سراحه لعدم توافر الأدلة بحقه ، فاغتنمها فرصة سعيدة وغادر سوريا إلى عمان .

الثورة السورية

وفي عمان عين سعيد العاص ضابطاً في الجيش الاردني برتبة عقيد وظل يعمل فيه حتى طلب منه الذهاب إلى الحجاز للاشتراك في القتال ضد الملك عبد العزيز ، فاستقال منه لأنه لا يستطيع المشاركة في قتال جيش عربي ضد جيش عربي آخر ، وكانت الثورة قد انفجرت في جبل الدروز فالتحق بها مع غيره من المجاهدين الذين انضموا إليها من جميع أنحاء القطر السوري وعلى رأسهم حسن الخراط ومحمد الأشمر .

وقد بدأ القتال قبل أن يحصل على بندقية ، بمسدس حربي من طراز برابيللو اشتهر به ، وابدى من البسالة ما أثار الإعجاب ، وعمل على نقل المدفع الوحيد الذي بقي للثورة لاستخدامه ضد الدبابات ، وابلى بلاءً حسناً في المعارك التي خاضها الجبل ضد حملة الجنرال غاملان ، وحدث في إحدى المعارك أنه كان يقاتل إلى جانب المجاهد فؤاد سليم ، فجرح هذا جرحاً طفيفاً ، وخرقت رصاصة بطن الفرس الذي يمتطيه سعيد العاص ، ونفذت من الجانب الثاني دون أن تصرعها ، وأصابت رشة من الرصاص « المطرة » المتدلية إلى جانب سعيد فثقبتها في ستة مواضع وَسَلِمَ القائد العاص .

وحين اشتد ضغط القوات الفرنسية على الجبل قرر زعماء الحركة الوطنية توسيع نطاق الثورة حتى تشمل غوطة دمشق وجبل قلمون والمناطق الشمالية، لتخفيف الضغط عن الجبل وتحولها إلى ثورة وطنية شاملة هدفها استقلال سوريا الموحدة . فانتقل سعيد العاص ورفاقه في ٦ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٤٥ الى بساتين الغوطة إحدى جنات الأرض ، وخاضوا فيها أعنف المعارك ، وقاموا بأروع الادوار ، وانضم اليهم المجاهدون من كل مكان .

وكان أهم أعمالهم مهاجمة مخافر الدرك والشرطة والاستيلاء على ما فيها من الأسلحة والذخائر ، وقد حدث مرة أن اقتحموا مخفر باب المصلّى في الشاغور بدمشق ، وكان فيه شرطي ففر إلى السطح في عتمة الليل ، وربط نفسه من تحت إبطيه بحبل وجده هناك ، بعد أن خلع ملابسه الرسمية حتى لا يعرفه الثائرون إذا ما وقع بأيديهم ، وتدلى إلى خلف المخفر بثيابه الداخلية يريد الفرار من البستان الخلفي ، ولكن الحبل كان قصيراً والمسافة التي تفصله عن الأرض كبيرة ، فخشي أن تتكسر عظامه إذا قفز من هذا العلو الشاهق ، وظل معلقاً أنقذه زملاؤه في الصباح بعد أن كاد يهلك من البرد .

ثم امتد لهيب الثروة إلى مدينة حماه ، فانتفضت على المستعمرين في معارك لاهبة اضطرت الجنرال غاملان إلى سحب جيشه من السويداء عاصمة الجبل بعد أن احتلها واتخذها مركز انطلاق لاحتلال الجبل بأسره ، ولكن ثورة حماه اضطرته إلى نقل معظم قواته إليها في محاولة عسيرة لقمع الثائرين .

وقد مثل فوزي القاوقجي دوراً بارزاً في هذه الثورة الرائعة ، إلا أن معظم أبطالها كانوا من أفراد الشعب ، وقد أخمدوا نيران المدفعية الفرنسية واصابوا طيارتين ، فسقطت إحداهما وهي تتأجج ناراً وتلتهب سعيراً بالقرب من حماه ، وسقطت الثانية في أطراف الخط الحديدي جنوبي المدينة ، ولكن جنود الاستعمار أنزلوا بحماه الواناً من الهول فلم يبق بيت فيها إلا أصيب من سكانه برجل أو امرأة أو طفل ، وكان من أبرز شهدائها الدكتور صالح قنبار الذي أصيب برصاصتين في رأسه بينما كان يقوم بواجبه الإنساني في مداواة الجرحى .

في غوطة دمشق

وبينما كانت مدينة حماه تشتعل ، كان سعيد العاص يزحف على الأعداء في غوطة دمشق مع إخوانه المجاهدين ، تحت ظلال أشجار الحور في بساتين الغوطة ، واصواتهم المهللة المكبرة تخترق الأجواء وتملأ الفضاء ، وقد أثاروا حماسة المواطنين بهذا المشهد البطولي الرائع الذي ينسجم مع جمال الطبيعة وجلالها . .

ونستطيع أن نتصوره وهو يلوذ مع أصحابه ببقعة قصية من الغابة ليأخذوا قسطاً من الراحة ، فيجمعون كمية من « الشيح » ويشعلونها ليتدفأوا حول هذه المدفأة الطبيعية ، ثم يرقدون بجانب النيران المستعرة ورائحة الشيح تعبق مع ألسنة النار فتعطر الغابة وتنعش الافئدة .

وربما رأينا هؤلاء الثوار الاشداء يسيرون وراء طفل صغير من السكان ، وقد حمل الطفل قصبة طويلة وضعها على كتفيه كالبندقية ، وسار في طليعة الجماعة المجاهدة ليدلها على مكمن العدو أو يهديها إلى مخبأ ذخيرته ، وهو ينشد باعتزاز :

يا أمي بيعي الحصيدة واشتريلي بارودة
بدي قاتل هالعدو بالعصا والحديدة
ما حدا بياخد بلادي هالأبية العنيدة

ولا بد من أن نراه مرة ومرات وهو يقوم مع إخوانه بتخريب قضبان السكة الحديد ، لعرقلة مواصلات الجيش الفرنسي ، وقد تعالت أصوات المطارق في سكون الليل فكان لها في النفوس وقع أفعل من وقع الأنغام الشجية ، وأرسل القمر أشعته الفضية على اولئك المجاهدين الأشداء وهم يضربون القضبان الحديدية ويحطمون مساميرها الضخمة بحماسة عظيمة ، وعلى مقربة منهم رقدت دمشق الحزينة واسترسلت في سبات عميق .

ولعلنا نشاهده وهو يدخل مع فلول المجاهدين إحدى المدن الريفية في أعقاب إحدى المعارك المخفقة ، والمدينة هائجة مائجة قد احتشد سكانها في مدخلها يتسقطون أنباء المعركة ، ويسألون أين بقي سعيد العاص ، ثم تدنو منه امرأة عجوز وفي يدها فتاها فتمسك عنان فرسه وتسأله :

ـ أصحيح أن سعيد العاص قد قتل ؟

فتثب الدموع إلى عينيه ويجيبها :

ـ أنا سعيد العاص !

فيسرع فتاها إلى فرسه فيسحب عنانها ويقول للمجاهد البطل :

ـ أنت ضيفنا الليلة .

ويأتي به إلى منزله والمرأة المسنة تحف به كأنه ابن لها ، وهي تتهلل بشراً وترقص طرباً .

في وسعنا أن نعرض ما نشاء من أمثال هذه المواقف البطولية والصور الشعرية ، لأن سعيد العاص لم يخض معركة أو اثنتين من معارك الثورة السورية ، بل ساهم فيها منذ ابتدائها في جبل الدروز ، وابدى شجاعة رائعة في معركة قرية رساس ، وانزل خسائر فادحة بالحملة الفرنسية التي اشتركت فيها وكان يقودها الجنرال غاملان بنفسه ، وقد خاض جميع معارك الغوطة ، كما خاض معارك القلمون وكروم والهرمل في شمال لبنان .

وقد استقدمت السلطة الفرنسية قوات جديدة من مستعمراتها ، وجردت على الثوار حملة شعواء ، وكانت تأتي بمن تقبض عليهم منهم أو من تخطفهم من الفلاحين الأبرياء ، إلى ساحة الشهداء في مدينة دمشق ، وهم موثقو الأيدي مشدودو الأكتاف ، ومن خلفهم جِمال وسيارات كدست فوقها جثث القتلى ، وقد برزت بينهما يد طفل أو ساق امرأة ، فتعرضهم بضع ساعات ثم تطلق النار عليهم ، وفي اعتقادها أن هذا المشهد المتكرر سيبعث الخوف في نفوس المواطنين ويحملهم على الخنوع والاستسلام ، والواقع أنه كان له فعل عظيم في إثارة

الحفائظ وشحذ العزائم واستنهاض الهمم ودفعها إلى الثورة على المستعمر الجائر ، وبذلك أصبح لاكثر أحياء دمشق عصابات في الغوطة تحمل أسماء أحيائها ، وكل عصابة تتخذ من القرى القريبة من حيها مقراً لها .

أخوة العروبة

وكان سعيد العاص يسجل مذكراته ومما جاء فيها حكاية العقيد عطاف ، وهو ضابط في الجيش الفرنسي من أصل جزائري ، وقد قال فيها :

« ووصلنا في اليوم الثالث عشر من كانون الأول ١٩٢٥ إلى قرية « قبر الست » حيث يقوم ضريح السيدة زينب . وفيها بلغنا من « مصدر ثقة » أن الفرنسيين سيزحفون في الغد من أربع جهات لتطويق عصابات الثائرين في الغوطة . وعلى ذكر « المصدر الثقة » أحب أن أوضح ان الكابتن عطاف الضابط العربي المغربي في كتائب الفرسان الصباحيين في دمشق ، قدّم خدمات جُلّى لثائرين في الغوطة . فقد كان هذا العربي المخلص ، بحكم وظيفته ، يطّلع على الأوامر العسكرية التي تصدر قبل حين من الزحف ، وتزوّد القادة بمهماتهم في الحملة وخطة الزحف . فكان هذا العربي الشهم يبادر فوراً إلى الإتصال بالأمير طاهر الجزائري وغيره من الوطنيين المغاربة في دمشق ، ويطلعهم على الأوامر الصادرة إليه ، وهؤلاء يقومون بدورهم بإبلاغ الثوار ، ليكونوا على حذر ويستعدوا للقتال .

وكان هذا الضابط العربي وإخوانه من الضباط والجنود المغـاربة ، في كل حملة ، يتعرضون مع الإفرنسيين لرصاص الثوار ، من غـير تمييز بينهم وبين الكتائب الأخـرى . أما من جـانبهم ، فقد كـانوا يـطلقون رصـاص أسلحتهم طائشـاً في الهواء حتى لا يصيبـوا بني قومهم ودينهم من المجـاهدين العـرب ، وكلما سنحت الفرصـة ألقوا ببعض عتـادهم وذخـائـرهم في الحضر وراء الأشجـار ، حتى أصبحنـا كلما تقـدم بنـا العهد نجد ، بعد كل معركة ، كميات من العتاد الفرنسي الذي نحن بأمس الحاجة إليه .

وكم من مرة عثرنا على صندوق مليء ملقى في حفرة ، أو مطمـور أكثـره في التراب بجـانب جذع شجـرة . . وكم جمعنا مئـات الأمشاط المليئة بالرصاص ، مبعثـرة وملقاة هنـا وهناك . فكنـا نعجب بإخـواننا عـرب المغرب ، وبمشـاعـرهم القـوميـة النبيلة . إنهم كـانـوا يؤثـرون إخوانهم في العروبة والدين على أنفسهم .

ولم يكتفـوا بهـذا ، بـل فـرّ عـدد منهم إلى صفـوف الثـائـرين ، وعرّضوا أسرهم في المغرب العربي لبطش فرنسا وانتقامها ، وقـاتلوا في الصف العربي، ومات منهم شهداء في سبيل حرية بلاد الشام المقـدسة في نظرهم . ولم تحل الألـوف من الأميال التي تفصـل بين الشـام وبين بلادهم دون هذا البذل .

لقـد رافقنا في الغـوطة جنـديان مغـربيـان همـا محمـد وعبـدالله ، وجندي ثالث من قرى نابلس بفلسطين هو عبدالحميد المرداوي ، فرّوا من الجيش الفرنسي والتحقوا بنا ، وظلّوا أشهراً يسيرون معنا عزّلاً من

السلاح ، يخدموننا بأمانة وإخلاص ، وينتظرون أن يتيسر لهم السلاح غنيمة . ولما تسلموا خاضوا معنا المعارك الضارية ، واستشهد محمد المغربي في إحدى المعارك ، سقط شهيداً إلى جانبنا يهتف باسم أخوة العروبة والدين التي تربطنا . ثم استشهد اثنان آخران من الجنود المغاربة الملتحقين بثورتنا ، وكنت أقمتهما في أثناء المعركة على رشاش خفيف، فاستشهدا معاً بقذيفة مدفع رحمهما الله . . . ألا ما أعظم وشائج العروبة!».

الحرية الحمراء

ومن أعالي دمشق كان المتجه إلى الشرق يبصر النيران والدخان تتصاعد باستمرار ، فيعلم أنها نيران القرى والمزارع التي كان المستعمر يأمر بنهبها ثم يحرقها بالنفط والكبريت ، فكان الشيوخ والنساء والأطفال يغادرونها بحثاً عن ملجأ يلوذون به ، ولكن أين الملجأ وقد تحولت بساتين الغوطة الخضراء إلى أتون من لهب .

ثم انتقلت النار إلى دمشق نفسها ، فقد تولى السلطة الفرنسية الغضب ، إثر الهزائم المتكررة والخسائر الجسيمة التي منيت بها في العتاد والأرواح ، فأطلقت المدافع من قلعة المزة على روابي قاسيون وبطاح الشام ، ومآذن دمشق وقصورها الباذخة ومنازلها المتواضعة .

واحتدمت المعارك بين الثوار والجنود ، واستمر القتال أياماً عدة تواصل فيها الليل والنهار ، وكان خوف الحكام الممتنعين في الثكنات والحصون أقوى من خوف السكان العزل من السلاح ، فنصبت

الأسلاك الشائكة في كل شارع ، واحتشدت الدبابات في كل مكـان ، للمحافظة على دور الحكومة ومخابىء الفرنسيين .

واستمـر اطلاق القنـابل والنيـران المحرقـة عـلى أحيـاء دمشق من المدافع والطائرات والدبابات من يوم الأحد في الثامن عشر من تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٢٥ حتى مساء الثلاثاء في العشرين منـه ، فتحولت إلى خرائب وحرائق وركام من السيارات المدنية والسيارات المصفحة ، وقد قتل كثيرون من الأبريـاء ودفن تحت الأنقاض كثيـرون ، ولا يزال حي «سيدي عمود» يسمى «الحريقة» حتى الآن .

وقـد أعلنت السلطة أن القصف المدفعي عـلى الأحياء الآمنـة لن يكف حتى يغادر دمشق جميع الثـوار ، فرأى هؤلاء أن يغـادروها حقنـاً للدماء ، وتوجهوا إلى الغوطة لاستعادة مراكزهم فيهـا ، ولكن السلطة عادت ففرضت على المدينة غرامة حربيـة قدرهـا مائـة ألف ليرة ذهبيـة وثلاثة آلاف بندقية ، وحددت الساعة الخامسة من يوم الثـلاثاء في ٢٠ تشرين الأول (أكتوبر) موعداً أقصى لأداء الغرامـة ، وإلاَّ فإنها ستهـدم البقية الباقية من عاصمة أمية .

وبعـد تـدخـل أصحـاب النفـوذ قبلت السلطة الفـرنسيـة تعهـد الحكومة المحلية بدفع الغرامة المالية من خزينتها ، على أن تستوفيها فيما بعد عن طريق الضرائب ، أما البنادق فقد اتخـذها الفـرنسيون ذريعـة لاقتحام المنازل وتفتيشها وترويع أهلها .

وقد أثارت نكبة دمشق الوطن العـربي ، وتجاوبت خفقـات قلوب العـرب مع خفقـات قلبها ، ومن القصـائد الـرائعة التي نـظمت لهذه

المناسبة الوطنية الجليلة قصيدة شوقي التي قال في مطلعها :

سلام من صبا بردى أرق ودمع لا يكفكف يا دمشق

ومما جاء فيها قوله يخاطب الثائرين السوريين :

ويجمعنا إذا اختلفت بلاد بيان غير مختلف ونُطق
وقفتم بين موت أو حياة فإن رمتم نعيم الدهر فاشقوا
وللأوطان في دم كل حر يدٌ سلفت ودَيْن مستحق
ومن يسقي ويشرب بالمنايا إذا الأحرار لم يُسقوا ويَسقوا
ولا يبني الممالك كالضحايا ولا يدني الحقوق ولا يُحِقّ
ففي القتلى لأجيال حياة وفي الأسرى فدى لهمُ وعتق
وللحرية الحمراء بابٌ بكل يدٍ مضرّجة يُدق

الشهيد الحي

وكان مقر قيادة سعيد العاص بالغوطة في قرية حتيتة ، وفي ربيع سنة ١٩٢٦ إنتقل إلى النواحي الشمالية لاشعال نار الثورة فيها ، فسلك طريق الضمير وانحدر منها إلى قلمون وسار حتى قرى أكروم وأكوم وكفرنون وقنه والموسه وخوخ وبساتين والسهلة ، ولهذه القرى مركز حربي جغرافي عظيم لاتصالها من الغرب بجبال عكار ومن الشمال بجبال العلويين ومن الشرق بسهل الهرمل ومن الجنوب بجبال لبنان . فأخذ يدعو إلى الثورة ويحرض الأهلين على مقاتلة المستعمرين ، فالتحق به عدد كبير من الفلاحين ، وانضم إليه بعض شبان حمص وعلى رأسهم نظير النشواتي ، الذي دوخ الفرنسيين

بضرباته المفاجئة وأعماله الشجاعة ومهارته الخارقة في الخلاص والنجاة بسلامة كل مرة حتى قال القومندان مترو عنه « إنه رجل عجيب !» . فوقع أربعة من الحمصيين بينهم نظير أسرى في أيدي العدو ، فأطلق القومندان مترو عليهم الرصاص فقتلهم على حافة طريق ريفية مهجورة ، وتركهم على قارعة الطريق ، ولكن الرصاصات الثلاث التي أصابت نظيراً لم تصب منه مقتلاً ، فغاب عن الوعي ولكنه لم يفارق الحياة ، ولما أقبل الليل تحامل على نفسه وسار باتجاه حمص فوصل إلى قرية يعرفها ويطمئن إلى أهلها ، فاستراح فيها قليلاً ثم تابع طريقه إلى حمص .

وكانت السلطة الفرنسية قد أصدرت بلاغاً بوفاة الثوار الأربعة أثناء معركة خاضوها مع الجند ، فجاء فريق من أهل الشهداء إلى مكان الحادثة لاستلام جثث أبنائهم ، فلم يجدوا سوى ثلاث منها ، وعاد الجنود مع أهل الشهداء إلى المركز العسكري يقولون للقومندان مترو ان جثة نظير نشواتي مفقودة ، فخرج بنفسه إلى المكان ولما لم يجد الجثة عاد ليقول لمن في السيارة وهو يضع السوط الذي بيده على المنصة :

ـ إذا نهض هذا السوط بمفرده ، ومن نفسه ، وسار إلى المنصة ، يمكن ان ينهض نظير النشواتي ويسير على الأرض !

ثم قال لأهله :

ـ لا ريب في ان أحد الفلاحين قد عرفه وأخذه ، فاذهبوا إلى حمص تجدوا الجثة قد سبقتكم إليها وعاد آل النشواتي إلى حمص فأقاموا

مأتماً لنظير كما فعل أهل رفاقه الذين قتلوا برصاص القومندان مترو ، وكان نظير قد وصل إلى حمص وبدلاً من أن يذهب إلى منزله إلتجأ إلى دار حلاق مسيحي يعرفه فغسل له جراحه وضمدها وجاء إلى أهله ينبئهم سراً بنجاة إبنهم ، وطلب منهم الاستمرار في التظاهر بالحزن ومراسم المأتم ، حتى لا يعرف الفرنسيون أمره ويسعوا للقضاء عليه .

وانتظر نظير في بيت صديقه الحلاق حتى شفي من جراحه ، فغادر حمص لينضم إلى سعيد العاص ويتابع القتال معه في جبال أكروم . إلا ان سعيد العاص ما لبث حتى انتقل إلى لبنان الشمالي الذي لم يشأ ان يقبع في معزل عن الثورة السورية ، فنظم الثورة هناك ثم انتقل إلى القرى المسيحية في زغرتا والضنية يدعو إلى الإخاء والتضامن في وجه العدو المغتصب ، وإعلاء شعار الوحدة الوطنية فوق كل شعار آخر .

وكثيراً ما كان ينقل إليه ان بعض الثوار يرددون كلاماً يثبط العزائم ، فيستدعيهم إليه ويستثير ضمائرهم ويصارحهم بقوله : « لقد جئت إلى هنا لأقاتل عدو بلادي ، لا لأقضي الوقت بالتنقل والأكل والراحة والكلام الفارغ . . فمن جاء منكم ليقاتل ، فليتقدم معي إلى القتال . . ومن يجد ان روحه أغلى من روح سعيد العاص ويخاف عليها ، فليرجع من هنا ، وليترك أرض الثورة !» وفي أغلب الأحيان كان الجواب الذي يتلقاه : « ان أرواحنا يا سعيد بك ليست أغلى من روحك ، ونحن جنودك دوماً . . سِرْ بنا إن شئت فنحن رهن إشارتك ! » .

شجاعة المرأة العربية

وأثارت إعجابه في هذه المنطقة شجاعة المرأة العربية فقال : « إني من المعجبين بشجاعة الجنس اللطيف ويا حبذا لو كانت نساء المدن تعشق الحرية كما تعشقها بنات الجرود (الجبال) ، وتقلع بنات الحواضر عن تقليد الأجنبي في الزي والمظاهر ، فتشترك المرأة مع الرجل في تحرير البلاد كما فعلت الصحابيات في عهد الإسلام ! »

ولطالما كان يروي لأصدقائه في المستقبل قصة تلك القروية العجوز التي استضافته ورفاقه المجاهدين فكانوا ينامون في منزلها وهي ساهرة تحرسهم ، فجاءت قوة عسكرية ضخمة لتداهم ذلك البيت ، وكان الوقت منتصف الليل والمجاهدون نائمون ، فانتبهت الفلاحة إلى ذلك وبادرت إلى إيقاظ ضيوفها وأرشدتهم إلى طريق يتسللون منه نحو بستان قريب .

وبعد ساعة كان بيت هذه الفلاحة يحترق ، فقد أشعل فيه المستعمرون النار انتقاماً ، وحزن المجاهدون وهم يرون من بعيد تلك النيران تضيء عتمة الليل . فقد اتسع الحريق حتى شمل ثلاثة بيوت مجاورة ، وحزنوا كثيراً لمصير تلك المرأة العربية الوفية ، ولكنهم ما لبثوا حتى فوجئوا بها قادمة إليهم وهي تحمل خبزاً وجبناً وماءً ، وأصرت على ان تقبل رأس سعيد العاص ، وقالت له :

ـ فداءً لك يا قائد المجاهدين !

وذات مرة جاءت حملة عسكرية ضخمة إلى منطقة في سفح

الهرمل ، بعد ان علمت ان سعيد العاص موجود فيها . وكان العقيد قد استعد لملاقاة هذه الحملة بأن وزع قواته إلى فريقين : فريق يكمن في السهل تحت أشجار البساتين ، وفريق ينتظر في السفح العالي وراء صخور الجبل . وكانت هذه الخطة محكمة بحيث أدت إلى ضعضعة الحملة في معركة استمرت من الصباح حتى العصر .

ولكن المجاهدين الذين في الجبل فوجئوا بصوت زغاريد إمرأة تأتي قادمة نحوهم ، غير عائبة بوابل الرصاص ودوي المدافع . ولما أقبلت رأوا عجوزاً تحمل على كتفها قربة ماء ، وفي ذيل ثوبها خبز ، وفي الذيل الثاني عتاد ، تقف من غير ان تحني قامتها للقذائف والرصاص ، تعطي كل واحد منهم رغيف خبز وجرعة ماء ثم تسأله ما نوع العتاد الذي يناسب بندقيته فتعطيه مما تحمل ، وتملأ جو المعركة حماسة بزغاريدها ، وتخبرهم بأن رفاقهم في السهل يحققون أعظم الإنتصارات . . ولما دنت من سعيد العاص همست في أذنه بضع كلمات ثم ذهبت وهي تقول :

ـ لله دركم من أسود !

واستمرت المعركة حتى غياب الشمس فأبيدت حملة العدو كلها تقريباً ، والمجاهدون فرحون بهذا الإنتصار العظيم ، وناشد أحدهم القائد العاص ان يخبره بالسر الذي همست به المرأة العجوز ، فابتسم أبو سعاد وقال :

ـ أخبرتني همساً بأن رفاقنا في السهل كانوا في وضع حرج ، وأخبرتكم علناً أنهم عكس ذلك حتى تقوي معنوياتكم !

كما أثار اهتمامه إقبال الفتيان والشبان على التطوع والقتال إلى جانب المجاهدين الأشداء ، وقد اعتقلت السلطة الفرنسية ، مرة عدداً من الثوار فوجدت بينهم فتى في الثانية عشرة من عمره يدعى سعيد الأشقر وليس له بين الثوار أخ أو قريب ، فلم تجرؤ على الحكم بإعدامه شأنها مع غيره من الثائرين ، واكتفت بسجنه ثلاث سنوات .

العودة إلى أريج الشيخ في الغوطة

ولكن الغوطة كانت تدعوه دائماً،فما كاد يذرع بذور الثورة في أنحاء مختلفة من سوريا ولبنان ، حتى عاد إليها متشوقاً إلى أريج الشيخ وظلال الحور ، وكأن القدر قد شاء له ان يشهد ختام معاركها كما شهد بداية هذه المعارك . ففي ربيع سنة ١٩٢٧ جهز الفرنسيون بقيادة الجنرال أندريا حملة من إثني عشر ألف مقاتل معززين بالدبابات والمصفحات والمدافع الثقيلة ، وطوقت بهم غوطة دمشق من جميع أنحائها ، ثم أمرتهم باقتحامها والقضاء على كل ذي حياة فيها .

وعلى أثر ذلك اجتمع المجاهدون في العاشر من أيار (مايو) ١٩٢٧ بقيادة سعيد العاص والأمير عز الدين الجزائري ، وتعاهدوا على قتال الفرنسيين والإستبسال فيه حتى النهاية ، وتوجهوا نحو الغوطة حتى وصلوا إلى قرية الهيجانة ومنها إلى بحرة العتيبة فالعبادة فالقاسمية التي دخلوها عنوة بعد معركة صغيرة مع الفرنسيين ، وتابعوا السير إلى النشابية فاحتلوا دار الحكومة فيها ثم انتقلوا إلى زوربالا للتحصن فيها .

وعلمت القيادة الفرنسية العليا بأمرهم ، فاستنفرت جميع قواتها ، وداهمتهم من كل جانب ، ودارت بين الفريقين رحى معركة ضارية استمرت سبع ساعات متوالية ، وقتل فيها الكثيرون من الثوار والغزاة ، وأبدى المجاهدون بطولات رائعة غير مبالين بما تمطره السماء عليهم من قنابل ، وما تفجره الأرض من قذائف ، وما يتوالى عليهم من رصاص .

ولكن أنى للبطولة أن تقاوم النار وللحم أن يصد الحديد ، فقد ظلَّ الحديد والنار يعملان بهم العمل الذريع والفتك المريع ، والدماء تتفجر والأشلاء تتطاير ، حتى لم يبق في ساحة المعركة غير قليل من الأبطال ، فاتفقوا على الاختفاء ، وأن يتجه كل منهم في طريق ، فاتجه الأمير عز الدين الجزائري وفريق من المجاهدين نحو عين الصاحب وتحصن ومن معه في مغارة هناك ، ولكن الفرنسيين علموا بأمره وفاجأوه بالقذائف اليدوية ، فجرح في ساعده ، ونفدت ذخيرته ، فاستيأس واستبسل وقفز من المغارة يهم بالخلاص ، فما كان منهم إلاَّ أن تألبوا عليه وأحاطوا به وسدوا عليه كل مسلك ، وانهالوا عليه بالنار يصلونه بها دراكاً ، فاستقتل رفيقاه المغربيان في الدفاع عنه ، وبرز ضابط حقير ممن يقاتلون مع الفرنسيين وصرخ به :

ـ أيها الأمير سلّم سلاحك تنج ! .

فزأر عز الدين الجزائري كالأسد وصرخ قائلاً :

ـ خسئت أيها اللئيم ، فإني ما حملت سلاحي لأتخلى عنه إلى مثلك . . وما استلّ فارس صارمه إلاَّ ليغمده في الأحشاء لا

ليسلمه إلى الأعداء فراراً من موت طالما سعى إليه .

وبينما كان يوجه مسدسه إلى ذلك الضابط ليرديه قتيلاً ، سبقه الضابط إلى إطلاق النار فقضى عليه .

أما سعيد العاص فقد دعا من معه من المجاهدين إلى التفرق طلباً للنجاة ، وسار بمفرده فسلك طرقاً متعرجة وانتقل إلى أماكن مختلفة وهو يسير ليلاً وينام نهاراً ، يقتات بالأعشاب ويتوارى عن الأنظار ويعالج بنفسه الجراح التي أصيب بها ، ثم اتجه شطر مدينته حماه .

حفنة من تراب الوطن

كانت قزعات الغيوم البيضاء تنحسر من جهة لتتجمع في جهة ثانية من الأفق البعيد ، تنفذ فيها أشعة شمس الأصيل فيزداد فتور حرارتها فتوراً . وكانت الطبيعة في حالة من السأم والتململ والجمود جنوحاً إلى الهمود ، تمرّ الأنسام بين حين وآخر مروراً لطيفاً خفيفاً ، لا قوة في المرور ، ولا عنف في الهبوب . . ولم يكن الناظر في تلك البقعة يرى أيّ إنسان أو حيوان ، حتى ليتمنى في وحشته تلك لو ينعق فوق رأسه غراب ، أو تتربع أمام ناظريه بومة على رجم الحجارة البعيدة البعيد . .

وحين اشتعلت أعلى شجرة في تلك البقعة بحمرة الغسق ، إيذاناً بانحسار سحابة النهار الذي يودعه المؤمنون بذلك الصوت الخاشع يتردد في المدن والقرى: «الله أكبر . الله أكبر . . .»، نهد رأس إنسان في إحدى ركام الحجارة ، لا يتميز عنها للناظر القريب الحاد البصر ،

وأخذ يجيل في تلك البطاح المترامية نظرة الصقر المتفحصة الحذرة . . فلما اطمأن إلى خلو الطريق من أيّ سالك أو عابر، عاد ينظر إلى جسمه كأنه يريد أن يطمئن إلى سلامته ، ولم يلبث أن نفض عنه الغبار وأخذ نفساً عميقاً ثم انطلق يقفز عن أكمته إلى الأرض البراح ليأخذ سبيله شمالاً ، متباعداً ما استطاع عن الطريق العامة لكن بمقدار لا تضيع عنه إذا أراد الارتداد إليها .

وطفق سعيد يغز السير كأنه في سباق مع الزمن ، يود من أعماقه أن توغل الأرض في محيط الظلمة ، بعد أن غدا النور عدوه اللدود ، ويحاول أن يستجمع ذاته تماسكاً في تلك العاصفة المكتومة الأنفاس التي تهب في داخله . .

وأنشأ يردد أبيات يحفظها من الشعر، دافعاً عن مخيلته ما يحاصرها من صور قاتمة ، مواصلاً السرى في تلك الطريق التي بدت له وكأنها تمتد إلى نهاية العالم ، ولكنه لم يكد يسترح إلى أبيات شعره حتى سمع وقع حوافر جياد مقبلة من بعيد ، فتوقف هنيهة يصيخ السمع ويرهفه ، ساكناً حابساً أنفاسه كأنما هو صخرة من تلك الصخور المتناثرة هنا وهناك ، ويده مطبقة على مسدسه رفيقه الأمين . . وتمثل أمامه جيش الجواسيس الذي يطلبه ليساق ذليلاً مهيناً ثم يرفع على عود من أعواد المشانق . . ولم يثب إليه بعض روعه إلاّ عندما ساد السكون ، وعاد الليل هولاً ووحشة ، تتراقص فيه الأشباح ولكن لا تطل من بينها سحنة جندي واحد! .

ثم أرسل نظرة متأملة إلى النجوم المتلالئة ، وكان في تلك النظرة

شيء من التحدي مع قليل من الرجاء والعزاء ، ولم تمتد يده هـذه المرة إلى الرفيق الأمين ، وإنما إلى مطرته التي قرّبها من فمه يبل ريقه الـذي جف في حلقه ، ببضع رشفات من الماء ، قبل أن يواصل سراه . . ثم أمَرّ ظاهر يده على شاربيه يمسح عليهما مسحاً خفيفاً ، وتخللت أصابعه شعر ذقنه مغتصباً ظل ابتسامة غـامضة . . وشمـخ بأنفـه الأقنى الذي أراد له المستعمرون الإهانة والمذلة ، فلم تطل إليه أيديهم المجرمـة . . ولكنه لم يستعد كامل قـواه إلاَّ بعد أن انحنى بقـامته قليـلاً ، وأخذ في قبضته حفنة من التراب طفقت حبيباتها تتسرب قليـلاً قليلاً من خـلال أصـابعه ، وهـو يقربهـا من ذلك الأنف الأشم الـذي فـرض عليـه في موقف من مواقف الـرجولـة والبطولـة أن يتحدى سلطة دولـة من أكبر دول ذلـك العصر ، دولة مـدت ذراعاً في الغـرب ، وبسـطت يـداً في الشـرق ، ولكن على شـريعة الغـاب ، ونظام الاغتصـاب ، وتكريس الظلم نهجاً والعدوان طريقة ، فلا حرمة لشريعة إنسانية ، ولا كـرامة لنفس بشرية . .

نوحي أيتها الناعورة

واستحث سعيد نفسه تكتنفـه الظلمـات ، وتحتويـه تلك السهول المترامية إلى ما لا نهاية ، لا يقـطع مرحلة إلاَّ وتنبسط دونـه مراحـل . وكانت دقات قلبه تتسارع مـع تسارع خـطاه ، عاقـداً النية عـلى بلوغ مدينة حماه مهما كابد من مشقة وعانى من تعب ، غير أنه كان في حالـة من الإعياء والإنهاك ، والتعب الروحي والعذاب الجسمي وكأنه يحمل تابوته على عاتقه . . ثم غدا وكأنـه يجر جثتـه جراً ، لا تـطاوعه نفسـه

فيقف ، ولا يمده العزم فيتابع السرى .

بيد أنه وهو في هذه الحالة من العزم المغلول والإرادة المشلولة ، سمع صوتاً أليفاً ما كاد يلامس سمعه حتى أخذ يجري في شرايينه ، فانطرح أرضاً وهو يردد :

- نوحي أيتها الناعورة نوحي . . وابكي معي شهداء الغوطة! . .

وكان الليل قد أخذ يلملم قاتم وشاحه عن قبة الفلك لتغزوها أولى السهام الحمراء المتناثرة في الأفق ، لا يستقر خيطها في مغزل الطبيعة إلّا ليحيكه نولها الأيدي ملاءة حمراء معرّقة بأسلاك ذهبية . ورد سعيد بصره إلى الأرض ليرى منبسطاً من التربة القانية ، فأحس كأن الكون كله في مأتم كبير ، فهناك دماء جارية ، وهنا نجيع رطب ، فاختنقت الدموع في صدره ، وأخذ يساجل تلك الناعورة الدائرة على ذاتها عويلاً وأنيناً، ما تزال تسكب الدمع وتسكبه دون انقطاع :

آه يا حسن الخراط يا ابن الشعب الأبي . . لقد عرفت وأنت الحارس البسيط كيف تقف تلك الوقفة البطولية يوم هانت الكرامة وخار العزم . . عرفت كيف تصول وتجول وتكون من ذاتك جيشاً بكامله ، تتوثب هنا وتندفع هناك ، تدفع عن قومك وتذود عن وطنك وتصمد وراء بندقيتك ، هاجماً أبداً مقتحماً على الدوام ، حتى سقطت كملك كريم وقائد عظيم ، شهيد المروءة والنجدة . .

وأنت يا عز الدين الجزائري يا برعم النضارة وريق الشباب

وزهـر العمـر . . لقـد تخلّيت عن الـدراسـة في معهـد الـطب لتلتحق بالثورة وكأنك تلبي نداء جدك عبدالقادر الذي كان أول من لبّى نـداء الـوطنية والعـروبة . . مـا أروع بطولتـك على حـداثـة سنـك وطـريّ عودك! . . لشد ما رهبك الجبناء الأوغاد وتجنّبوا ضرباتك ، كما تتجنب عجائز الكلاب أنياب الأسـد . . لقد كنت الأمـل ، وكنت الذخـر ، ويخيّـل لي الآن أن الأرض كلهـا مثـواك . . في جنـة الخلود روحـك الطاهرة ، ودار الخلد مستقر نفسك يا رفيق النضال! .

الهرب الى عمان

وما زال يباري الناعورة أنيناً موصولاً وزفرات غير مقطوعة ، حتى أخذ جسمه يهمد شيئاً فشيئاً ، وكاد يماثل أجساد الموتى ، فلم يستـطع الزحف إلى البيت الذي يقصده وقد غـدا على مقـربة منـه ، وغرق في بحران عميق ، وغدا كما لو كان شلوا مرمياً في هذا الرحب من التربـة الحمراء ، فلو حطّ عليه سرب من الطيور الجارحة تنهشْ جسده لمـا رد عليها بحركة بل ظل جامـداً مستسلماً للمناسر والمخـالب . . ثم أحس برطوبة في لسانه وطراوة على جبينه ، فغالبت غريزة البقاء ما هو عليـه من كلال ، وفتح عينيه على مفاجأة هزته هزاً عنيفاً ، فحـاول النهوض ولكن صوتاً رقيقاً حنوناً كان يردد في سمعه :

ــ دعك مستريحاً ولا تجهد نفسك يا سعيد . .

ولم يكن صاحب هذا الصـوت سوى رفيق طفـولته وتـرب شبابـه الذي قدّم إليه لاجئاً ومستجيراً . . إنه صديقه الراعي محمود الذي آثر

صحبة الشاة والكلب الأمين مع القناعة والرضا برقة الحال ، على الغنى في قلب المدينة التي تتحكم فيها كلابها بأسودها . . فهتف بغبطة :

ـ محمود . . محمود . . .

ولكن هذا أشار عليه بإبقاء رأسه على ساعده وقال :

ـ أنت في حاجة إلى الراحة يا سعيد . . فابق حيث أنت . .

وطافت بثغر سعيد ظل ابتسامة إذ رأى الكلب ضامر وقد عرفه فراح يبصبص بذيله ويطوف حوله متشمماً ، تطفر الفرحة بين ضلوعه فلا يستطيع التعبير عنها إلاّ بالقفز هنا وهناك . . والأغنام ترعى في تلك الضاحية الخضراء من ضواحي حماه الناعمة هانئة دون أن تحسب لسكين الجزار أيّ حساب! . .

وقال ابن البيداء لرفيق طفولته وقد عرف الخطر الذي يتهدده :

ـ إن بلاد الله واسعة يا أخي ، ولعمرك ليس في الأرض من ضيق على ابن أنثى ينشد الحرية ويعيش لها ، والحمد لله أن سلطان الصحراء هنا يكاد يزحم مدينة أبي الفداء ، وأبناء عمومتنا تتناثر خيامهم وتسوم قطعانهم من هنا إلى ما وراء نجد ، وما عليك إلاّ أن تستريح عندي بعض الوقت استعداداً لرحلة طويلة . .

واحتوى الرجلين بيت متواضع يطل من أحد جانبيه على مدينة حماه الخالدة ، ويشرف جانبه الآخر على الصحراء يتنسم أنفاسها من بعيد عبر السهول المتألقة بالنضارة على طرفي العاصي ، ذلك النهر

الخيّر الذي شق البلاد معانداً من الجنوب إلى الشمال ، والذي كان أبناؤه إذ يترشفون من مياهه فكأنما يحتسون اكسير الانتفاضات والثورات .

وانقضت أيام قليلة استعاد سعيد العاص خلالها صحته وعزيمته ، فارتدى الثياب البدوية التي حملها إليه محمود من المدينة ، ثم انطلق يضرب في فجاج البادية ويتنقل بين قبائلها ، حتى وصل إلى عمان في صبيحة يوم ربيعي من أيام الصحراء اللطيفة ، والهواء يهب عليلاً متشبعاً برائحة الأرض الطيبة ، والطبيعة تضحك من خلال النباتات البرية الشذية .

أم سعاد

وعاش المجاهد الثائر في عماق حياة بائسة استعان فيها على الدهر بريع كتب كان يصدرها عن الثورة السورية بعنوان: «صفحة من الأيام الحمراء» تدل على الحاجة والاضطراب . وقد أصدر منها خمسة أجزاء تحمل العناوين التالية: ١ ـ استشهاد الأمير عز الدين الجزائري (صدر سنة ١٩٢٨). ٢ ـ الحركات الحربية بعد التطويق (١٩٢٩). ٣ ـ التطويق وحركات الضنية (١٩٣٠). ٤ ـ استشهاد البطل أحمد مريود (١٩٣١). ٥ ـ حروب الغوطة والإقليم (١٩٣٥). إلاَّ أن هذه الكتب لم تكن تلاقي الرواج والتشجيع اللذين تستحقهما مؤلفات تحمل اسم بطل ضحى من أجل بلاده بالشيء الكثير .

ولعلّ أعظم هذه التضحيات ، وفاة زوجته أم سعاد . فقد تزو-

سعيد العاص أثناء إقامته الأولى في عمان من فتـاة شركسيـة أنجبت له طفلة دعاها سعاد ، ولما اشتعلت الثورة السوريـة سنة ١٩٢٥ بـادر إلى الإلتحاق بها تاركاً أسرته الصغيرة لرحمة القدر وعنـاية أهـل الزوجـة . ووصف وداعـه لها متحـدثاً عن حبيبتيـه : زوجته وبنـدقيته ، فقـال : « وانصرفت لمعانقة معشوقتي ومن شريكة حيـاتي في البيت إلى شريكـة حيـاتي في الجهاد . وعـانقت بنـدقيتي كـما يعـانق العـاشق محبـوبتـه ، وودعت أم البنين وداع البطولة ، وداع رجل يعتقـد أن هذه الحيـاة إن هي إلَّا تماثيل وظلال لا يبقى فيها سوى العمل الصالح والذكر الحسن والاسم الخالد» .

ولما عاد إلى عمان سنة ١٩٢٧ وجـد أن زوجته قـد فارقت الحيـاة وتركت ابنتها سعاد في كنف أخوالها. وقد رثـاها في أحـد كتبه بقـوله: « شهيـدة البؤس ، رفيقـة آلامي ، فـريسـة الأمـراض ، ومصـائب الجهاد ، عقيلتي أم سعاد . هذه البائسـة الراقـدة الآن في سفح جبـل عمـان الشرقي رقـدة الخلود بعد أن قبلت طفلتهـا سعاد آخـر قبـلات الحنـو . فهي بلا ريب شهيـدة جهـاد استمـر أعـوامـاً ، وكـان مفعـماً بالآلام ، حتى ذبلت عن عمر لا يتجاوز العقد الثاني من مراحـل هذه الحياة القاسية ، وقد هاجم الداء جسمها النحيل عنـدما كنت أهـاجم جيـوش المستعمرين ، ولم تجـد من يداويهـا لضيق ذات اليد ، فـذبـل غصن حياتها . . . » .

ومما كتبه عن الثورة السورية قوله : « وقفت سورية حوالى عـامين تمثل تجدد الحياة في الشرق . وقفت مثخنة الجراح ، عـالية الصـوت ،

شامخة الأنف ، طموحة إلى الحياة تشتريها بالموت وتنادي أبناءها لتحطيم قيود الاستعمار وإزهاق دعوى الغرب بسلاح الحق .

« ليست الثورة السورية لهبة من هشيم ولا عاصفة في طبق ماء ، بل هي كوامن أحقاد في الصدور لم يطق أبناء جلّق احتمالها فانفجرت وتطاير شررها ، فكان كل سوري ثائراً ، وكانت سوريا تزغرد للثائرين وتنثر على رؤوسهم الأزهار .

«ليست الثورة السورية شهوة شذّاذ من السوقة والرعاع ، ولا هي طيش زمرة من الدهماء ، بل هي قوة حقيقية مثلت الأماني السورية باندماج شبان من جميع الطبقات فيها . وقد حاول الغاصبون بأضاليلهم أن يصموا ثوارنا الأشاوس ، كما حاولوا أن يصموا من قبل جورج واشنطن محرر أميركا من الاستعمار».

من أجل أطفال بلادي

وكان سعيد العاص يحب ابنته سعاد كثيراً ، ولا سيما بعد أن فقدت حنان أمها ، وكثيراً ما كان يوقع رسائله باسم «أبو سعاد» ويناديه به أصدقاؤه المقربون ، ولكن هذا الحب لم يستطع أن يثنيه عن تلبية نداء الواجب القومي ، فإن عشقه لوطنه العربي والجهاد في سبيل حريته وسيادته كان أقوى من كل حب آخر ، وهل هذا العشق سوى تفان وتضحية في سبيل أن يحيا من نحبهم أحراراً كراماً أعزاء . فما كادت الثورة تشتعل في فلسطين سنة ١٩٣٦ ، حتى قرر الإلتحاق بها ، وكانت ابنته الغالية قد بلغت سن الحادية عشرة فودعها وداعاً حاراً

لعلّه كان يشعر في أعماقه بأنه الوداع الأخير ، ثم باع ما يملك من أثاث لشراء بندقية وكمية من الخرطوش واستعار فرساً من أحد أصدقائه ، واجتاز الأردن إلى فلسطين وحيداً .

وما كاد يصل إلى فلسطين حتى انضم إليه عبدالقادر الحسيني ، ذلك البطل الآخر ، واتجها إلى منطقة الخليل ليؤسسا فيها قيادة مستقلة ، وكانت القيادة الأولى في نابلس .

وبدأ سعيد العاص نضاله الجديد على نطاق ضيق ، لأن المتسبين إليه كانوا قلّة من الفلاحين الذين يحملون السلاح سراً ويعودون إلى قراهم ليلاً ليبيتوا فيها ، إلاّ أن هذه العصبة من المجاهدين كانت تزداد مع الأيام قوة وعدداً ، فاتسعت أعمالها واشتد خطرها .

وفي معركة الخضر التي وقعت في ٦ أيلول (سبتمبر) ١٩٣٦ على أعنف ما تكون ، بين مائتي جندي بريطاني وبضعة أفراد من المجاهدين ، انهال الرصاص على سعيد العاص فجرح في كتفه وخاصرته وساقه ، وهو يزأر كالأسد ويزداد بعد كل جرح جديد ثورة وبطولة . وحين أصابته الطلقة الرابعة في صدره رجع إلى الوراء قليلاً ، واستند إلى جدار المغارة التي حوصر فيها ، فمات وهو واقف على قدميه ، شاهراً بندقيته ، وشفتاه الشاحبتان تتمتمان وهما تنفرجان عن ابتسامة حلوة كأنه يشاهد من خلالها طيف ابنته الحبيبة :

ـ من أجل سعاد . . من أجل جميع الأطفال في بلادي ! .

وكان سعيد العاص اسماً ، فأضحى تاريخاً وتراثاً . . .

الفهرست

حسن الخراط

بطل من الشعب

الحرية معنى أصيل في النفس العربية

كان ذلك في عيد الجلاء ، وسوريا تحتفل بهذه الذكرى المجيدة للاستقلال ، وطرد آخر جندي من جنود الاستعمار عن البلد العربي الأبي في ١٧ نيسان ـ إبريل ١٩٤٦ ، كما يطرد كل غاصب من وطن مغتصب وإنها لذكرى ردت لسوريا كرامتها موفورة وعزّتها كاملة وأدخلت السعادة إلى كل بيت وكل نفس وكل ضمير .

وكانت الجماهير الحاشدة تهتف للحرية ، في الشوارع التي ازدهت بمعالم الزينة ورفرفت فيها الأعلام الزاهية ، وإنه لهتاف مطرب رخيم ونداء شريف كريم .

وكنت والشيخ محمد نتجاذب أطراف الحديث في غرفته القريبة من الجامع الأموي ، وقد تكدست فيها الكتب على الرفوف وفي الزوايا وتبعثرت على المقاعد والمناضد حتى باتت أشبه بخزانة كبيرة منها بغرفة صغيرة ، وكانت كلماته تلتهب عواطفي وتبعث في نفسي الحماس ، وكانت ذكرياته تثير اهتمامي وتستغرق مني الحواس ، وهو يعبث

بمسبحته السوداء حينا ويداعب لحيته البيضاء حينا آخر ، ويلقي بنظراته بين الفينة والفينة النافذة المطلة على الشارع حيث تضج الحياة ويتموج الناس . .

والتمعت عينا الشيخ الذي شارف على الخامسة والسبعين من عمره ، حين لفظت اسم حسن الخراط ، واشتعلتا بوهج الحنين ، وقال بعد أن احتسى جرعة من الشاي :

لقد تحدث الكتاب يا صديقي عن أسباب كثيرة قيل إنها كانت الباعث الرئيسي للثورة السورية ، وأنت إذا استعرضت هذه الأسباب جميعاً وجدتها تتلخص في معنى واحد هو التمرد على الظلم والتعلق بالحرية والتمسك بهذه الأرض الطيبة ، وهو معنى أصيل في النفس العربية . .

إن أحداث التاريخ إنما تتوالد من مظالم وانفعالات وآلام تتجمع مع ماضي الشعب وتقاليده وأمانيه ، وتتفاعل معها وتنصهر فيها ، ثم إذا بها تظهر في انتفاضة تبهر الناس لأنهم يحسبونها انتفاضة عفوية مفاجئة وما هي إلاّ تفجر ذلك التجمع الذى اختزن في ضمير الشعب واختمر فيه .

وكذلك كان شأن الثورة السورية على الاستعمار الفرنسي التي بدأت في جبل الدروز احتجاجاً على تعسف الحكام الفرنسيين ، ثم امتدت شرارتها إلى دمشق ومعظم الأنحاء السورية .

وإني لأرى من وراء حجاب السنين ، صورة دمشق المذعـورة يوم ضربها الأعداء ، تزفر زفرة المحموم وتتلوى بين ألسنة اللهب والقنابـل تتساقط عليها كأنها حجارة من جهنم ، والشيـوخ يجرون أنفسهم تحت الأنقاض ، والنساء يندبن أزواجهن وأبناءهن . والأطفال يهيمون عـلى وجـوههم مروعـين دون أن يجـدوا تعليـلاً لما يحـدث . أمـا الشبـاب والرجال فإن الكثيرين منهم يهـرعون إلى ميـادين الجهاد ، وفي أيـديهم البنـادق وفي نفوسهم العـزم المتقد والإيمـان المتضوع ، وفي أجسـامهم عصائب بيضاء تغطي الأوسمة الدامية التي ظفروا بها في معركة الحرية وكان حسن الخراط يتقدمهم بقامته المهيبة ، ووجهه المتورد المستـدير ، وعينيه المتقدتين ، وشعره الأشقر المائل إلى الحمرة ، فيلقي الرعب في نفوس الأعداء بجرأته وشجاعته النادرتين ، ويبعث الطمأنينة في قلوب إخوانه المجاهدين . .

وقد قضى المجاهدون خلال تلك المعركة الرهيبة عـلى أكثر الجنـود الفرنسيين في الأحيـاء والتحق من بقي من هؤلاء بالفـرنسيين المـدنيين المعتصمين بالقلعة . ولكن الثوار مـا لبثوا أن اضـطروا إلى الإنسحاب من تلقـاء أنفسهم حين اشتـد ضـرب العـاصمـة بـالقنـابـل المـدمـرة والمحرقة ، واستمر هذا العدوان المجرم رغم احتجاج الهيئات الأجنبية على ضرب المدينة العزلاء دون إنذار ، حتى تهـدم الكثير من قصـورها وآثارها ، وخرّب حي الميدان وحي الشـاغور وهمـا من أكبر أحيـائها ، واشتعلت النار في قرى الغـوطة ومـزارعها ، وهلك من الأهلين ألـوف

وذهب من ثـرواتهم مئات الألـوف وقد ركّـز العدو نيـران غضبـه عـلى الميدان والشاغور لأنهما كانا مركزاً لتموين ثوار الغوطة والأقاليم وحلقـة الاتصال بينهم جميعاً .

وكـانت معركـة دمشق قد بـدأت في أصيل اليـوم الثامن عشر من تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٢٥ ، وكان الفرنسيون يحتفلون بوداع الجنرال سـاراي في قصر العظم الأثـري الشهير الـذي اتخذه المنـدوب السامي قصراً له . فبلغ القيادة الفرنسية أنَّ الثوار قادمون من الغوطة لاحتلال دمشق ، فبادرت إلى استنفار رجالها تأهباً للطوارىء ، وحشـدت حول القصر عدداً من المصفحات .

وكان أول ما روع السلطة الفرنسية نبـأ يفيد بـأن الثوار قـد أزالوا الأسلاك الشائكة التي تطوف المدينة . وكـان المستعمرون قـد أحاطـوا دمشق بأسلاك شائكة متينة على ثـلاثة صفـوف من الأعمدة ، فغـدت ثلاثة حواجز بـين كل منهـا مسـافـة متر ، ثم وصلوا مـا بينها بـأسلاك عرضية فاستحالت إلى نطاق حديـدي محكم . ولكن الثوار استـطاعوا اختراق هذا النطاق ، واقتحام المدينة .

ثم وافت الأنبـاء بأن الثـوار قد احتلوا مخفـري باب مصـلّى وباب مصر . فأمرت القيادة بقصف الأحياء بـالمدافـع وطلبت من الطائـرات الحربية الاستعداد لتلقي أوامرهـا بين لحـظة وأخرى ، واستـدعت إلى القصر كتيبـة من المصفحات . وقبـل أن تصل هـذه الفرقـة إلى المكان المعـين لها ، كـان الثـوار وعـلى رأسهم حسن الخـراط ومحمـد الأشمـر وسعيد الزعيم وحسن المقبعـة قد طـوقوا القصر ولكن الـزعيم والمقبعة

كانا قد استشهدا مع عدد من إخوانهم بعد أن سجّلوا آيات من الشجاعة والبطولة والإقدام وأثبتوا أنّ القوة المعنوية التي تزخر في صدور المناضلين في سبيل حق مغتصب وأرض مستباحة وحرية مضطهدة أفْعل وأقْدر من قوة الحديد والنار .

وكمنت لكتيبة المصفحات كوكبة من النساء المجاهدات وجماعة من الفتيان ، فلما وصلت إلى الدرويشية وانحرفت لتدخل سوق مدحت باشا ، تساقطت عليها مئات من كرات النفط الملتهب ، من يمين وشمال ومن النوافذ والأسطحة ، فشبت النار في بعضها وانفجرت محركات بعضها الآخر ، وتناثرت جثث الجنود المحتمين فيها ممزقة مبعثرة ، وكانت أذهان تلك النسوة قد تفتقت عن هذا الاختراع حين عرفن الخطر الذي يحدق برجالهن ، فصنعن أكياساً صغيرة حشونها بالقطن والنشارة وغمسنها بالنفط ، ثم أشعلنها والقين بها على تلك السيارات المصفحة ، فاختلط صراخ الجنود بزفير اللهب .

وكانت الموسيقى لا تزال تصدح في قصر العظم ، والراقصون والراقصات يتمايلون طرباً على ألحان الفالس وكؤوس الشمبانيا تقرع تحية للجنرال ساراي ، وفجأة دب الذعر بين الحاضرين ، وهرعوا إلى الأقبية يحتمون بها ،وهرب الجنرال وكبار الضباط من النوافذ ، فقد اقتحم حسن الخراط ومحمد الأشمر ورجالهما باب القصر، ولما عجز الحرس عن مقاومتهم أشعلوا النار، فتوقف الثوار عن القتال وأخذوا يعملون على إنقاذ النساء وإطفاء الحريق لئلا تأتي النار على الآثار الثمينة في القصر .

وظنّت القيادة الفرنسية أن الثوار قد احتلوا دمشق ، فأمرت الطائرات بقصفها بالقنابل ، وسلطت عليها مدافع القلعة ، فتساقطت الحمم على المدينة من ذرى قاسيون وربى المزة ، واستمر هذا العدوان ثماني وأربعين ساعة متواصلة ، وتألّف وفد من النساء قابل في اليوم التالي الجنرال غاملان ، وتوسل إليه أن يرحم الأطفال الأبرياء ، فقال إنه لا تزال لديه كمية كبيرة من القنابل يجب أن تستهلك ، وبسط على المنضدة خارطة لسوريا ووضع سيكارته على مكان دمشق فيها فأحرقها . . فأغمي على بعض النساء وهتفت الأخريات وهن يغادرن قصر الجنرال :

ـ الله ينتقم منكم يا جلادي الشعوب! .

وكانت فرنسا تعتقد بأن هذا العدوان الوحشي سيملأ المواطنين خوفاً ، فتكف أعمال المقاومة وتخمد نيران الثورة ، والواقع أنّ الثورة قد ازدادت اشتعالاً ، وانضم إليها العديد من المتطوعين الجدد ، وتحولت الخرائب إلى حواجز ومتاريس ومخابىء لألوف الثوار . وبعد أن كانت الثورة تقتصر على جبل الدروز وغوطة دمشق ، امتد لهيبها إلى حماه والنبك وقطنا ومناطق حرمون .

القوى الكامنة في أعماق الشعب

وحاولت السلطة الباغية أن تظهر هذه الثورة الوطنية بمظهر التعصب الديني الذميم ، فانسحبت من الأحياء المسيحية لعل الثوار يهاجمونها وينهبونها مثلما كان جنودها يفعلون في أسواق دمشق . . ولكن

محاولتها الأثيمة باءت بالإخفاق وقوبلت بالإزدراء ، حين شاهد المراسلون الأجانب رجلاً أمياً مثل حسن الخراط ، يطوف في تلك الأحياء داعياً سكانها وهم من أعرق أبناء الوطن ، إلى الهدوء والإطمئنان . .

ومرّت لحظة كان الشيخ محمد يتخلل أثناءها بأصابعه شعر لحيته الكثة التي أشعلها الشيب ثم قال :

ـ نعم يا بني لقد كان حسن الخراط أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، وهو من هذه الناحية ، مثل رائع على أن في أعماق الشعب كثيراً من القوى الكامنة التي لا تجد من بيئتها التعهد الكافي والفرصة المؤاتية فترقد وتخمد ولو أفسح لها في مجال الدراسة والتشجيع والتوجيه لنمت وأبدعت وتجلّت في كامل حيويتها وعظيم قدرتها . .

إن سيرة هذا البطل العصامي مغمورة مجهولة كسيرة كل ثائر من أبناء الشعب ، تبدأ في الثورة نفسها لتعيش بضعة أشهر في عراك دائم وتوهج مستمر ، ثم تطفىء شعلتها ويختفي أثرها ، وقلّما يتاح لها بعد ذلك من يبعثها ويقتبس العبرة منها .

لقد كان حارساً في الأسواق وناطوراً في البساتين ، وكأن حرفته هذه هي التي أوحت إليه بأن يقوم بحراسة وطنه ويضرب على أيدي غاصبيه . . فلئن كان بين الثائرين من ثأر لغاية ينشدها أو مغنم يبتغيه أو زعامة يتطلع إليها ، فإن الباعث الوحيد الذي دفع أمثال حسن الخراط إلى الثورة الوطنية الصحيحة . . وطنية الشعب الذي انبثق من قلبه وكان صورة صادقة عنه . .

وما كاد يخوض أول معركة حتى ولاّه رفاقه قيادتهم فغدا رئيس إحدى الفرق الثورية ، وكان قائداً صادق العزم يقتحم الأخطار ويبتدع الخطط ويركب الصعب من الأمور ، ويسري من روحه المتقدة قبس في جنوده ، فإذا هم مثله في الشجاعة والقوة والعزيمة .

الغوطة الغناء

تعد الغوطة من أجمل متنزهات العالم ، وتبلغ مساحتها ما يقارب ثمانمائة كيلو متر مربع ، وفيها اثنتان وأربعون قرية وبلدة ، وهي أشبه بغابة كثيفة من أشجار الحور والصفصاف ومعظم أنواع الأشجار المثمرة ، وفيها أشجار يحسب عمرها بالقرون . ويروي نهر بردى بساتين الغوطة وقراها بفروعه وقنواته المتعددة . وتتكاثف الأشجار في بعض مناطقها فتؤلف نوعاً من الأدغال المظلّة شبيهة بالغابات العذراء التي يصعب على الغريب اجتيازها . وهذا ما جعل منها بالإضافة إلى ما يكثر فيها من الأقنية والجداول والأنهر والمنعرجات والمرتفعات وجدران البساتين المصنوعة من الطين ـ ملاذ الثوار ومعقلهم المنيع ، لأن الجيوش النظامية والسيارات المصفحة لا تستطيع التحرك فيها ، ولا جدوى فيها من غارات الطائرات لأنها لا تستطيع اكتشاف مكامن الثوار ما لم تنخفض إلى علو قريب من ذرى الأشجار مما يعرضها لخطر الإصابة برصاص البنادق .

ولعل معارك الغابات كانت أصعب على المستعمرين من معارك الجبال ، فهم يحاربون فيها عدواً لا يرونه قد يفاجئهم من خلف

شجـرة عجـوز ، أو يهبط عليهم من غصن بـاسق ، أو ينقض عليهم من حيث لا ينتظرون فتتحول الغـابة الهـادئة السـاكنة فجـأة إلى معقل يمطر الرصاص من كل صوب .

وكان قرب الغوطة من دمشق يجعل الثوار على مقربة من ذويهم ، وكـان بـعضـهم يـقـضـي نهاره في الـغــوطــة ولـيـله في دمـشــق أو العكس ، كما كانت نساء الثوار وبناتهم يقمن بنقل الرسائـل بين قـادة المنـاطق ويروون لهم أخبـار العـدو وتحـركـات جنـوده ، ويحملن لهم الذخيرة تحت الملاءات وفي سلال البيض والفاكهة .

والواقع أنّ معظم ثوار الغوطة كانوا من أبنـاء دمشق ، فقد عمـد كل حي من أحياء هـذه المدينـة إلى تأليف فـرقة ثـورية ، يمـد رجالهـا بالسلاح والمؤونة ويؤمن لجرحـاها الملجـأ والعلاج . وكـان أشهر هـذه الفـرق ـ وكانـوا يسمونها عصـابات ـ فـرقـة محمـد الأشمـر من أهـالي الميدان ، وفرقة حسن الخراط من أهالي الشاغـور ، وفرقـة مسلم وردة من حي الأكـراد . وقـد التحقت أنـا بفـرقـة الخـراط ، وقـاتلت إلى جانبه ، وشهدت جميع معاركه . ولـما استشهد رحمـه الله انضممت إلى فرقة محمد الأشمر الذي كانت تربطني به وشائج الود .

وعلى الرغم من أني كنت مدرساً في المعهد الإسلامي وكـان حسن أميـاً ، فقـد كنت أعتبـره رئيسـاً لي وأحـرص عـلى تنفيــذ تعليمـاتــه ومخـططاته ، لتميـزه بالشجـاعة النـادرة ، فقد كـان شعلة ملتهبـة من الوطنية والعزيمة والإرادة الفولاذية فضلاً عمّا يمتاز به من سرعة البـديهة وتوقد الـذهن . ولكنه كـان يسألني في أحيـان كثيرة عن بعض الأمـور

التي يجهلهـا ، ويسره أن يضيف إلى معـارفه البـدائية شيئـاً جـديـداً . والواقع أن الثورة الوطنية قد وحـدت فيما بيننـا مثقفين وعمـالاً ، تجاراً وفلّاحين ، فكنا كتلة واحدة في وجه عدو واحـد ، يجمعنا ربـاط وثيق من محبة الوطن والذود عنه .

حارس وجنرال

وأذكر أنه لما سلط الفرنسيـون على مـدينة دمشق نيـران مدافعهم وقنابل طائراتهم ، وقرر الثوار الإنسحاب منها إلى الغوطة وقـرى المرج ضنا بأرواح الأبرياء من الأطفال والنساء ، أملى عليَّ رسالة وجههـا إلى المفوض السامي الفرنسي وقد تـركتها بنصهـا نظراً لأهميتهـا التاريخيـة ، ولكي يعرف القائـد الفرنسي أن الـذي يحاربـه إنما هـو فرد عـادي من أفراد الشعب قد تجسدت فيه إرادة هذا الشعب .

ومدّ الشيخ محمـد يده إلى أحـد الرفـوف وحمل منـه مغلفاً أصفـر كبيراً قد تآكلت جوانبـه وعلّاه الغبـار ، وأخرج من هـذا المغلف ورقة مستطيلة ، وقال : « وإليك بعض ما جاء في هذه الـرسالـة الطريفـة » ثم أخذ يتلو عليّ :

« . . . أما سياسياً فإني كلّلت شرف العرب بما هو أهله ، وأستحسن فعلي العالم كله ، لحُسن إدارة رجالي ومحافظتهم على إخواننا المسيحيـين والأجانب خصوصاً ، وعلى الضعفـاء عمومـاً . وأما أنت فقـد نحرت شرف فرنسا وصوبت قنابلك إلى قلبها . .

أنت ممثل فرنسا وأنا حارس دمشق ! .

أسـرت جندك أسـراً شـريفـاً ، وأنت ضـربت النسـاء والأطفـال والشيوخ ضرباً دنيئـاً .

حـافظت عـلى الآثار القـديمة وأنت هـدمتها يـا جننار ، يـا ممثـل فرنسا ! .

كان بودك أن تجعلها دينية إسلامية ، وتفرق بيننا وبـين إخوانـنـا ، ولكن الله أبى ، فضيعت رشـدك وخـربت الأحيـاء الإسـلاميـة عـلى رؤوس أهلها ، آملاً أن أقابلك بالمثل ، وقد فاتك أننـا عرب ونحـافظ على الجار .

أنت جننار وقائـد الفرق والجيـوش، وأنا حـارس بسيط ، جمعت عقلي وضيعت رشدك!» .

من حراسة المستعمر الى حراسة الشعب

وسألت حسن الخراط يوماً كيف التحق بالثورة وهو حارس ينتمي إلى جهاز الأمن الذي يسيـطر عليه الفـرنسيون ، فضحـك طويـلاً ثم قال :

لقـد أبلغني رئيسي ذات يوم قـراراً بإلحـاقي في حرس الكـولونيـل بيجان مدير الشرطة الفرنسي فذهبت إلى منزلي ذلك اليوم وأنا أفكر في هذا القدر العجيب ! لقد كنت أعلم أنّ هذا السفـاح قد أزهق أرواح المئات من أبناء وطني ظلماً وتعسفاً ، فلم يحرس أمثاله ، ولماذا أكون أنا حـارسه من دون النـاس ، وممن أحرسـه: أمن أولئك الـذين يبذلـون

أنفسهم ليصونوا أنفسنا ، ويغامرون بحياتهم ليحفظوا حياتنا؟! .

وأمضى ليلة محمومة تتخللها الكوابيس ، وهرع في الصباح إلى الدائرة فاستبدل مسدسه بمسدس جديد وحصل على كمية من الذخيرة ، ثم عاد إلى حي الشاغور فاستدعى جماعة من أصدقائه واتفق معهم على الالتحاق بالثورة .

وكانت الزوجة تعجن الطحين حين جاء حسن ليودعها ، فأبعدت خصلة من شعرها غطت وجهها ، ونظرت إليه حائرة وهي تقول :

ـ هل ستذهب حقاً؟ .

ـ وأنت ماذا تقولين ، الوطن يناديني فهل ألبي النداء أم أتخلف مع المتخلفين؟! .

ـ أنا لا أستطيع أن أتخذ قراراً ، فالوطن غال وأنت غال ، وأنا أفكر في مصير الأولاد . .

ـ أولادنا أبناء الوطن وسوف يكونون على صورته ، فإذا ناضلنا من أجله نكون قد ناضلنا من أجل أن نوفر لهم وطناً مستقلاً وغداً حراً سعيداً . .

فضاقت أنفاسها وتكاثف السواد في عينيها ، وقالت من خلال الدموع :

ـ إذا كنت مصمماً على رأيك فليكن الله معك ولتحرسك عنايته ورحمته . .

وبدت له أجمل من أي وقت مضى ، بخديها المستديرين وعينيها الواسعتين وذقنها المدببة وقسماتها الوادعة ، ولكنه شدّ قامته وألقى نظرة سريعة على الأولاد الراقدين في فراشهم ، والغرفة التي لا يضيء مصباح الكاز سوى جزء منها ، ثم غادر المنزل ، واستمرت المرأة الحزينة تنشج طول الليل .

وانطلق حسن إلى جبل الدروز مع نفر من رفاقه ، ثم انتقلوا إلى الغوطة ليضموا سواعدهم إلى سواعد الثائرين .

وقلت له مرة أخرى: إن كثيرين من الثوار يذهبون إلى دمشق بين حين وآخر متنكرين ، لرؤية ذويهم ، فلماذا لا تذهب أنت لرؤية زوجتك؟ .

فأجابني جواباً عجيباً بعثني على الذهول . . إذ قال :

ـ لأني أحبها كثيراً يا شيخ محمد ! .

فقلت له باستغراب :

ـ هل تعني أنك قد انقطعت عن رؤيتها لأنك تحبها كثيراً؟ .

فقال وهو يهز رأسه بمرارة :

ـ أجل ، هذا ما عنيت! . .

ـ ولكني لا أفهم ما تريد قوله يا باشا؟ .

ـ لأني أخشى إن نعمت برؤيتها أن أضعف أمام حبي لها وسعادتي إلى جانبها ، فيقعدني هذا الحب عن مواصلة الجهاد بعد أن سعدت به

وملأ نفسي عزيمة ونوراً !.

ثم أخذ يردد قوله تعالى : ﴿ **قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها ، أحب إليكم من الله ورسوله ، وجهاد في سبيله ، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره ، والله لا يهدي القوم الفاسقين** ﴾ .

حملات شعواء على قرى عزلاء

ولست أزعم أننا لم نخض مع حسن الخراط معركة إلاَّ وظفرنا فيها ، فقد أخفقنا غير مرة لتفوق العدو علينا بعدده وسلاحه .

أذكر أننا كنا مرة في «العمارة» وكان معنا مائتا بارودة . . فهاجمنا العدو بثمانية آلاف جندي ومعه الدبابات والمصفحات والمدافع والرشاشات وقد واكبته سبع طائرات . . وأخذ يقذفنا بنيرانه فكانت الطيور الهائمة في السماء تتهاوى صريعة ممزقة . . وقد حاولنا المقاومة من غير طائل ، لأن العدو كان يطلق نار على أجسادنا بينما نطلق نحن نارنا على الحديد الذي يعتصم به . . وقد لبثنا كذلك حتى المغيب ، ثم تفرقنا في البساتين المرتعشة ، والمساء الحزين ينوح تحت ردائه المعطر . .

وفي معركة النبك الكبرى التي اشترك فيها الخراط وكان من أبطالها فوزي القاوقجي وسعيد العاص ، اشتبك المجاهدون مع العدو في البساتين وفي مضيق عيون العلق ، فأسروا بعض رجاله وغنموا

بعض رشاشاته ، واستمرت المعركة بين الفريقين شهراً كاملاً .

وكانت النبك قد تحولت إلى قاعدة للثورة في إقليم القلمون فجردت السلطة الفرنسية عليها حملة بقيادة الجنرال مارتي تتألف من أربعة آلاف من جنود المشاة وألفين من الفرسان وعدد من المدافع والمصفحات .

وكانت أكبر المعارك التي دارت خلال هذه الحملة معركة المصح الهولاندي ، فقد رأى الثوار أن يفسحوا المجال للعدو حتى يحتل المصح الواقع غربي المدينة ، فلما احتله واستقر برجاله فيه ، باغته المجاهدون في قوة كالصواعق ، فغدا مُدافعاً بعد أن كان مهاجماً ، واستعادوا منه المصح بعد هجمات ثلاث ، وغنموا عدداً وافراً من السلاح والخيول ، وعطّلوا مصفحتين .

وفي موقعة «الزور» الأولى خرج الأعداء لمحاصرتنا بحملة كبيرة ، وكانت معظم الفرق الثورية هناك ، وفي طليعتها فرقة محمد الأشمر وفرقة سعيد العاص وفرقة حسن الخراط ، ولكن أحد الفلاحين من أهالي الملحية سبق الحملة ونبهنا إلى زحفها قبل طلوع الفجر ، فأخذنا نستعد لمواجهتها . ولما وصلت طليعتها إلى جسر الغيضة من جهة قرية جسرين ، شرعت في تطويق المكان ، وإذا بها تفاجأ بمقاومة المجاهدين . واحتدمت المعركة ، واستخدم الفرنسيون مدافعهم ومصفحاتهم ورشاشاتهم وطائراتهم ، فأسقط المجاهدون طائرة منها ، وانقض واحد منهم يدعى سعيد الحمامي على فرنسي يحمل الرشاش فانتزعه منه وصوبه إلى الأعداء فقتل عدداً كبيراً منهم .

وحوالى الظهر شعر المجاهدون بنفاد العتاد منهم ، فأخذوا ينسحبون باتجاه قرية عقربة ، وأخفقت بذلك الحملة . وقد أبدى حسن الخراط في هذه المعركة ألواناً معجزة من الشجاعة ، ثم جرح في كتفه فعولج في عقربة حتى شفي ، ثم عاد إلى الجهاد وهو أشد عزيمة وأمضى بأساً .

وبعد انقضاء أسابيع معدودة على هذه المعركة ، وقعت معركة الزور الثانية . وكان الثوار قد اجتمعوا في قرية سقبا ، وقرروا شراء مدفع صغير من المدافع المضادة للدبابات يؤتى به من جبل الدروز مع عتاد له وللرشاشين اللذين معنا ، لأن الدبابات كانت أخطر الأسلحة التي تواجهنا . وقدر المجتمعون ثمن المدفع والرشاش بعشرين ليرة ذهبية ، فأعلن أبو عبده أجانا مختار قرية سبقا ، أنه يتكفل بجمع هذا المبلغ من أفراد قريته .

وتفرق الثوار في القرى القريبة ، وفي صباح ١٦ تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٢٥ حلقت طائرتان فوق قرى الغوطة فأسقطت فرقة الخراط إحداهما بالرشاشين اللذين تحملهما . ولما أقبل المساء ، فوجئنا بأبي عبده أجانا وهو يقبل من القرى البعيدة قلقاً لاهثاً ، ثم يطوف على الثوار لينبئهم أن أنباء وردت من دمشق تفيد بأن حملة فرنسية كبيرة ستهاجم الغوطة في فجر اليوم التالي .

ولم يصدق الثوار النبأ لأنه لم يرد عن مصادر موثوقة ، فلم يستعدوا له الاستعداد الكافي ، ولكن لم يكد ينتصف الليل ، حتى زحفت على الغوطة حملة لا مثيل لها معززة بأقوى الأسلحة ، وطوقت

مع الفجر موقع الزور معتقدة أن الثوار لا يزالون يقيمون فيه ، ولما لم تجد هناك أحداً منهم كمنت فيه باعتباره مركزاً مهماً ومفرق طرق رئيسية .

وكنا ذلك الصباح في قرية حمورية فقرر حسن الخراط مواجهة الحملة في الزور ، واتجهنا إليه والعلم يخفق أمامنا ، فاعترضنا أحد الفلاحين وأبلغنا أن طلائع الحملة قد تقدمت إلى قرية جسرين . وسرعان ما نشبت المعركة بيننا وبين العدو عند جسر الغيضة ، وتبين لنا من كثرة نيرانه أنه يعد بضعة آلاف .

جرة أنقذت الموقف

وبينما كان حسن الخراط يحاول اجتياز الجسر زحفاً إلى الزور حيث يكمن جيش العدو ، أصابت رصاصة بندقية الخراط وحطمت خشبتها وجرحت أصبعه ، فلم يأبه لذلك وعاد لاستبدال بندقيته . ولكن الدبابات وصلت في تلك اللحظة ورابطت على ضفة الجسر من جهة الزور ، وأخذت تسدد نيران مدافعها ورشاشاتها إلى موقعنا من القناة ، فأشار الخراط بالإنسحاب ، وصعدنا من طريق ضيقة إلى البساتين المرتفعة من ورائنا تحت وابل من الرصاص .

ولم ينقض ساعة واحدة حتى أدركنا أن العدو قد نجح هذه المرة في ضرب طوق محكم حولنا ، وشعر الخراط بخطورة هذه المعركة فأخذ يدور على المجاهدين يطلب منهم ألا يطلقوا الرصاص إلاَّ في إصابات محكمة ، لأن الذخيرة ضئيلة وقد حشد العدو لهذه المعركة

كل أسلحته ، ولكن سرعان ما نفدت ذخيرتنا ودخلت المعركة في طور بالغ التعقيد ، فالعدو غير قادر على التغلغل إلى مخابىء الثوار في قلب الغابة والثوار لا يستطيعون خرق الحصار لأنهم لا يملكون رصاصاً يطعمون به بنادقهم .

وبينما كنا جالسين في ظل شجرة باسقة من شجر الجوز ، وقد أسندنا ظهرينا إلى جزعها البارد ، ونحن نفكر في هذا المأزق الرهيب ، وحسن يشكو من ألم اصبعه وبقية ألم في كتفه ، إذا بنا نشاهد جرة من الفخار تطوف على مياه النهر فلم نعرها اهتماماً ، ولكن لم تنقض بضع دقائق حتى شاهدنا جرة ثانية فجرة ثالثة تحملهما مياه النهر باتجاهنا ، فدفعنا الفضول إلى الإمساك بهما وإذا بهما مسدودتان بغطاء محكم ، فرفعنا الغطاء عنهما ، وإذا في كل منهما خفتان من الرصاص! . .

فتولانا العجب وصرنا نثب كالأطفال ونهتف فرحاً . . وما كدنا نخرج الرصاص من جوفي الجرتين ، حتى حمل إلينا النهر جرة رابعة فنادينا رفاقنا ، وأرسلنا أحدهم في إثر الجرة الأولى فما لبث حتى عاد بها ، ووقفنا في منتصف النهر ننتظر ذلك المد الذي لم يكن بحسبان أحد . . وتتابع وصول الجرار حتى بلغت عشرين جرة حصلنا منها على أربعين حفنة من الرصاص ! .

ضحك الشيخ محمد وانبسطت أساريره ونهض لإعداد إبريق جديد من الشاي ، وتابع حديثه خلال ذلك فقال :

وقصة هذه الجرار المنقذة ، ان بلدة جوبر كانت خارج الطوق الذي ضربه المستعمرون من حولنا ، وكان فيها معمل صغير للذخيرة أنشأه الثوار ومستودع يلجأون إليه ليتزودوا بها ، فلما حوصرنا في الزور وانقطعنا عن اطلاق النار ، أدرك الفلاحون في جوبر أن ذخيرتنا قد نفدت ، وحاروا في طريقة إيصال الذخيرة لنا .

واجتمع رجال القرية ونساؤها للتشاور في هذا الأمر ، فاقترحت عليهم سيدة مسنّة إحضار كل ما في القرية من جرار ووضع حفنة أو حفنتين فقط من الرصاص في كل منها حتى لا يزيد ثقلها كثيراً وإلقاءها بعد إغلاقها في النهر الذي يجري في اتجاهنا ، ولا بد من أن ننتبه لها ونحصل على ما فيها من ذخيرة نحن في أشد ما نكون حاجة إليها .

فأعجب الحاضرون بهذه الفكرة الطريفة التي بدت في أول الأمر وكأنها لعبة أطفال ، ولكن سرعان ما اقتنع الجميع بأنها طريقة واقعية ، فضلاً عن أنها الطريقة الوحيدة الممكنة للاتصال بالثوار ونجدتهم .

وسرعان ما دبّت الحياة في القرية ، وهرع الأطفال يبحثون عن الجرار ، وأخذ الرجال يجمعون الرصاص ويضعون منه في كل جرة مقداراً تستطيع حمله وهي طافية على صفحة النهر ، والنساء يسدون أفواه الجرار كي لا ينفذ إليها الماء ، ثم يلقون بها في النهر وهم يرددون :

ـ باسم الله . . وعلى بركة الله ! .

وقد استطعنا بفضل هذه الذخيرة أن نحطم الحصار ونشق لأنفسنا طريقاً إلى قرى المرج ، فنجونا بذلك من الإبادة المحتمة . ولما بلغنا قرية الهجانة التقينا بجموع من الثوار قادمة من جبل الدروز ، فتوجهنا جميعاً إلى قرية ضمير مقر قيادة قوة البادية الفرنسية ، وهاجمناها قبل الفجر ، فاستولينا عليها بعد معركة دامية استمرت بضع ساعات ، وغنمنا ٨٠ جملاً وعشرات البنادق وثلاثة رشاشات .

بيت من صفائح التنك

وكنا مرة في ضواحي قرية «المليحة» فجاء أديب بك رئيس الدرك ليقبض على حسن الخراط وحل في دار المختار ، وتفرق رجاله على بقية المنازل للمبيت فيها ، وكان أديب بك قوي الجسم عريض المنكبين مفتول العضل لو أمسك بخمسة من أمثال حسن لسحقهم بين يديه القويتين . . وقيل لحسن باشا وقد فاتني أن أقول لك إن الثوار منحوه لقب الباشوية ـ قيل له :

ـ إن أديب بك وجماعته قد أتوا ليأخذوك مغلولاً أنت وقومك! .

فقال : إنهم لا يستطيعون ذلك بإذن الله ! .

وعبثاً حاولت إقناعه بالإنسحاب من تلك المنطقة ، لما سمعنا عن فظائع أديب بك الذي اطمأن له الفرنسيون وعهدوا إليه بكل مهمة وحشية يريدون القيام بها ، وقد تم إحراق العديد من قرى الغوطة بأمره وإشرافه . .

ولكن حسن الخراط لم يصغ لنصيحتي ، وانتظر حتى مضى من الليل هزيع وأوى القوم إلى مضاجعهم ، ثم أتى إلى بيت المختار فضرب الباب برجله فخلعه ودخل على أديب بك وهو في فراشه فذعر لمرآه وحاول الهرب منه ، ولكن الثائر أطبق عليه واعتقله ، وكذلك فعل برجاله الذين باغتهم الثوار في المنازل التي باتوا فيها ، ثم بعث به مقيد اليدين إلى جبل الدروز مقر قيادة الثورة ، وليته قتله فأراح الناس منه ، لأنه ما لبث أن أفلت من الجبل وهرب حافياً إلى دمشق حيث عاد إلى سيرته الأولى من الإيقاع بالثوار والفتك بهم .

وكان هذا البطل من أبطال الشعب المغمورين المنسيين ، يؤثر رفاقه على نفسه ، لا يذق الطعام إلاَّ بعد أن يأكل رفاقه الثوار ، ولو كان معه رغيف واحد لاقتسمه وإيّاهم . . وكان بعض الثوار يفرضون المال على سكان القرى أو المدن التي يحلون فيها ، أما هو فكان يرجو السكان اطعام جنوده ، ويرفض أية مساعدة تقدم لفرقته غير الطعام والسلاح . . وكان يجد أينما حل حسن المثوى وكرم الوفادة . . ولما مات وجد معه ستة عشرة مجيدياً هي كل ثروته . . وقد جاء الفرنسيون مرة لإحراق منزله انتقاماً منه فوجدوا بيته مسوراً بصفائح التنك فدهشوا ولم يصدقوا أن الباشا يسكن هناك . .

وعاد الملازم الذي عهد إليه بتلك المهمة إلى مركز القيادة فسأله رئيسه :

ـ هل أحرقت منزل السفاك؟ .

فتظاهر الملازم بالسذاجة وقال :

ـ أي سفاك تعني؟

فقال رئيسه غاضباً :

ـ حسن الخراط . . المجرم . . اللص . .

فقال الملازم بهدوء :

ـ وهل يحرق منزل من صفائح التنك؟! . .

ـ ماذا تقول؟ . . هل أن بيته من صفائح التنك؟ .

ـ نعم يا سيدي . . هذا هو منزل الرجل الذي تسميه سفاكاً وتنعته بالجريمة واللصوصية ، وإني لأتساءل : لو كان هذا الرجل لصاً حقاً ، هل كان يدع زوجته وأولاده يعيشون في بيت من صفائح التنك أم ينقلهم إلى منزل فخم ويؤمن لهم أسباب الراحة والرفاهية ! .

وكثيراً ما كان رجال السلطة يبحثون عن حسن الخراط في أحياء دمشق أو في بعض القرى ويهاجمون البيوت التي يقال لهم إنه يبيت فيها فلا يقعون له على أثر ، فلما كان يلتقي بهم في ساحة القتال كان يزأر أمامهم ويصيح فيهم :

ـ أنا حسن الخراط . . فلا تبحثوا عني في بيوت الشام . . بل لاقوني هنا في غمار المعركة إن كان بينكم أبطال . .

والحق أن شجاعته كانت مضرب المثل لدى أعدائه وأصحابه على السواء ، وقد اشتهر عنه أنه لم يقعد في متراس ولا احتمى

بشجرة . . أذكر أنني كنت إلى جانبه في وقعة «جوبر» فكنت ألاحظ أنه يضرب الرصاص وصدره إلى العدو فأهتف به :

ـ يا حسن أدر جنبك ، يا حسن إلى الوراء .

وهو يقول لي باسماً :

ـ أريد أن أغسل ذنوبي بهذه الوقعة . . أريد أن أستشهد في سبيل الله . .

نبراس هداية لكل كفاح جديد

صمت الشيخ محمد قليلاً ، وبدا كأن الذكرى التي أفعمت شعاب نفسه قد ملأت بصره نوراً ، وقلبه حياة ، ثم استطرد يقول بصوت مؤثر شجي النغم :

لقد رأى النبي عليه الصلاة والسلام ليلة المعراج قوماً يزرعون ويحصدون في آن واحد ، فقال يا جبرائيل من هؤلاء؟ فقال هؤلاء المجاهدون في سبيل الله يجري الله عليهم أجرهم إلى يوم القيامة . .

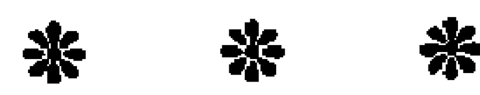
أجل يا صديقي هم المجاهدون في سبيل الله . . وقد كان حسن الخراط واحداً منهم . . لقد ظلَّ يتحدى الموت والموت يهرب منه ويخشاه ، حتى كانت وقعة «الست» وكنا في البرية فأحاط بنا العدو من كل صوب ، وإذا بحسن يخترق نطاق الحصار مع طائفة من أعوانه ، فتخفق بذلك خطة العدو ولكنه يواصل القتال حتى يزحف الليل ، ثم يتقهقر دون أن ينال منا ، تاركاً في الساحة كثيراً من القتلى وثلاثة من

الخونة السوريين الذين كانوا يقاتلون في صفوف الأعداء ، فيتحراهم حسن الخراط ويستجوبهم فلا يقع لديهم على ما يهمه ، فيذهب بهم بعد أيام مع نفر من رجاله ليسلمهم إلى إحدى لجان الثورة للتحقيق معهم . .

ويشاء القدر أن يمر البطل بمقبرة اليهود وإذا بالجنود الفرنسيين يقطعون الأشجار هناك ، فلما رأوه على فرسه ومعه أولئك الأسرى ، أطلقوا عليه النار دون أن يعرفوه فقتلوا رجالهم الثلاثة ، وأصيب هو تحت ثديه الأيسر ، فسقط تحت شجرة سنديان . وكان إلى جانبه سعيد قنباز فهرع إليه واحتضنه ونادى رفاقه ليحملوه إلى المستشفى ولكن الدم كان ينزف من جرحه بغزارة .

وكان النهار مشرقاً ولكن البرد شديد حتى كان شعاع الشمس يرتجف . . ثم اشتدت الريح فجأة واهتزت السنديانة الشامخة ، فرفع حسن الخراط رأسه ونظر طويلاً إلى الأغصان الخضراء الفتية المتراقصة التي تضاحكها الشمس فوق الجذع العتيق ، ولفظ أنفاسه الأخيرة .

وخيّل لي أن نظرته إلى تلك الأغصان الفتية التي تضاحكها الشمس ، وهي النظرة التي ودع بها الحياة إنما كانت نظرة اطمئنان إلى المستقبل ، وعناقاً لفتيان الغد ، وأملاً كبيراً بالنصر ! .



كان المساء قد بدأ بنشر ظلاله على الغرفة الصغيرة ، وأحاطت هذه الظلال بالشيخ محمد حتى لم أعد أرى سوى عينيه المتقدتين

وجبهتـه المشرقـة ولحيته البيضـاء ، ثم أضاءت مـآذن الجامـع الأمـوي الثلاث فجأة وتسلل نـورها إلينـا مرتعشـاً خافتـاً ، وبدا الشيـخ محمد وكأنه طيف من أطياف الماضي تشع نظراته اباء وكبرياء . .

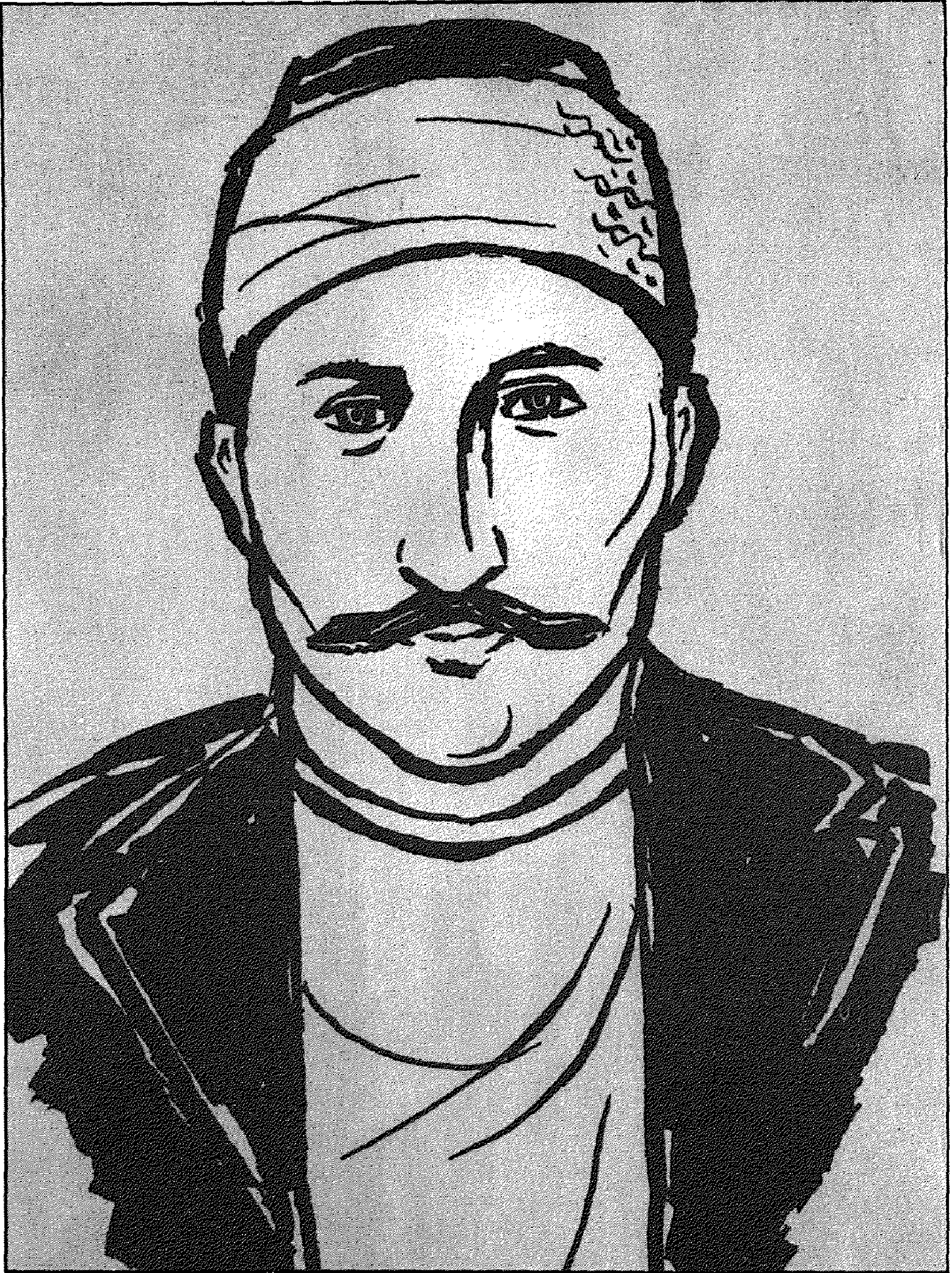
وبعـد أن احتسى الشيخ آخـر جرعـة في فنجـان الشـاي ، التقط مسبحته التي وقعت على بساط الغرفة ، وتمتم وأنشأ يحرك حباتها صامتاً مفكراً ، ثم قال وكأنه يعود من حلم عميق :

ـ إن الشعوب تنهزم أحياناً ، ولكنها تنتصر في النهايـة . . فلنؤمن بقوة ماضينا ، وحيـوية شعبنـا ، ولنتخذ منهـما نبراسـاً نهتدي بـه في كل كفاح جديد ! .

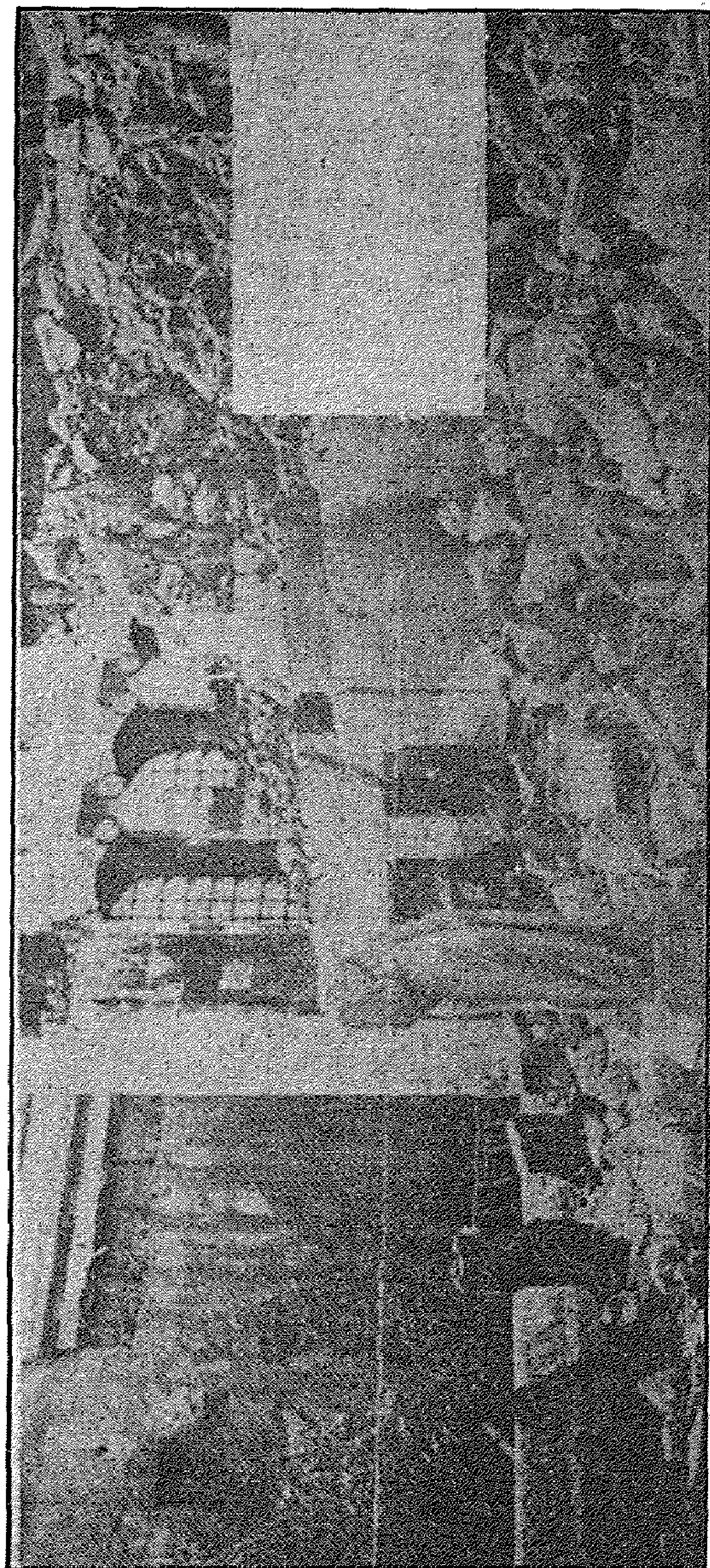
* * *

لف نعش حسن الخـراط بـالعلم السـوري ولم يمش وراءه سـوى رفاقه المجـاهدين وبعض الفقـراء في مدينـة دمشق . ولم يكن الخراط من عـائلة كبيرة ، ولكن كـان له مـلايين الأخـوة في الوطن العـربي ، وكانت عائلته هي الأمة العـربية ، وجـذوره تضرب عميقـاً في الأرض العـربية التي أعـطاها دمـه البهي ، خصباً ولهبـاً وجسـراً يمتـد إلى غـد الإنسان العربي، ورمزاً للنضال الأبي العنيد ، والرمز لا يموت بل يعلّم ويعد ويهدي ويقود ، فتتوهج به القمم ويحتضن الفجر الجديد .

صور من التاريخ



حسن الخراط (١٨٦١ ـ ١٩٢٥)



خرائب قصر آل العظم الذي حوصر فيه المفوض السامي في دمشق



المجاهد الكبير الشيخ محمد الأشمر وعلى يمينه السيد صالح عياش وعلى يساره السيد عيسى حنين

الفهرست

حكايات الأيام الماضية لأبناء الأيام الآتية

عبد الكريم الخليل

الشهيد الأول

موكب الأبطال

يا له من موكب رهيب، ذلك الموكب.. موكب الموت.. الذي غادر عاليه بعد منتصف الليل، ليبلغ بيروت مع الفجر الشاحب الحزين...

وشعر عبدالكريم الخليل بالضيق، وأحسَّ كأن عروقه الملتهبة توشك أن تنفجر، بعد تلك الليلة المضنية التي قضاها وإخوانه في الطريق من عاليه إلى بيروت حيث نصبت لهم المشانق..

وكان الشاب الثائر يروح ويجيء في أرض الغرفة الصامتة الموحشة المغلقة على سرّها..

وكان يقف حيناً أمام أحد رفاقه المحكومين بالموت فيهمس في أذنه بضع كلمات مشجعة ثم يتابع سيره قلقاً مضطرباً... ثم يتمهل قليلاً أمام النافذة فينعكس ظله على الجدار المضيء طويلاً رهيباً يزيد الغرفة الصامتة روعة ووحشة...

ويحدق عبدالكريم في الأفق البعيد الذي تحوّل شحوبه الحزين إلى

دم متوهج . . . ويفكر في ماضيه ويعرض صور حياته . .

وعبثاً يحاول الشاب أن يعود بذاكرته إلى عهد الطفولة وعهد الفتوّة فإنه لا يذكر إلا عهد الشباب وهو عهد الثورة والنضال . . فكأن حياته لم تبدأ إلا يوم وعى ذاته وعرف قوميته وآمن بحق أمته في الحرية والحياة الكريمة . .

إنه لا يكاد يذكر حتى صور القرية اللبنانية التي ولد فيها، وحتى صور الحب التي عاشها على ضفاف البوسفور في لياليه الماتعة الجميلة . . . ولكن شدّ ما يذكر المآسي التي عاناها مواطنوه تحت نير الظلم العثماني . . وألوان الهول التي يقترفها هذا الاستعمار الغاشم .

لقد كان ذلك في أوائل القرن العشرين، وقد تيقظت القوميات الأوروبية، وأعلنت شعوب البلقان ثورات عنيفة على تركية من أجل حريتها واستقلالها، تركت في شعوب الشرق والبلاد العربية أثراً بعيداً . .

وشعرت الدول الأوروبية بأن المملكة العثمانية تشرف على الانهيار فأخذت تستعد للوثوب عليها لتمزيق أوصالها واقتسام أراضيها . . وأثار ذلك في العرب شعوراً جديداً بالحذر والاستعداد والنهوض .

وكانت السياسة العنصرية التي انتهجها الاتحاديون للقضاء على نهضة العرب وصهرهم في البوتقة التركية، حافزاً آخر لانتشار الدعوة العربية إلى التنبه والاتحاد .

وتألفت من أجل ذلك الجمعيات والأحزاب التي تعمل في السر

والعلن لإيقاظ العرب وإنهاضهم وإحياء مجدهم الغابر وتراثهم القومي العظيم.

وتعددت جمعيات العرب وأحزابهم السرية في استانبول ودمشق وبيروت وبغداد وفي المهاجر الأجنبية.. فقد كانوا أشبه بسرب من النحل جاء من يحرّك قفيره..

وما لبثت هذه الجمعيات أن عقدت في ١٨ حزيران ١٩١٣ مؤتمراً في قاعة الجمعية الجغرافية بشارع سان جرمان بباريس..

ووضع مؤتمر باريس مقررات هامة تضمنت مطالب العرب الأولية، وسلمت هذه المقررات إلى سفير المملكة العثمانية في باريس ليرفعها إلى الباب العالي.

وتلخص هذه المقررات في وجوب القيام بالإصلاحات السريعة في كافة أنحاء المملكة العثمانية، وأن يضمن للعرب التمتع بحقوقهم السياسية، وذلك باشتراكهم في الإدارة المركزية اشتراكاً فعلياً، وإنشاء إدارة لا مركزية في كل ولاية عربية، تنظر في حاجاتها وعاداتها، وتوسيع سلطة المجالس العمومية واعتبار اللغة العربية فيها لغة رسمية، وجعل الخدمة العسكرية في هذه الولايات محلية إلا في الظروف التي تدعو إلى الاستثناء الأقصى..

وكان هنالك ما هو أهم من هذه المقررات، وهو إجماع أعضاء المؤتمر الذين يمثلون الجمعيات العربية في العواصم الكبرى على أن تكون المقررات برنامجاً سياسياً ولا يمكن مساعدة أي مرشح في الانتخابات التشريعية إلا إذا تعهد بتأييدها وطالب بتنفيذها، واتفاقهم على مقاطعة

السلطة العثمانية ورفض أي منصب لديها إذا لم تعمل على تنفيذها.

وقد اهتم المسؤولون في استانبول بهذه البادرة الخطرة، ووعدوا بدراسة المذكرة التي قدمها أعضاء المؤتمر والعمل على تنفيذ ما تضمنته من مطالب إصلاحية..

وعاد عبدالكريم الخليل إلى الآستانة ليراقب عن كثب تحقيق الحكومة الاتحادية لوعودها.. واستبشر الشاب خيراً حين برّت ببعض هذه الوعود فزار الباب العالي في ١٤ آب سنة ١٩١٣ مع نفر من رفاقه العرب وقابلوا الصدر الأعظم سعيد سليم باشا وخطب باسم الوفد شاكراً للحكومة اقتناعها بضرورة تحقيق المطالب العربية مناشداً إياها بتنفيذ بقية مقررات المؤتمر.

وجاء رئيس المؤتمر عبدالحميد الزهراوي إلى استانبول وتم الاتفاق بينه وبين الحكومة الاتحادية على تنفيذ بعض الإصلاحات، وصدر مرسوم بتعيين رئيس المؤتمر وبعض الشخصيات العربية أعضاء في مجلس الشيوخ العثماني.

وقد قابلت الشبيبة العربية هذا التعيين بالاستياء، وعدّته خرقاً لمقررات باريس، ولامت عبدالكريم على ذلك باعتباره مسؤولاً عن سياسة التقارب، ولكنه استطاع إقناعها بأن التعاون بين العرب والترك كفيل بصد خطر استعماري آخر يهدد البلاد العربية من الغرب، وأن التعاون المحدود لتحقيق مطالب العرب وتعزيز نهضتهم...

ولكن هذا الهدف المزدوج كان شديد التناقض، وكان لا بد من أن يطغى أحد شقيه على الآخر. فإما أن يسير عبدالكريم وإخوانه مع

الأتراك متناسين مطالب العرب، وإما أن يضعوا مطالب العرب نصب أعينهم فلا يتحولون عنها أو يفرطون فيها أبداً. .

وحين أعلنت الحرب العالمية الأولى وجاء عبدالكريم الخليل إلى سوريا للدعوة إلى التفاهم بين العرب والترك للوقوف صفاً واحداً في وجه الخطر الاستعماري الهاجم من الغرب. . لم يستطع الشاب الذي شهد ما يعانيه العرب من ظلم الأتراك إلا أن يقول كلا. . .

لقد قالها كلمة قوية جريئة في وجه جمال باشا حين اجتمع به في القدس على أثر إخفاق حملة القناة في الثاني من شباط ١٩١٥.

لقد قال عبدالكريم لجمال باشا إن الشعب العربي لا يطمئن إلى دعوة تركية لأن فعلها يناقض قولها، وهو فوق ذلك ضعيف الثقة في أن تستطيع تركية صيانة البلاد من الخطر الهاجم. . وأجاب السفاح بزمجرة مهددة مخيفة وطلب من الشاب في كثير من الازدراء أن يُطمئِن العرب ويثبت إيمانهم بقوة الجيش التركي ويدعوهم إلى الخضوع والسكون. .

وعاد عبدالكريم ولكنه لم يفعل من ذلك شيئاً، وإنما فعل الكثير في إنهاض الهمم وإلهاب المشاعر وبث الإيمان بأنَّ بعثَ العرب آتٍ لا ريب فيه. .

* * *

رأى جمال باشا أن اليقظة العربية سيشتد أمرها ويستفحل خطرها. . فأخذ يعد لها عدته. .

وفي أواخر شهر حزيران من تلك السنة فوجىء الناس باعتقال عبدالكريم الخليل وعدد من الشبان الأحرار، والتحقيق معهم بعاليه

أمام «ديوان الحرب العرفي».

وعبثاً تفننت هيئة التحقيق في تعذيب عبدالكريم لتنتزع منه وشاية بحق إخوانه وشركائه.

وفي العشرين من شهر آب، عند منتصف الليل نقل الأحرار المعتقلون من عاليه إلى دائرة الشرطة في بيروت.. فأدركوا على الفور ما أعد لهم، فلم يجزعوا ولم يهنوا..

وسأل عبدالكريم الخليل مفوض الشرطة: «ألا يحضر الوالي عزمي إعدامنا؟» فأجاب المفوض: «كلا.. إن مدير البوليس ورضا باشا يكفيان».

وطلب عبدالكريم من مفوض الشرطة استدعاء مدير البوليس، وحضر المدير وكان ضابطاً عملاقاً لم يعرف في حياته غير إصدار الأوامر فنظر إلى عبدالكريم في شيء من الاحتقار وسأله عما يريد.. فحدّق الشاب العربي بكبرياء وقال له: «ألا تذكر أنني أنقذتك من الموت مرتين؟..».

فقطب مدير البوليس حاجبيه وأنعم النظر في محدثه.. ثم قال: «نعم إني أذكر ذلك.. ولكنني عاجز الآن عن مكافأتك! فقد حكم عليك من يده فوق يدي..».

وقال عبدالكريم بإشفاق: «أنا لا أطلب منك أن ترد لي الجميل، فما أنت وأمثالك بأهل لذلك. ولكني أطلب منك أن تقابلني بالوالي عزمي».

فرفض المدير طلبه وقال: قل ما تشاء وأنا أنقل حديثك إليه حرفاً

حرفاً.

ولكن عبدالكريم آثر الصمت.. وأجاب مدير البوليس بقوله: «إذا كان الأمر كذلك فإني أرجوك أن تمنع كل تركي من الدخول علينا.. هذا هو رجائي الوحيد إليك..».

فقال مدير البوليس: «ليكن ذلك.. لن يدخل أحد عليكم حتى يأزف الموعد..».

فأدار الثائر العربي ظهره وعاد إلى حيث ينتظره إخوانه.. وأخذ يروح ويجيء في أرض الغرفة الصامتة الموحشة المغلقة على سرها.

* * *

وارتفعت الضجة فجأة فأفاق عبدالكريم من ذهوله..

وكانت هذه الضجة مزيجاً من وقع حوافر الخيل وصليل السلاح وأوامر الضباط وضربات المطارق التي تنصب المشانق في الساحة العامة..

وكان المحكومون يكتبون رسائلهم الأخيرة إلى الأحباء الذين سيغادرونهم بعد قليل إلى الأبد.. فاجتذبتهم هذه الضجة ودنوا من النافذة ليطلوا على الساحة الرهيبة فإذا بالجنود يقبلون ليسوقوا إلى ساحة الموت رجال القافلة الأولى من شهداء العرب..

وكان عبدالكريم الخليل أول من وقف تحت حبل المشنقة، وكان من أجرأ إخوانه وأثبتهم جناناً.. وقال قبل أن يلفظ أنفاسه الطاهرة: «إذا كان جمال باشا يتهمنا بإضرام نار الثورة لاستقلال العرب فلا بد من ضحايا لهذا الاستقلال، ولنكن نحن أول هذه الضحايا...».

وجيء بعد ذلك ببقية المحكومين فطفق الأخوان أحمد ومحمد المحمصاني يشجع كل منهما أخاه وصعدا إلى المشنقة وهما يبتسمان، وقالا إن ما فعلاه وقاما به إنما كان عن اعتقاد ثابت بأنهما يخدمان بلادهما، ودفعا الطاولتين من تحت أقدامهما بحركة واحدة وهما يهتفان بحياة العرب . .

وتتابع أفراد القافلة واحداً بعد آخر . .

وحين فتحت الشمس أجفانها بعد قليل كان كل شيء قد انتهى وصعدت أرواح أحد عشر شاباً من أبطال العرب .

وكانت البلاد العربية تشخص إلى بيروت زائغة البصر، وتنصت واجفة القلب، لتتلقى عن أولئك الأحرار السابقين سر البطولة وشرف القدوة .


الشهيد عبد الكريم الخليل

الفهرس العام

ثمانية من أبطال العرب

- عبد القادر الجزائري
- عمر المختار
- يوسف العظمة
- عبد الكريم الخطابي
- عبد القادر الحسيني
- سعيد العاص
- حسن الخراط
- عبد الكريم الخليل